محاضرات

فى

تاريخ أوروبا في العصور الوسطي من القرن الحادي عشر إلي القرن السادس عشر الميلادي

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

بسم الله الرحمن الرحيم
© sa2eh.com

الكلية	**الآداب بقنا**
الفرقة	**الثانية**
التخصص	**التاريخ**
عدد الصفحات	**٢١٢**
إعداد	**أ.د محمد عبدالشافى**

مقدمة :

يشمل هذا الكتاب الذى بين أيدينا على معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى من القرن الحادى عشر إلى السادس عشر الميلادى ، وقد شهدت هذه الحقبة من الزمن تطورات عديدة فى كافة المجالات . والموضوعات التى تناولها الكتاب موضوعات غطت تقريباً معظم معالم تاريخ أوروبا فى تلك الفترة .

والمتعارف عليه أن تعبير (العصور الوسطى) لم يستقر إلا منذ أن دخل المناهج المدرسية وأصبح تعبيراً دائماً مقبولاً رسمياً ومستعملاً فى كتب الغرب الأوروبى ومدارسه ، ولقد أخذنا نحن العرب هذا الاصطلاح واستعملناه فى كتبنا ومناهجنا الدراسية غير أن التردد والخلاف مازال بين المؤرخين حول نقطة البدء ونقطة الختام ، والحق أن كل عصر يعتبر عصراً وسيطاً ، ونحن بدورنا فى العصر الحاضر سنصبح ذات يوم عصر وسيط بالنسبة لأخلافنا .

واستخدم بعض المؤرخين كلمة النهضة أو الرنيسانس *Renaissance* للإشارة إلى فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة على الرغم من صعوبة تحديدها تحديداً زمنياً دقيقاً كأن نقول أنها تنحصر بين تاريخين معينين ، وإذا حاولنا أن نحدد عصر النهضة بتاريخين معينين فإننا نكون أشبه بشخص يحدد يوماً بذاته لانتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة ثم إلى الشباب ثم إلى الشيخوخة ، فكل مرحلة من مراحل نمو الإنسان تتداخل نهايتها مع بداية المرحلة التى تليها إلى أن تتوارى لتفسح الطريق أمام المرحلة الجديدة ،

وكذلك شأن عصور التاريخ فرغم وجود فوارق واختلافات بين العصر القديم والوسيط والحديث إلا أن من الصعب وضع فواصل محددة للتمييز بين هذه العصور لأن نهاية كل عصر تتداخل مع بداية العصر الذى يليه وتتشابك فى فترة التداخل أو الانتقال ، وعلى ذلك فليس من السهل على الباحث أن يحدد تاريخاً فاصلاً بذاته بين العصور الوسطى والحديثة ، كما فعل بعض المؤرخين حين اعتبروا عام ١٤٥٣ (سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين) أو عصر النهضة فى إيطاليا كحد فاصل بين العصر الوسيط والحديث ، وما يؤكد ذلك أن الانتقال لم يسر على نمط واحد فى الأقطار الأوروبية المختلفة بالإضافة إلى ذلك أن الانتقال من العصور الوسطى إلى الحديثة لم يسر على نمط واحد داخل شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها ، إذا كانت كل مدينة أو إقليم نهضته الخاصة به وحده .

ويسعدنى أن أعد هذه المحاضرات لطلابى فى جامعة جنوب الوادى اعتمدت فيها على ما قدمه أساتذتى فى هذا المجال من مؤلفات صافية فى إبداع وأصالة مازالت تفخر بها المكتبة العربية .

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة
المقدمة	٦-٧
الفيكنج	٨-٢٢
الفصل الثاني الأباطرة السكسون والساليون (الفرانكيون) والهوهنشتاوفن فى ألمانيا (ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة)	٢٣-٦٤
الفصل الثالث آل كابيه فى فرنسا (٩٨٧ – ١٣٢٨ م)	٦٥-٨٩
الفصل الرابع إنجلترا تحت الحكم النورمانى والبلانتاجنت	٩٠-١٢٠
الفصل الخامس أوروبا والمغول	١٢١- ١٥٩
الفصل السادس حرب المائة عام	١٦٠- ١٨٢
الفصل السابع البابوية بين القوى المختلفة فى إيطاليا والإمبراطورية الرومانية المقدسة	١٨٣- ٢١٢

الفصل الأول

الفيكنج

أهداف الفصل الأول

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً بالآتي:

١- مصطلح الفيكنج Vikngs

٢- الطبيعة الجغرافية لشبه جزيرة اسكندناوه

٣- –النشاط الحربي للفيكنج

٤- حضارة الفيكنج

الفصل الأول
الفيكنج

الفيكنج Vikings: هم العناصر الشمالية الي سكنت شبه جزيرة اسكندناوه، وهم الدانيون Danes أو الدنماركيوم والنرويجيون والسويدونوكلهم يرجعون إلى أصل أنجلو سكسوني، وقد أطلق على هذه العناصر أسم الفيكنج Vikings بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بها شواطيء الجهات الشمالية الغربية من أوروبا[(١)].

والمعروف أن الفيكنج ينتمون إلى العنصر التيوتونى غير أنهم من الناحية التاريخية يختلفون كثيرًا عن الجرمان الأوائل إذ أن أوروبا لم تعرف شيئًا عن اسكندناوه قبل القرن التاسع الميلادي إلا من خلال ما رواه عنها عدد ليس كبير من التجار المغامرين أو مما جاء في القصص عن غارات القراصنة التي كان يقوم بها النورثمن- وهو الأسم المرادف للفيكنج والذي أطلق على الدانيين والدانمارقيين والسويديين والنرويجيين- من حين لآخر على ساحل فريزيا وانجلترا وكان هؤلاء الفيكنج حتى وقت ذاك متبربرين وثنيين لم يعرفوا إلا ما ساد عند التيوتون من صورة بدائية للحكومة والمجتمع والديانة[(٢)].

والواقع أن شبه جزيرة دانمارقة كان يغطيها غابات كثيفة من أشجار الزان والبلوط، كما اشتهرت النرويج بالتربة الحجرية والسلاسل الجبلية الشاهقة، أما السويد فقد غلب عليها البحيرات والمستنقعات

والمرتفعات كل ذلك لم يجعل الحياة صالحة إلا على الشاطيء، وإذا أقام النورثمن على الخلجان وعلى رؤوس الفيوردات العميقة التى قطعت السواحل، لم يكونوا فحسب شعبًا يميل للمغامرة والحرب بل أصبحوا من أبرع الناس في أمور الملاحة وصيد الأسماك وبناء السفن، حتى أن الحرب اتخذت عندهم صفة القرصنة بدلًا من الإغارة برًا، ويضاف إلى ذلك أنه بينما هاجر الجرمان بكافة أقوامهم وشعوبهم لينفذوا إلى الإمبراطورية الرومانية لم يقم الفيكنج بالغارة إلا في جماعات متفرقة تخضع كل منها لأحد القادة.ويختلف الفيكنج عن الجرمان الذين غزوا أوروبا من قبل ذلك لأن الطبيعة لعبت دورًا مهمًا في تكوين تشكيل بلادهم، وقد ظل الفيكنج على وثنيتهم وتمسكهم بعبادة قوى الطبيعة وآلهة رمزية مثل : إله الرعد وإله الخصب وآلهة الحروب وغيرها، كما أدت عزلتهم وتطرف وضعهم الجغرافي إلى عدم تأثرهم بالمؤثرات اللاتينية التى لعبت دورًا مهمًا في تطوير الجماعات الجرمانية الأولى ولهذا ظل الفيكنج متبربرين بدائيين يحافظون على بنائهم الإجتماعي ويتمسكون بنظمهم في الحكم والدين(٣).

أما الأسباب التي دفعت الفيكنج إلى الخروج من بلادهم والقيام بحركاتهم التوسعية فهي أسباب نفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية. فمن الناحية النفسية، أثبت التاريخ دائمًا أن الشعوب المتخلفة يغلب عليها شعور الحسد والطمح في البلاد المتحضرة القريبة منها والرغبة في الإغارة عليها لنهب ثرواتها وهذا الشعور كان أحد العوامل التى حركت الجرمان نحو أراضي الإمبراطورية الرومانية من قبل، كما أنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج في القرن التاسع، أما الناحية الاقتصادية فالملاحظ أن الفيكنج كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا لذلك اهتز الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرًا لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجاري وبالتالي مضايقتهم اقتصاديًا، ومن الناحية الاجتماعية فالملاحظ أن أعداد الفيكنج قد تزايدت في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطيء اسكندناوه والدنمارك مما دفعهم إلى الهجرة إلى أرض الله الواسعه والإغارة على البلاد القريبة الدافئة بغية الحصول على ما يسد حاجتهم والواقع أنه لا توجد أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببًا رئيسًا لهجرة الفيكنج في القرن التاسع، أما عن الأسباب السياسية فيتمثل ذلك في نشأن الملكية بين الفيكنج وبخاصة في النرويج حيث تركزت السلطة فرب منتصف القرن التاسع في يد هارولد الأشقر *Harlod Fair hair* الأمر الذي جعل كثيرًا من الزعماء يفضلون الهجرة إلى أوطان جديدة عن الخضوع في ظل لم يألفوه وهناك من

الدلائل ما يشير إلى أن السويد والدنمارك شهدتا أيضًا تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفيكنج إلى الهجرة[٤].

والواقع أن شعب الفيكنج كان يميل إلى المغامرة والحرب بارعًا في أمور الملاحة وبناء السفن حيث اشتهرت سفنهم بأنها سفنًا هائلة قليلة العمق مبنية بناءًا قويًا، كما كانت قواربهم الصغيرة مكشوفة وطويلة ومدببة حتى نهايتها ودعمت كل حافتيها بصف من الدروع وكانت تسير بالمجداف أو الشراع وطافوا بهذه السفن سواحل أوروبا وجابوا بها المحيط المتجمد الشمالي وشمال المحيط الأطلسي ووصلوا إلى البحر المتوسط[٥].

أما عن نشاط الفيكنج فقد شمل منطقة بالغة الاتساع، إذ طافوا بسواحل أوروبا، فأبحرت قواربهم الصغيرة المحيط المتجمد الشمالي وشمال المحيط الأطلنطي، ونزلوا في جزر أوركنى وفارو وهبريد وشتلاند. وجزيرة مانا، وحلوا بأيسلندا واكتشفوا جرينلاند وأمريكا الشمالية، وأقاموا مملكة في دبلن(بأيرلندا) استمرت حتى عام ١٠١٤م، واستولوا على جانب من إنجلترا وشمال فرنسا، وهبطوا إلى فريزيا وأغاروا على أسبانيا وهاجموا مراكش، وموانيء الريفييرا وإيطاليا. وأوغلوا في فنلندا وسهول روسيا الشمالية، ووصلت سفنهم إلى البحر الأبيض بعد أن طافت بالساحل الشمالي لاسكندناوه، فأنشأوا مستعمرتين في نوفجورد وكييف، وبغوا بحر قزوين والبحر الأسود، واتخذوا منهم الأباطرة البيزنطيين حرسًا لهم، واتصلوا بالاسكيمو واللاتينيين واليونانيين والعرب، واتخذوا لهم أوطانًا في صقلية وايسلندا وزخرت المقابر الاسكتديناوية بمقادير ضخمة من نقود الانجليز والفرنجة والبيزنطيين والعرب[٦].

واجتاز السويديون بحر البلطبق وشقوا لهم طريقًا في روسيا إلى البحر الأسود. أما الدانمرقيون فإنهم اتبعوا الساحل الغربي لأوروبا حتى بريتاني وما يليها، بل إنهم عبروا إلى شاطيء إنجلترا المواجه لهم، وهذا هو الطريق المتوسط لغارات الفيكنج بينما يعتبر اتجاه السويديين الطريق الشرقي، وسلك النرويجيون ومن معهم من الدنمرقيون الطريق الخارجي إلى شمال اسكتلندا حيث سيطروا على الجزر الشمالية، واندفعوا إلى أيرلندا وأيسلندا وجرينلند(٧).

أما بالنسبة لإغارات الفيكنج في أوروبا فيعتبر ما قاموا به ضد الإمبراطورية الكارولنجية أهم هذه الغارات وأحد الأسباب الرئيسة التى زعزعت هذه الإمبراطورية وساهمت في تداعيها، وذلك علي الرغم من أن هؤلاء الفيكنج الذين غزوا فرنسا في القرن التاسع كانوا قليلي العدد، وأن غزوهم لم يكن يمثل طوفانًا مثل غزو العناصر الجرمانية الأولى، لكنه سبب رعبًا وفوضى أدت إلى لجوء كثير من الرجال إلى النبلاء المجاورين يلتمسون الحماية ويقدمون الخدمة العسكرية في مقابلها، وكان الراهب القديس "جال" على حق حين آسف على أن شارلمان لم يقضِ علي الدانيين بعد فراغه من ظامر السكسون، وقد جاء في أحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأى بنفسه إحدى إغارات الدانيين على سواحل دولته، وأنه آسف لذلك كثيرًا والتفت إلى أتباعه قائلًا : لقد تأثرت لذلك كثيرًا.. وأنني لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام وأرى كم من الضرر سيلحقه أولئك بذريتي وخلفائي وشعوبه"(٨).

فالواقع أن إغارات الفيكنج على الإمبراطورية الكارولنجية بدأت في حياة شارلمان الذي أدى توسعه شمالًا إلى إيجاد حدود مشتركة بينه وبين

الدانيين ، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع إغاراتهم على شواطيء الإمبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموت أحد القري أو المراكز الساحلية، وعلى الرغم من أن شارلمان أعد اسطولًا قويًا في مواني‌ء نسترياء لحماية شواطيء امبراطوئيته من هجمات الفيكنج لكنهم استمروا في إزعاج شارلمان حتى أنه حاول مفاوضتهم كوسيلة لدفع شرهم[٩].

وفي عهد لويس التقي(خليفة شارلمان) لم تنقطع إغاراتهم على الإمبراطورية حيث استغلوا الخلافات والحروب الداخلية التي قامت حول تقسيم الإمبراطورية فقاموا بالإغارة علي كثير من المدن، حتى أن التقي حاول شراء مسالمة الدانيين بالهدايا والمال كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد ليقيموا فيها ويحولوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج وإن كانت هذه الإجراءات وأشباهها لم تؤدى في الواقع إلا إلى زيادة مطامعهم في الإمبراطورية الكارولنجية[١٠].

ويلاحظ أن أنهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السبيل إلى جوف البلاد. فأوغلوا حتى تور حيث نهبوا كاتدرائيتها، ودخلوا الجارون حتى تولوز في حين أوصلهم السوم إلى أميان، والسين إلى باريس وقد ساعد الفيكنج على التوغل في الإمبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التى أمست فيها هذه الإمبراطورية في القرن التاسع من نزاع وحروب أهلية بين الأمراء والحكام[١١].

أما انجلترا فكانت من أولى البلاد في غرب أوروبا التي تعرضت لغارات الفيكنج وقد أطلق أهل انجلترا من السكسون اسم الدانيين على

جماعات الفيكنج التي أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن الميلادي وأغارت الفيكنج على انجلترا بدأت في الجنوب والغرب ثم ما لبثت أن امتدت شرقًا بثقلها وتلقي بثقلها ضد مملكة وسكس السكسونية وأجزاء متفرقة من الجزيرة، وما لبث الفيكنج أن مالوا نحو الاستقرار فأبحرت سفنهم عبر نهر التيمز قرب منتصف القرن التاسع الميلادى واستولوا على لندن وكانتربوري ورغم ما تعرضوا له من هزيمة على يد السكسون، فقد تحولوا من الإغارات إلى الاستقرار، فقضوا الشتاء لأول مرة عند مصب نهر التيمز سنة ٨٥٥م ثم استبدت بهم فكرة الفتح والاستيلاء فاجتاحوا في الفترة بين سنتي ٨٦٦-٨٧١م معظم الممالك الإنجليزية ولاسيما نورثمبريا ومرسيا وشرق إنجليا، ولم يكن بوسع أحد التصدي لهم سوى الملك الفريد العظيم *Alfred* ملك وسكس(٨٧١-٩٠٠) الذي انعقدت عليه أمال إنجلترا لحفظ استقلالها بعد ضياع لندن وكانتربوري، فأبلى ألفريد بلاءًا حسنًا في حربهم واستطاع أن يلحق بهم عدة هزائم ويجبرهم على عقد صلح سنة ٨٧٥م تعهدوا بموجبه إعلان ولائهم وانتمائهم لدولته، نظير تنازله عن جزء من نورثمبريا ومرسيا وشرق إنجليا باستثناء لندن ومع أنهم أظهروا الإزعان ولم يقيموا لهم ملكًا بلي ولوا أمورهم بعض النبلاء العسكريين، أي أنهم أظهروا روحًا عدائية شديدة تجاه السكان، فطردوا الفلاحين من أرضهم، وقاموا بفلاحتها، وبالغوا في إظهار القسوة والعنف[١٢].

والواقع أن الملك ألفريد اهتم بنشر الديانة المسيحية بين الدانيين وارتبط بالبابوية كثيرًا واهتم بالتعليم، كما اعتنى بالإدارة المدنية، أما عن خلفاء الملك ألفريد فقد حاول خليفته إدوارد(٨٩٩-٩٢٤م) فقد عمل على

توحيد البلاد واسترجاع بعض مناطق الحدود التي سيطر عليها الفيكنج. وخلف إدوارد ابنه إيثليستان *Ethelstane* (٩٢٥-٩٣٩م) نجح في بسط نفوذه على البلاد التي تحت سلطانه وذلك بإرسال نوابًا عنه لإدارة الولايات المختلفة. وبعد موت إيثليستان خلفه في حكم إنجلترا إخوته إدموند *Edmond* (٩٣٩-٩٤٦م) ثم إدرد*Edred*(٩٦-٩٥٥) وقد نجح إدرد في أن يكون ملكًا على كل إنجلترا واعترفت بسيادته جميع العناصر وقدموا له فروض الطاعة والولاء ، وبعد موته حكم إنجلترا إدويج *Edwig*(٩٥٥-٩٥٩م) ثم إدجار *Edgar*(٩٥٩-٩٧٥م)(١٣).

ثم تعاقب على عرش انجلترا كثير من الملوك حتى تولى الملك إثلرد*Ethelred*(٩٧٥-١٠١٦م) عرش انجلترا وعمره حوالى عشر سنوات ومرت البلاد في عهده بظروف عصيبة شجعت الدانيون على تجديد غزواتهم على إنجلترا ولم تكن هذه الغزوات كسابقتها من الغزوات الجماعية بل كانت غزو مرتبة قادها ملوك الدنمارك والسويد وانتهت هذه الحملات بهزيم إيثلرد علي أيدي القوات الدانية بقيادة سوين ، وعجز إيثلرد عن المقاومة وهرب إلى نورمانديا واضطر مجلس الوتيان الإنجليزى أن يعترف بالملك سوين ملكًا على انجلترا الذي ما لبث أن مات عام ١٠١٤م وخلفه على عرش الدانيين ابنه كانوت *Canute*(١٠١٩-١٠٣٥م) الذي حكم كفرد منهم وليس كفاتح يستغل البلاد، غير أن كانوت مات ١٠٣٥م وبموته دب الصراع بين أولاده على وراثة عرش الدانيين ولأثر هذا الصراع لم يتمكنوا من تثبيت دعائم حكم الدانيين في إنجلترت فأقام مجلس الويتان على عرش إنجلترا ابن إدموند وإدوارد الذي يعرف باسم إدوارد المعترف (١٠٤٣-١٠٦٦م)

وهكذا عاد العرش مرة أخرى إلى بيت الفريد الأنجلوسكسونى وانتهى أجل حكم الدانيين على إنجلترا(١٤).

أما أيرلندا فقد قاست أكثر من غيرها في المرحلة الأولى من مراحل إغارات الفيكنج إذ عجز ملوكها عن حماية رغاياهم، في الوقت الذي كانت مدن الجزيرة وأديرتها مكشوفة دون أسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين، وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون إغاراتهم على أيرلندا في أواخر القرن الثامن، حتى تحولت هذه الإغارات إلى نوع من الاستقرار في الجزيرة في أوائل القرن التاسع(١٥).

واستمر الأيرلنديون يقاومون أعدائهم في عزيمة لا تعرف الملل حتى أغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة، وفي سنة ٩٨٠م نزلت أولى الضربات الكبرى بالشماليين عندما حلت بهم الهزيمة في تارا *Tara* واضطروا إلى اطلاق سراح جميع ما لديهم من رهائن، فضلًا عن دفع غرامة حربية باهظة، ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين وأعدائهم عند كلونتارف *Clontarf* سنة ١٠١٤م وانتهت هى الأخرى بهزيمة الشماليين هزيمة ساحقة ومقتل زعمائهم. ومع أن الفيكنج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدتهم الكبيرة في أيرلندا إلا أنهم أخذوا يذوبون تدريجيًا في الشعب الأرلندي على مر السنوات(١٦).

أما عن علاقة الفيكنج بالإمبراطورية البيزنطية ففي القرن العاشر تراوحت علاقتهم بالقسطنطينية بين الحرب والتجارة، حتى أدركوا أخر الأمر أن التجارة تدر عليهم من الربح مالا تجلبه الحرب. فأخذت أساكيلهم المؤلفة من القوارب الخفيفة تبحر في مياه نهر الدنيبر إلى البحر الأسود، وتحمل الفراء والشمع والقطران والعنبر والرقيق وتعود من

بيزنطة والشرق وقد حملت المنسوجات الحريرية والتوابل والأواني المعدنية والأواني الزجاجية، والفيروز والحلى التي يهواها المتبربرين، والمعروف أنه كان بكييف في أوائل القرن الحادى عشر الميلادي ثمان أسواق، نشطت تجارتها مع البولنديين والمجريين والألمان والقسطنطينية وبغداد، ولم يلبث الأباطرة البيزنطيون أن اكتشفوا ما تصف به الروس السويديون من البسالة والشجاعة، فاخذوا منهم الحرس الإمبراطوري، واستمروا يؤلفون هذا الحرس إلى أن أحل الإمبراطور ألكسيوس مكانهم الإنجليز السكسون الذين فروا من قسوة الملك وليم النورماندي(١٧).

أما عن حضارة الفيكنج فالواقع أنهم لم يكونوا برابرة بالمعنى المعروف لأنهم كانوا في الحقيقة مزيجًا عجيبًا من البدائية والنزعة الحضارية إذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم الأولى من جهة في حين فاقوا كثيرًا من شعوب أوروبا المجاورة في بعض نواحى النشاط البشري وبخاصة الحرب والتجارة والتظيم الاجتماعي، ولا شك أن انتشار المسيحية تدريجيًا بينهم أدى إلى تهذيب طباعهم حيث أخذت البعثات التبشيرية تتردد على اسكندناوه والدنمارك منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ومن هذه البعثات بعثة القديس وليبرورد *williprord* وبعثة إبو *Ebbo* (رئيس أساقفة ريمس)، وليس من شك في أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب قد ترك أثرًا واضحًا في مستقبل أوروبا وتاريخها إذ يمكن الوقوف على أهمية هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الين استقروا في شرق أوروبا اعتنقوا ديانة جيرانهم المسلمين في القوقاز بدلا من ديانة جيرانهم المسيحيين في الدولة البيزنطية، فقد امتازت حضارة الفيكنج في الجانب المادى بالثروة والفخامة ومن الواضح أن الفيكنج

تركوا لنا أثرًا حضاريًا واضحًا في كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلندا وانجلترا(١٨).

أما عن غروب شمس العصر الفيكنجي فالواضح أن التغيرات في الحكومة الملكية المتمركزة في الدانمارك والنرويج والسويد ربما كانت عاملًا في عملية دفع الغزاه الفيكنج إلى خارج سكندنافيه، ولما كانت اسكندنافيه تزداد تحضرًا فإن ملوكها عرقلوا الأنشطة الرامية إلى تجوال الجماعات الحربية المستقلة، كما أن انتشار المسيحية في كل أنحاء العالم الاسكندنافي قد عمل على القضاء على فكرة أن اسكندنافية مستودعًا أو مقرًا للبرابرة الغزاة حيث صارت جزءًا مبدعاً في الثقافة الأوروبية الغربية(١٩).

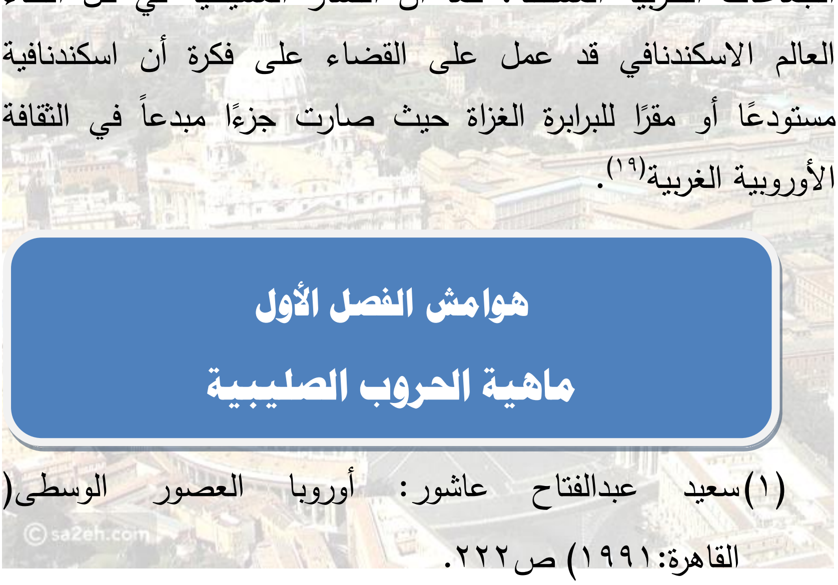

هوامش الفصل الأول
ماهية الحروب الصليبية

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى(القاهرة: ١٩٩١) ص٢٢٢.

(٢) السيد الباز العريني: تاريخ أوروبا العصور الوسطى(بيروت١٩٦٨) ص ٣٥١

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ: الممالك الجرمانية في أوروبا العصور الوسطي (الإسكندرية: ١٩٧٥) ص ٢٥٨

(٤)فيشر(هـ. أ.ب): تاريخ أوروبا العصور الوسطى (القاهرة:١٩٥٠)، ترجمة د.محمد مصطفي زيادة، السيد الباز العرينى، ج١، ص١١١

(٥)محمد محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٥٩

(٦)السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص٣٥٢

(٧)السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص٣٥٢

(٨)محمد محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٧٢

(٩)سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٢٦.

(١٠) سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٢٦

(١١) محمد محمد مرسي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٥٩

(١٢)محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوروبا العصور الوسطى(الإسكندرية:٢٠٠٢) ص ٢٣١.

(١٣) محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص٢٣١-٢٣٨

(١٤) سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٣٩

(١٥) سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٤٢

(١٦) السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص٣٥٨

(١٧) سعيد عبدالفتاح عاشور: المرجع السابق، ص٢٤٩-٢٥٠.

(١٨) هلستر(س-ورن): أوروبا العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحى الشاعر(القاهرة:١٩٨٨) ص١٣٤-١٣٥.

تدريبات على الفصل الأول

السؤال الأول : **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (*T*) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (*F*) وظللها إذا كانت العبارة خاطئة**

١- وصل النشاط البحري للفيكنج جزر.....

(أ. شتلاند- ب. أوركنى-ج. مان- د.كل ما سبق)

٢- تقع شبه جزيرة إسكندناوه جغرافيًا

(أ. شمال القارة الأوروبية- ب. جنوب القارة الأوروبية- ج. شرق القارة الأوروبية- د. غرب القارة الأوروبية)

السؤال الثاني **ظلل في شيت الإجابة** *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل** *False* ● **إذا كانت خاطئة**

١- نجح الفيكنج في إقامة مملكة في دبلن(إيرلندا) استمرت حتى عام ١٠٤١م

٢- اتسمت العلاقات بين الفيكنج والدولة البيزنطية بالعداء الدائم

الفصل الثانى
الأباطرة السكسون والساليون (الفرانكيون) والهوهنشتاوفن فى ألمانيا
(ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة)

أهداف الفصل الثاني

يهدف هذا الفصل إلى :

١- الدوقيات المهمة في ألمانيا خلال العصور الوسطي

٢- الأسر الإمبراطورية في المانيا وأباطرة كل أٍسرة

٣- السياسة الداخلية للأباطرة الألمان خلال العصور الوسطي

٤- السياسة الخارجية للأباطرة الألمان خلال العصور الوسطي

اختلف الجزء الشقى من الإمبراطورية الكارولنجية (ألمانيا)عن الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وإذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارلنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى إخضاع بافاريا وسكسونيا إى أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية ، وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من إمبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الإمبراطورية تتعرض للتفكك والانهيار قرب منتصف القرن التاسع .

وتتضح هذه الفكرة فى شعوب ألمانيا التى أخذت تتمسك بتراثها القديم وتبحث عن زعامة محلية بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكنج والمجريين فظهر زعماء محليون من كبار الأمراء فى كل من سكسونيا وفرانكونيا وسوابيا وبافاريا وهى الأجزاء الرئيسية التى تألف منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا . على أنه يلاحظ أن ألمانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الإمبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تتناقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأفراد الإقطاعيين ، حقيقة أن هناك تشابه واضح فى التطور السياسى بين المملكنين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية إلى أيدى الأمراء المحليين ، وفى أن زمام الحكم انتقل فى كل من البلدين من أيدى سلالة البيت الكارولنجى إلى بيوت أخرى إقطاعية ، ولكن ألمانيا اختلفت عن فرنسا فى أن أراضى الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة فى الأولى ، كما أن نفوذ الأمراء – على الرغم

من ازدياده – لم يصل إلى درجة تقويض نظم الإدارة القديمة مثلما صار الحال فى فرنسا .

والواقع أن الخطر الذى هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحية الأمراء الإقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسها ، فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية ساعدت على توجد سكانها – مع اختلاف أصولهم – إذا بألمانيا تظل منقسمة إلى أقاليم كبرى تختلف عن بعضها البعض اختلافاً بيناً من الناحية الطبيعية حتى صار لكل إقليم منها اتجاهه السياسى وعصبيته العنصرية فإذا كان الجزء الشمالى من ألمانيا سهلى منبسط فإن الجزء الجنوبى جبلى وعر ، وإذا كانت أنهار الشمال تتجه لتصب فى بحر الشمال أو البحر البلطى وبذلك توجه الأهالى نحو الشمال فإن أنهار الجنوب تجرى شرقاً وغرباً لتوجيه الأهالى فى هذين الاتجاهين وهكذا ساعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشعوب والقبائل التى تألفت منها ألمانيا فى نهاية القرن التاسع وهم السوابيون والبافاريون والسكسون والثورنجيون والفريزيرن . (١)

الدوقيات القبلية :

انقسمت ألمانيا أربع دوقيات زعمت كل منها أنها تنتمى إلى قبيلة معينة وهذه الدوقيات تنزلها أقوام السكسون والفرانكونيون والبافاريون والسوابيون ، لكل دوقية شخصية مستقلة ، فلم يعرف البافاريون بهذا الاسم إلا بعد القرن السادس الميلادى على حين أن السكسون والفرانكونيين والسوابيين كانوا معروفين عند مؤرخى الإمبراطورية الرومانية ، ولكل شعب من هذه الشعوب قوانينه وتقاليده الخاصة ، وظل السكسون وثنيين حتى زمن شالمان ، وكانوا أقل من اصطبغ من

الجرمان بالصبغة الرومانية وكانوا من ألد أعداء الفرانكونيين ، وبرغم ما يكنه البافاريون أيضاً من العداء التقليدى للفرانكوانيين فإنهم كانوا أكثر القبائل اعتدالاً وأشهدها تأثراً بالصفة الرومانية نظراً لوضعهم الجغرافى .

وللعامل القبلى أو القومى أهمية خاصة فى كل واحدة من هذه الدوقيات لما له من قوة بالغة التأثير عند كل ثائر طموح ، فى المرحلة المتوسطة من تاريخ أوروبا العصور الوسطى (من القرن العاشر حتى منتصف القرن الثالث عشر) على أنه ينبغى ألا نبالغ فى تقدير هذا العامل إذ لم يحكم الدوقيات منذ بداية القرن العاشر ملوك قبليون بل حكمها دوقات كانوا أصلاً قادة لملك الفرنجة ، وقد يكونون أجانب عن هذه الدوقيات ولم ينجحوا بعد فى جعل وظيفتهم وراثية ، وحرص هؤلاء الدوقات على الاهتمام بالمصالح القبلية وعلى أن يجعلوا من أنفسهم ملوكاً ، غير أنهم لم ينجحوا حتى وقتذاك فى تحقيق أطماعهم .

أما دوقية لوثارنجيا وهى الخامسة ، فهى من طراز مختلف إذ ليس لها أصلى قبلى وليست لها وحدة جغرافية بل يرجع أصلها كما يدل اسمها إلى لوثار الثانى الذى كانت مملكته تشمل هذه الدوقية بعد التقسيمات السرية زمن الكارولنجيين ، وظلت محتفظة بكيانها ولم يتردد سكانها فى أن ينعتوا أنفسهم باللوثارنجيين ، بل إن ذكراها لازالت باقية فيما هو معروف الآن بإقليم اللورين فى فرنسا .

وعلى هذا النحو كانت ألمانيا تضم أقساماً قبلية وصناعية (نتيجة التقسيمات الأسرية) ، وذلك سنة ٩١١ التى مات فيها آخر سليل لشارلمان وهو لويس الطفل ابن لويس الجرمانى .

على أن زوال بيت لويس الجرمانى كاد يؤدى إلى اختفاء مملكة الفرنجة الشرقيين لو لم تتدخل الكنيسة إذ أن كبار موظفى الكنيسة فى ألمانيا لم يعتقدوا فى الملكية على أنها نظام فحسب بل اعتبروا أيضاً أن سلامة ضياعهم تتوقف على وجود ملك قوى ، ففى أثناء حكم لويس الطفل أغتصب الدوقات ضياع الكنيسة كيما يزيدوا فى قوتهم الإقطاعية واقتفى أثرهم صغار النبلاء ، وأحست الكنيسة بالحاجة إلى ملك قوى تقوى بتتويجه وتتخذ منه حليفاً ليحد من جشع النبلاء ، وعلى الرغم من أن الدوقات لم يودوا أن يتولى الحكم ملك قوى فإنهم نزعوا سنة ٩١١ إلى أن يلتمسوا قائداً قومياً نظراً لما تعرضت له جميع ألمانيا ما عدا سكسونيا لغارات المجريين وتخريبهم .

أصبحت مقاومة المجريين مستحيلة ما لم يتول الحكم ملك قوى ومن هنا انحاز الدوقات إلى كبار موظفى الكنيسة لاختيار دوق فرانكونيا كنراد ملكاً ، غير أن كنراد لم يكن لسوء الحظ ملكاً قوياً فلم يستطع وهو القائد الحربى أن يوقف غارات المجريين التى امتدت حتى بلغت بريمن فى شمال ألمانيا ، كما أنه افتقر إلى الموارد التى يستطيع بها كبح جماح الدوقات ، إذ تعرضت الضياع الكارولنجية للاغتصاب إلى حد كبير اثماء حكم لويس الطفل ، لم يسع كنراد إلا الاعتماد على دوقيته فرانكونيا التى كانت أضعف من الدوقيات الأخرى فى الموارد المادية والبشرية فلم يحفل بالملك دوقات سكسونيا وسوابيا وبافاريا ، ومضوا فى توطيد سلطانهم حتى إذا انتهى حكم كنراد أضحى لكل دوق سلطة ملكية كاملة فى داخل دوقيته ، وبم يكن للملك سوى سلطة اسمية ، وأدرك كنراد أ الملكية الألمانية لن تبلغ ما تنشده من قوة إلا إذا تولى أمرها أقوى

الدوقات ولذا حرص وهو على فراش الموت سنة ٩١٩ على أن يرشح لولاية الحكم بعده هنرى دوق سكسونيا وطلب إلى أخيه الأصغر إيفيرارد أن يبذل لهنرى شعائر مملكة الفرنجة الشرقيين (وهى الحربة المقدسة ، والقلائد الذهبية ، وسيف الملوك الغابرين ، والتاج الملكى) ، ثم هتف به جيش الفرنج ملكاً بحضور جميع شعب الفرنجة والسكسون ، وعرض رئيس أساقفة ماينز على هنرى أن يرسمه ملكاً ولكنه رفض واعتذر بأنه ليس جديراً بهذا الشرف ، والواقع أن هذا الرفض لم يرجع إلى كراهيته للخضوع للكنيسة بل إلى كبريائه وإلى أنه لا يود أن يخضع إلى ما كان يعتبر أصلاً من تقاليد الفرنجة . (٢)

أولاً : الأسرة السكسونية

١- هنرى الأول (الصياد) ٩١٩ – ٩٣٦ م :

السلالة الساكسونية ، اجتمع الأمراء الألمان فى فريتزلار فى ١ آيار ٩١٩ وصادقوا على إدارة كونراد الأخيرة وعهدوا بالتاج الملكى إلى هنرى دوق ساكس بعد أن أجمعوا على أنه يفوقهم قيمة وأنه الوحيد القادر على تأمين النظام الداخلى والأمن الخارجى .

ولد هنرى سنة ٨٧٦ وقد خلع عليه مؤرخو العصر الوسيط لقب " الصياد " نظراً لرياضته المفضلة ، وكان أبوه أوتون دوق تورنجة ثم أصبح دوق ساكس عام ٨٨٨ وخلف هنرى أباه على هذه الدوقية عام ٩١٢ ، واستطاع بانتصاراته على السلاف والهونغاريين أن يقوى نفوذه ، وقد مجد المؤرخون صفاته العسكرية واستقامته وحبه العد وطيبه

، مما زاد فى احترامه وولاء الشعب له ، ومنذ توليه العرش كان ينوى توطيد السلام فى الداخل والخارج وذلك من جهة بالبحث عن تفاهم بين الملكية والأدواق ، ومن جهة أخرى بوضع سد فى وجه الغزو الهونغارى الذى طغى من جديد على ألمانيا فى السنوات الأخيرة من حكم كونراد الأول ، وقد استطاع بما عنده من ذكاء وقوة وحس سياسى وشعور بالواجب أن يكون على مستوى المهمة التى ندب إليها غداة انتخابه .

تختلف سياسة هنرى الأول تماماً عن سياسة كونراد الأول ، فقد حكم هذا الأخير مع الكنيسة ضد الأدواق ، أما هنرى فقد انطلق من وجود الدوقيات القومية وعوضاً عن أن يكسر الأطر الجديد التى فرضت عليه بظروف قاسية ، حاول أن يلينها ويمرنها ليسمح للسلطة الملكية بالتكيف معها أو بوضع نفسه فوقها .

وكانت أولى أعمال الملك الجديد ذات مغزى فى هذا الاتجاه ، لقد سماه كونراد ليكون خلفاً له ، ولكن هنرى أراد أن يأخذ التاج من أقرانه وبعد أن انتخب ملكاً رفض بالمقابل أن يبارك ويتوج على يد رئيس أساقفة ماينس هيريغر ، بحجة أنه غير أهل لهذا الشرف وهذا التواضع المتكلف لا يخدع ولا ينطلى على أحد ، لأن الملك الجديد برهن على أنه لا يريد التنكر لماضيه ، وأكد بحزم عن عزمه بأنه يكون مستقلاً عن الأسقفية التى كانت تتمتع بنفوذ حاسم فى عهد الحكم السابق .

وقد ظهرت هذه الاتجاهات بالتقرب من الأدواق وإلحاق الأساقفة بهم ، لأن سياسة هنرى الأول كانت ترمى إلى تضحية الكنيسة وبقاء سلطة الأدواق سليمة ، ولكن هذه السياسة كانت عظيمة النتائج بالنسبة

للملكية لو لم يقم خلف هنرى الأول أوتون الأول برد فعل يعاكس اتجاه أبيه ، لأن ما يخشى منه هو أن تتجرف الكنيسة التى حافظت حتى الآن على وحدتها القوية بالحركة التى فتتت مملكة جرمانيا ، ولكن سياسة هنرى الأول المسالمة لم تعط حتى الآن إلا نتائج طيبة ، لأن الاعتراف الرسمى بالدوقيات تقبله الأدواق بترحاب وأصبحوا مساعدين للملكية ، وعندما اطمأن هنرى الأول لمساندة الأدواق ودعمهم أصبح بإمكانه توسيع ألمانيا باتجاه الغرب وفى الوقت نفسه حمايتها من الغزاة فى الشمال والشرق .

ضم هنرى الأول مملكة اللورين القديمة ولم تتمتع هذه المملكة فى ظل النفوذ الفرنسى إلا بهدوء نسبى فقد ثار أميرها الكونت جيلبيرت بن الكونت رونيه على شارل الساذج وربما كان ذلك منه بتشجيع من هنرى الأول ، وعلى أى حال نشبت الحرب بين ملك فرنسا وجرمانيا عام ٩٢٠ ، ولا تعرف على وجه الدقة المراحل المختلفة لها ، وكل ما يعلم هو أنها انتهت بمعاهدة بون وبموجبها تعهد الملكان بعبارات غامضة بصداقتهما المتبادلة واعترافهما بالممتلكات العائدة لكل منهما .

© sa2eh.com

غير أن سقوط شارل الساذج حل القضية ، وبعد تردد طويل دام سنتين فى حرب أهلية اعترف اللورينيون نهائياً بهنرى الأول ملكاً عليهم فى ٩٢٥ ، وفى العام ٩٢٨ منح هنرى جيلبيرت لقب دوق وزوجة أبنته جيربيج وألفت اللورين دوقية ألمانية كسائر الدوقيات الأخرى .

وبالرغم من أن الملك بارك حقوقياً الانقسام إلى دوقيات كما كانت الحال قبل توليه العرش ، فقد اهتم برفع جاه الملكية وتوجيه

النضال ضد الهونغاريين والسلافيين والدانيماركيين ، وتحرير ألمانيا من الأخطار الخارجية .

لقد عاودت الغارات الهونغارية هجومها فى السنوات الأولى لحكم هنرى الأول ، ولكن الغزو الحقيقى كان فى العام ٩٢٦ عندما انقض الغزاة على بافاريا وسؤاب وأعملوا فيها النهب والحريق ، وتألم هنرى الأول لهذا الحادث وعقد فى أول تشرين الثانى ٩٢٦ مجلساً فى فورمز ضم أساقفة وأمراء علمانيين وتقرر فيه إجراء مفاوضات لانسحاب الهونغاريين ، ثم تلا هذا الغزو هدنة دامت سبع سنوات دفع هنرى خلالها ضريبة للأعداء ، ولكنه أفاد من هذه الهدنة واتخذ استعداده ليجعل ألمانيا فى حالة تمكنها من الدفاع .

ولم يشأ الملك إنشاء ثغور جديدة خشية من أن يتأتى عنها ضعف فى السلطة الملكية ، ولكنه أنشأ حول المدن تحصينات فى ساكس وثورنجة ونظم مقاومة السكان ، وضم أدواق بافاريا وفرانكونيا واللورين جهودهم لجهود الملك وساعدوه فى كل ما أراد وخرجت السلطة الملكية من الأزمة قوية مرفوعة الرأس ، ولا أدل على ذلك من النصر العظيم الذى حققه على الهونغاريين فى العام ٩٣٣ وكان لهذا الظفر أثره فى تأمين مستقبل الملكية .

وفى الوقت الذى كان فيه هنرى الأول يحمى المملكة من غزو الهونغاريين قام بهجوم على السلاف ، ولم يكتف الأدواق الساكسونيون كما كان يفعل الكارولنجيون باستقرار الأقوام حول الايلب بل كانوا

يهاجمونها فى عقر ديارها ، وهكذا فعل الملك هنرى الأول وأخضع بلاد الايلب أخيراً للنفوذ الساكسونى ٩٢٩ .

وامتد نشاط هنرى الأول إلى بوهيميا ودخلت هذه البلاد فى ملك السياسة الألمانية التى شجعت فيها تغلغل المسيحية كما فى سائر البلاد السلافية الأخرى .

وآخر حادث عسكرى فى حكم هنرى الأول كان فى حرب الدانيماركيين وإجبارهم على دفع الضريبة وتهيئة عمل التبشير الذى توجهه كنيسة هامبورغ وقد بدأ هذا العمل فى ٩٣٥ .

وتوفى هنرى الأول فى ٢ تموز ٩٣٦ بعد حكم دام ثمانى عشرة سنة وهذا الحكم إذا ما قورن باسلافه ظهر مثمراً وخصباً ، ففى الخارج صد هجوم المغيرين من هونغاريين وسلافيين ودانيماركيين وفى الداخل وطد السلطة الملكية بوسائل قد تبدو خطرة على المستقبل ولكنها الآن ناجحة ، ووضع حداً للحروب الأهلية باعترافه بالدوقيات ، وبارك بعمله هذا قوة منافسة للتاج وأضعف الكنيسة حليفته ، وسيدرك ابنه وخلفه أوتون الأول أخطار هذه السياسة فيعمل على معالجتها بحدس عبقرية وستتجه فى عهده ألمانيا وجهة جديدة ، لقد رفع هنرى الأول الملكية بعد أن أضناها الأدواق وسيبعث ابنه أوتون الأول الإمبراطورية لصالح جرمانيا . (٣)

٢- أوتو الأول [أو العظيم] (٩٣٦ – ٩٧٣) :

سقط حق انتخاب الملك الألمانى بعد هنرى الصياد ، فبعد وفاته تولى ابنه أوتو عرش ألمانيا وكان فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولكنه مع هذه السن الصغيرة كان مليكاً بحق فى مظهره ومخبره ، وقد نجح أوتو نجاحاً كبيراً فى سياسته الداخلية والخارجية حتى أطلق عليه معاصره لقب أوتو الكبير .

واتخذ أوتو فى سياسته الداخلية أساليب جديدة يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة ، وتمت على ثلاث مراحل ، والواضح أن أوتو كان يستعمل أسلوباً ثم يعالجه بأسلوب آخر وهكذا ، وأول هذه الأساليب أن أوتو لجأ فى بداية عهده إلى أضفاء ألقاب التشريف على الأمراء ونجح فى إقناع الأدواق بأن يؤلفوا حاشية كبيرة فى حفل التتويج الذى أقيم فى مدينة إكس لاشابل (آخن) وهو الحفل الذى توج فيه أوتو على يد هيلدبرت *Hildbert* رئيس أساقفة المدينة .

ولكن هذا الوفاق لم يدم طويلاً فقد حقد هؤلاء الأدواق على أوتو بعدما وجدوا له من نفوذ مطرد ، وقد نجح هؤلاء الأدواق فى إغراء هنرى أخا أوتو بتدبير مؤامرة لخلع الملك من العرش ، إلا أن أخبار هذه المؤامرة وصلت إلى مسامع أوتو فقضى عليها فى مهدها ولم ينزل العقاب بأخيه فعفى عنه ، ولم يكن عفوه ضعفاً بل كرماً ولحكمة رآها ، لأن من ينزل عقاباً بأخيه ينزل بغير أخيه عقاباً أَد وأنكى ، وسيكون لهذا كله أثره فى سير الأحداث .

وحتى لا يتمر هؤلاء الأدواق وجد أوتو أنه لابد من كسر شوكتهم وهى الطريقة الثانية التى اتبعها الملك ولم يلجأ فى ذلك إلى القوة بل لجأ إلى أسلوب آخر وهو خلق دوقيات جديدة منحها لأصدقائه وأقربائه المخلصين وبذلك أصبح الأدواق الدائبوا التمرد قلة وسط الدوقيات الجديدة ، وهكذا نجح أوتو فى أضعاف الأدواق بطريقة غير دموية .

زلمزيد من السيطرة على الدولة وللربط بين الدولة والكنيسة لجأ أوتو إلى الطريقة الثالة وهى أنه نجح فى كسب الأساقفة الألمان إلى جانبه واصبح رجال الدين مساعديه ومستشاريه فغى الشئون الدينية والدنيوية ، بل وصل الحد إلى أن أصبح بعضهم من قواده وبهذه الوسيلة ضم نظاماً قوياً يعتمد على العلمانيين ورجال الدين ، وبعبارة أخرى أتخذ أوتو من الدين المسيحى قوة لتوحيد البلاد وبذلك صهر الولايات الألمانية فى دولة واحدة قوية ، وهكذا نجح أوتو فى القضاء على الإقطاع وأقام ألمانيا القوية الموحدة .

كما نجح أوتو فى السياسة الداخلية فإن الأمر لا يختلف فى سياسته الخارجية ، فقد هاجم المارجيار فى عام ٩٥٥ م وانتصر عليهم ، ونجح رجال الدين فى إدخال بعضهم فى الديانة المسيحية ، فقد اعتنق ملكهم الديانة المسيحية وعرف باسم القديس ستيفن *St. Stephen* وانضم إليه حوالى ألف من المارجيار وأقاموا أسقفية فى مدينة جران *Gran* كما نجح وتهيئ إرغام ملك الدانمرك ودوق بولندا ودوق بوهيما على أن يعترفوا به ملك إقطاعياً ، وعلى ذلك يرى البعض أن أوتو يعتبر شارلمان ألمانيا .

تتويج أوتو وإحياء الإمبراطورية :

تطلعت ألمانيا دون غيرها من دول أوروبا للحصول على اللقب الإمبراطورى وسعت بطرق متعددة للوصل إلى هذه الغاية ، ومن الغريب أننا لا نلاحظ مثل هذا الموقف فى بقية دول أوروبا خاصة إنجلترا وفرنسا اللتان كانتا فى بعض المراحل أقوى من ألمانيا ، وعلى أية حال كان أول من تطلع للحصول على اللقب الإمبراطورى من ملوك ألمانيا هو أوتو ، وحانت له الفرصة عندما دعته أدليد *Adelaide* الجميلة – أرملة لوثر ملك مقاطعة لمبارديا الإيطالية – لمساندتها ضد برنجار أحد الحكام المحليين .

دخل أوتو إيطاليا عام ٩٥١م واستعان بالزواج على السياسة وتزوج من أدليد لتصبح الزوجة الثانية ، فقد كانت الأولى هى أديت *Edith* الإنجليزية وترك لبرنجار الاحتفاظ بإمارته على أن يكون إقطاعياً تابعاً للملك أوتو ، ولكن الأمور سارت على عكس ما تبينه أوتو فقد اعترض الأمراء الإيطاليون على هذا الوضع ورفضوا الاعتراف بالملك أوتو ، وفى الوقت نفسه ظهرت حركة تمرد ضده فى ألمانيا تزعمها أبنه لودلف *Ludolf* دوق سوابيا وكونراد الأحمر زوج ليوتجراد *Liutgrade* ابنة أوتو ، ووجد أوتو أنه بين أمرين ، إما أن يخسر ألمانيا ويكسب التاج الإمبراطورى أو ينقذ ألمانا ويؤجل حصوله على اللقب واختار أوتو الثانية وعاد سريعاً إلى ألمانياً ليجد المتمردين يستعدون بمساعدة المجريين لغزو ألمانيا .

وجد أوتو أنه يحارب فى جبهتين بعد أن أرجأ الجبهة الإيطالية فبدأ بالجبهة الداخلية ونجح فى القضاء على الفتنة وعفا عن ابنه لودلف كما عفى عن أخيه هنرى من قبل ، والتفت للخضر الخارجى واستعد بقواته وتصدى للغزاة وأنزل بالمجريين عند لخفلد *Lechfeld* عام ٩٥٥م هزيمة ساحقة ، وهكذا نجح أوتو فى البقاء على دولته وصد الغزاة وترتب على ذلك نتائج متعددة منها أنها أعطت الفرصة للملك أوتو لإعادة تنظيم دولته حتى بدت ألمانيا الموحدة من أعظم دول أوروبا فى هذه المرحلة .

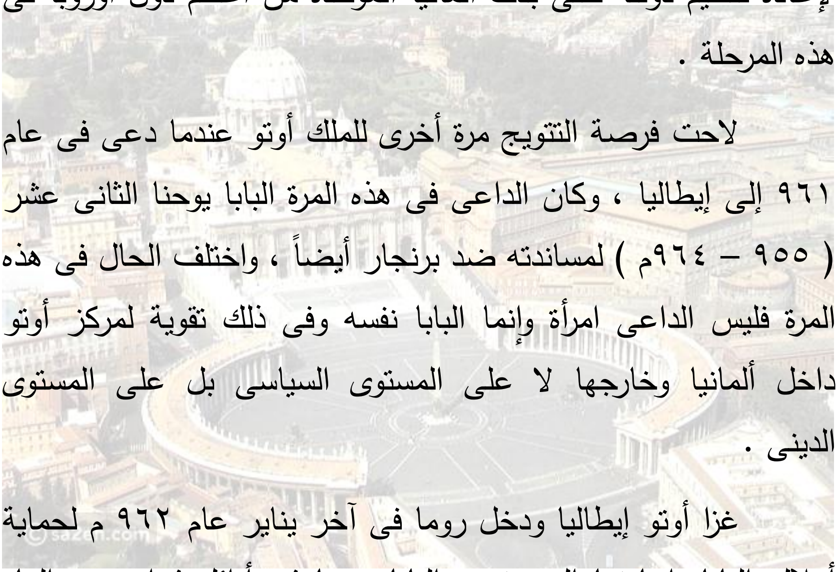

لاحت فرصة التتويج مرة أخرى للملك أوتو عندما دعى فى عام ٩٦١ إلى إيطاليا ، وكان الداعى فى هذه المرة البابا يوحنا الثانى عشر (٩٥٥ – ٩٦٤م) لمساندته ضد برنجار أيضاً ، واختلف الحال فى هذه المرة فليس الداعى امرأة وإنما البابا نفسه وفى ذلك تقوية لمركز أوتو داخل ألمانيا وخارجها لا على المستوى السياسى بل على المستوى الدينى .

غزا أوتو إيطاليا ودخل روما فى آخر يناير عام ٩٦٢ م لحماية أملاك البابا وإعادتها إليه وتوجه البابا يوحنا فى أوائل فبراير من العام نفسه ووعد أوتو بإعادة أملاك البابوية القائمة على هبة بيبن وشالمان ، ولكن أوتو لم يف بوعده الأمر الذى أغضب البابا وندم على تتويج أوتو .

وظل البابا يشكو أوتو لعدم إعادة أملاك البابوية فعاد أوتو إلى إيطاليا واتخذ خطوة ليس لها سابقة فى كنيسة روما ، فقد عزل البابا

يوحنا الثانى عشر ووضع على عرش القديس بطرس البابا ليو الثامن (٩٦٣ – ٩٦٥م) وبعد عودة أوتو إلى ألمانيا تمكن البابا يوحنا الثانى عشر من طرد ليو الثامن خارج روما ، وتطورت الأحداث وتم انتخاب البابا بندكت الخامس (٩٦٤ – ٩٦٦م) دون استشارة أوتو ، فعاد أوتو إلى إيطاليا ودعى المجمع الكنسى للانعقاد وتم انتخاب بابا آخر هو يوحنا الثالث عشر (٩٦٥ – ٩٧٢م) .

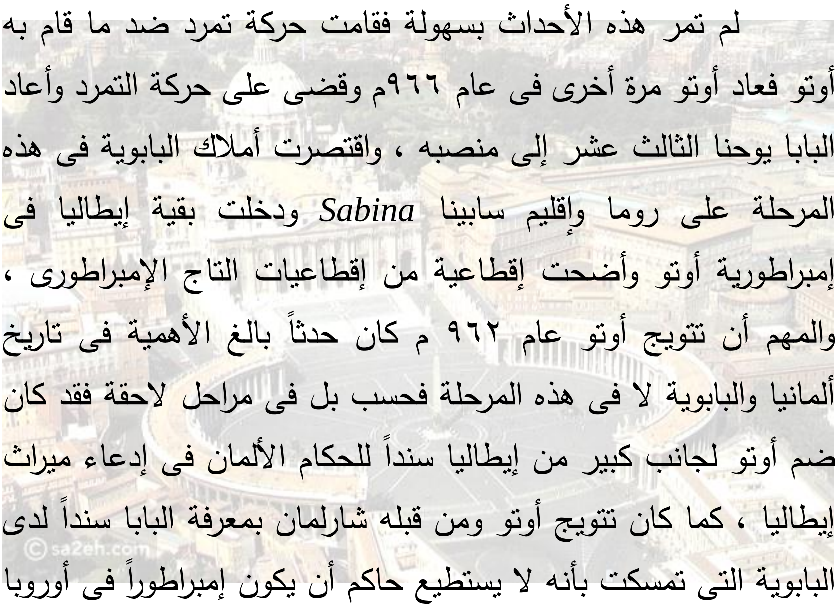

لم تمر هذه الأحداث بسهولة فقامت حركة تمرد ضد ما قام به أوتو فعاد أوتو مرة أخرى فى عام ٩٦٦م وقضى على حركة التمرد وأعاد البابا يوحنا الثالث عشر إلى منصبه ، واقتصرت أملاك البابوية فى هذه المرحلة على روما وإقليم سابينا *Sabina* ودخلت بقية إيطاليا فى إمبراطورية أوتو وأضحت إقطاعية من إقطاعيات التاج الإمبراطورى ، والمهم أن تتويج أوتو عام ٩٦٢ م كان حدثاً بالغ الأهمية فى تاريخ ألمانيا والبابوية لا فى هذه المرحلة فحسب بل فى مراحل لاحقة فقد كان ضم أوتو لجانب كبير من إيطاليا سنداً للحكام الألمان فى إدعاء ميراث إيطاليا ، كما كان تتويج أوتو ومن قبله شارلمان بمعرفة البابا سنداً لدى البابوية التى تمسكت بأنه لا يستطيع حاكم أن يكون إمبراطوراً فى أوروبا إلا إذا توج بمعرفة البابا . (٤)

٣- أوتو الثانى (٩٧٣ – ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية الإمبراطور حنا الأول (٩٦٩ – ٩٧٦) عرض على معاصره الإمبراطور أوتو الأول تصفية

الموقف بين الإمبراطويتين الشرقية والغربية – وبخاصة فى إيطاليا – عن طريق زواج أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو *Theophano* ابنة رومانوس الثانى إمبراطور الدولة البيزنطية الأسبق على أن يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزواجها الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا ، وكان أن رحب أوتو الأول بهذه الفرصة فتم زواج ولى عهده أوتو من عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢ ، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين إيطاليا وألمانيا فى ظل الإمبراطورية المقدسة وإن لم يتضح أثر هذا العامل إلا فى عهد أوتو الثانى ،

وقد اختلف أوتو الثانى الذى أعتلى عشر الإمبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافاً كبيراً فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول فبينما التزم الأب سياسة ألمانية حتى أنه فى إحياء الإمبراطورية كان يرمى إلى خدمة المصلحة الألمانية إذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقاً امتدت إلى خارج حدود ألمانيا بكثير ، فأوتو الثانى نظر إلى إيطاليا والإمبراطورية نظرة اختلفت إلى حد كبير عن أبيه لأن إيطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا ، ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الإمبراطورية القوى ، وفى الوقت نفسه آمن إيماناً قوياً بفكرة الإمبراطورية العالمية وبأن سيطرة الإمبراطور على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان ، وفى ذلك كانت الخطورة الكامنة

على ألمانيا والأسرة السكسونية لأن سياسة أوتو الثانى – ومن بعده أوتو الثالث – التى اتجهت نحو إيطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا ، ولم

ينتج عنها إلا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الإمبراطورية الرومانية بوجه عام .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفوذ بعض الدوقيات الأمر الذى جاء مصحوباً بنزعة انفصالية ، على الرغم من جهود أوتوا الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط الإمبراطورية الوثيق ، وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا تحت حكم الأميرة جوديث *Judith* أرملة هنرى الأول دوق بافاريا بصفتها وصية على ابنها الصغير هنرى الثانى ، وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديث إلى سوابيا عن طريق ابنتها هدويج *Hedwg* زوجة دوق سوابيا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل ، وهكذا رأى أوتو الثانى خطراً جسيماً فى ارتباط بافاريا وسوابيا مما أنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا حتى دفعه الخوف إلى تعيين ابن أخيه دجوقاً على سوابيا عند وفاة دوقها العجوز ، وكان أن ثارت بافاريا (٩٧٦ – ٩٧٨) واستنجدت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا ، ولكن أوتو الثانى نجح فى إخماد هذه الثورة ، كما استغل الفرصة لأضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها ، وهكذا انتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا ، ولكن بعد أن اتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى .

أما فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى أضطر أوتو الثانى إلى الهرب من آخن ، وعندما رد

أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما عجل بإقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠ ، على أن المسرح الرئيسى لنشاط أتو الثانى كان إيطاليا التى ظلت عندئذ ميداناً للفوضى نتيجة لأطماع الأمراء من جهة وإغارات المسلمين من جهة أخرى . وقد حدث أن استنجدت البابوية – كعادتها – بأتو الثانى ضد كرسكنتيوس – أقوى أمراء روما فعبر أتوا جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد الباب بندكت السابع (٩٧٤ – ٩٨٣) إلى روما ، وكان أتو الثانى يطمع دائماً فى أن يجعل سلطة الإمبراطورية العالمية ملموسة فعلاً وأن يثبت نفوذه فى إيطاليا بوجه خاص ولذلك استغل فرصة وجوده فى إيطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة لتحقيق غرضين : الأول طرد المسلمين الذين عبروا من صقلية وهددوا بنفنتو ، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته ثيوفانو بعد أن عادات الدولة البيزنطية على المماطلة فى هذه الحقوق ، وقد صادف أتوت الثانى توفيقاً فى حربه بجنوب إيطاليا (٩٨١ – ٩٨٢) فاستولى على كثير من المدن البزنطية مثل سادرنو وبارى وتارنتو ، كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون *Cotrone* وقتل فى المعركة أبو القاسم أمير صقلية على أن المسلمين لم يلبثوا أن نصبوا كميناً للقوات الإمبراطورية ومزقوها شر ممزق عند خليج كولون *Colonne* سنة ٩٨٢ ، ولم يستطع الإمبراطور نفسه النجاة إلا بصعوبة .

ولاشك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الأولى من نوعها فى تاريخ الإمبراطورية الأوتية ، إذا يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الإمبراطورية الغربية فى وسط إيطاليا بتحرك السلاف

على نهر الألب وأنهم أعلنوا ارتدادهم إلى الوثنية وذبحوا كثيراً من رجال الكنيسة ، لذلك عقد أوتو الثانى مجمعاً فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه وهو المجمع الذى اكتسب أهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وإيطاليا فيه جنباً إلى جنب ، إشارة إلى وحدة البلدين داخل الإمبراطورية على أن لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه واضحة فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الإمبراطور لشن حرب دينية مقدسة ضد المسلمين وفعلاً بدأت الاستعدادات لتنفيذ هذه الفكرة التى يمكن أن تعتبر أساساً للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى ، ومهما يكن من أمر فإن أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أو السلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس بروما . (٥)

٤- أوتو الثالث (٩٨٣ – ١٠٠٢ م) :

مات أوتو الثانى سنة ٩٨٣ وخلفه على الحكم طفل لم يتجاوز الثالث من عمره ، وفى هذه الحالة كان يصح إغفال ما لهذا الطفل من دعاوى فى التاج نظراً لأن مبدأ الوراثة لم يتحقق بعد غير أن ما كان للأسرة من مكانة وما للحكومة التى أقامتها الأسرة من قوة أدى آخر المر إلى اختيار أوتو الثالث ليخلف أباه على الحكم (٩٨٣ – ١٠٠٢) ، وما هو جدير بالذكر أنه تقرر اختيار أمه وجدته لأبيه للوصاية على العرش أثناء حداثته ، والمعروف أن أمه كانت الأميرة ثيوفانو البيزنطية

التى توجها أوتو الثانى ، أما جدته فكانت أديلايد ، واشترك معهما فى إدارة شئون البلاد رئيس أساقفة ماينز وظفرت هذه الوصاية بنجاح كبير كان تعبيراً عن تماسك الإمبراطورية ووحدتها .

واتسمت أعمال أوتو الثالث بما اقترن به شبابه من عاطفة قوية ، ففى مجال الديانة أثار خياله الزهاد أمثال القديس أدالبرت الذى تولى التبشير بين البروسيين الوثنيين ، وخضع أوتو لسلطان أكبر علماء عصره ، وهو مؤدبه الفرنسى جربرت من رهبان دير أورياك وحاز إعجابه رجال إصلاح الديرية أمثال القديس نيلوس فى كلابريا (بجنوب إيطاليا) والقديس روموالد (رافنا) ، وإذا اشتد تأثير الدين فى حياته كاد يتخلى فى أحوال كثيرة عن الاضطلاع بأعباء الحكم وينصرف إلى حياة التقشف والزهد ويسعى لتأدية الحج ، وعين فغى منصب البابوية مؤدبه جربرت باسم سيلفستر الثانى (٩٩٩ – ١٠٠٣) وتمثل فى أوتو الثالث ، (بعد أن انفرد بالحكم ٩٩٤ – ١٠٠٢) كل المظاهر المثالية للإمبراطورية ، فأضحت بيده السلطة كاملة ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وكان يطمع فى تحقيق حلم إحياء الإمبراطورية بالاشتراك مع البابا سلفستر الثانى وكان لهذا الاسم أهميته ودلالته فالمعروف أن البابا سيلفستر الأول هو الذى قام بتنصير افمبراطور قنسطنطين ، حسبما تشير بعض الروايات ونظراً لأن قنسطنطين نعت نفسه بأنه سوى الرسل اتخذ أوتو ألقاباً ذات صفة دينية فأطلق على نفسه خادم الرسل .

وعلى الرغم من أن أوتو اشتهر بالحماس الدينى فإنه أصر أيضاً على أن تكون إمبراطوريته رومانية إذا اخذ عن أمه البيزنطية التقاليد الرومانية الأصلية بعد أن اتخذت صفة يونانية شرقية فى

القسطنطينية وأدرك أوتو أنه لأكثر رومانية من أبيه وجده لأنه ولد فى فراش الإمبراطور من جهة أبيه وأمه .

كتب جربرت : " إنك لإمبراطورنا فأنت لأعلى نسباً وأشد أصالة بين اليونانيين بل إنك لتفوق اليونانيين فى حق الإمبراطورية ، لا فحسب لأنك تحكم الرومان بحق الوراثة بل أنك لتفوقهم جميعاً فى الفكر والفصاحة " .

وحرص أوتو الثالث على أن يتخلص من جفاء السكسون وغلظتهم فشيد لنفسه قصراً بروما التى اتخذها عاصمة له ، بعد أن كانت واحدة من مدن الإمبراطورية وسار على نهج ما اتصفت به بيزنطة من رسوم فى بلاطها وأطلق على موظفيه بالبلاط من الأساقفة الألمان والإيطاليين لقب اللغتينت المعروف فى بيزنطة ، وكانت أسماؤهم تردد أحياناً بالكتابة اليونانية لاعتقاده فى حضارة اليونانيين وثقافتهم ورسم رأس الإمبراطور شارلمان على خاتم نظراً لمتا اجتمع فى شارلمان ما يتصل بالإمبراطورية من أفكار الفرنجة والمسيحيين والرومان ، وحج أوتو إلى ضريح شارلمان بآخن سنة ١٠٠٠ ، والواقع أن إمبراطورية أوتو استمدت قوتها من ذكرى شارلمان فاعتقد الألمان أنه لابد لهم أن ينجزوا ما بدأه شارلمان وكان ذلك هو السر الذى جعل الإمبراطورية تعيش طويلاً على الرغم من أن كلاً من أوتو الثالث وهنرى الأول لم يترك عقباً يخلفه فى الحكم ، لأن شعوب ألمانيا كانت مستعدة لبذل التضحيات واختيار الأباطرة الذين واصلوا العمل فى بناء الإمبراطورية حتى تبقى تقاليد شارلمان والمسيحية وروما . (٦)

٥- هنرى الثانى (١٠٠٢ – ١٠٢٤ م)

مات أوتو الثالث دون وريث فرشح للعرش هنرى الثانى دوق بافاريا وبذلك انتقل الحكم إلى فرع آخر من البيت السكسونى ، ومن أهم ما يميز عصر هنرى تمتعه بسلطة واسعة على الكنيسة فى ألمانيا ولعل ما ساعده على ذلك تدينه وقد قرب إليه رجال الدين واستعان بهم فى شئون إدارة البلاد ، كما أن هنرى اهتم بحركة الإصلاح الدينى التى تزعمها دير كلونى .

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد استنفذت حروبه ضد العناصر السلافية والبولنديين جانباً كبيراً من اهتمامه ولم تنته إلا بعد توقيع الصلح مقابل التنازل عن بعض أراضيه ، كما اضطربت إيطاليا فى عصره وذهب إليها مرتين ، كانت الولى عام ١٠٠٤ والثانية عام ١٠١٣ ، وهى الزيارة التى امتدت حتى مطلع العام التالى حيث توجه البابا بندكت الثمن (١٠١٢ – ١٠٢٤ م) فى فبراير عام ١٠١٤م ومات هنرى الثانى بعد أن حكم اثنين وعشرين عاماً .

انتهت الأسرة السكسونية بوفاة هنرى ، نجحت خلالها فى إحياء الإمبراطورية الرومانية وإن كانت بصورة مصغرة وتطاول سلطانها لبعض الوقت جانباً من إيطاليا وتميز عصر الأسرة باستخدام رجال الدين فى شئون الحكم والإدارة للقضاء على النفوذ الإقطاعى ، وإذا كان القضاء على الإقطاع قد تم بتقوية نفوذ رجال الدين فإن تقوية نفوذ الكنيسة كان له أثره فى القضاء على السلطة الزمنية فى مراحل لاحقة .

الأسرة السالية أو الفرانكونية

عند وفاة هنرى الثانى عام ١٠٢٤ م انتهى آخر ممثلى البيت السكسونى من نوع الذكور ، ولكن النبلاء والأدواق تمسكوا بولائهم لهذه الأسرة فاختاروا نبيلاً من أصل فرانكونى يدعى كونراد ، وينحدر كونراد هذا من فرع إناث أوتو الأول السكسونى ومع بداية عهد كونراد المعروف بالثنى يبدأ عصر الأسرة السالية أو الفرانكونية ويمكن القول أيضاً أن عصر الساليين يعتبر امتداداً للعصر السكسونى . (٧)

٦- كونراد الثانى (١٠٢٤ – ١٠٣٩) :

لم يكن كونراد الثانى ليشبه سلفه ، كان جندياً لا يعرف من أعمال الفكر إلا ما هو ضرورى للحفلات الدينية وشجاعاً جلداً ، وعلى استعداد لبذل شخصه ، يحب العسكرية ويرى فى الحرب خير وسيلة لفرض احترام الإرادة الإمبراطورية وكان حاد الطبع عنيفاً فظاً يرفض كل معاكسة أو مقاومة ، ومقتنعاً بأن لا حد لممارسة سلطته ، ولا يقبل برقابة الكنيسة ورقابة العلمانيين ، ولا يهتم بمراعاة القانون الكنسى إلا قليلاً ، تزوج فى العام ١٠١٦ ابنة عمه جيزيل سؤال ، وهى قريبة من درجة محرمة ، وأبقاها إلى جانبه رغم تحذير بعض رجال الدين ، ولم يعبأ بقوانين الكنيسة وكهانها وأخذ يبيع الأسقفيات ويعتبرها ملكاً تابعاً للتاج خاصة وهذا المزاج الاستبدادى لم ينضب عنه مصادر الذكاء ، فقد كان فكراً قوياً خصباً بالموارد ، وضح النظر عائقاً مرناً فى اختيار

الوسائل ، وهذا ما ساعد كونراد الثانى على أن يكون سياسياً طيباً ومحارباً باسلاً مقداماً وعلى يده دخلت السياسة الإمبراطورية فى دور التحقيق . وفى الحقيقة إن كونراد الثانى عاد إلى تقاليد أوتون الكبير .

أثر كونراد الثانى :

يتصف حكم كونراد الثانى بعودة ظاهرة جدا إلى تقاليد أوتون الكبير والحصول على مكاسب أرضية فى الشرق أرجعت الأراضى التى تنازل عنها هنرى الثانى ، وفى الغرب ضمت مملكة بورغوينا وامتدت الإمبراطورية من الأودر إلى الرون والصون ، غير أن السنتين الأخيرتين فى حكمه كانتا مشئومتين وأضعفت الأزمة الإيطالية فى ١٠٣٧ – ١٠٣٨ الوضع بعد أن كان قوياً غداة انتصاره على الأسلاف وضم بورغونيا ، غير أن كونراد الثانى بعنفه على الأحبار واحتقاره القانون الكنسى فصل عنه الكنيسة وخلق من هذه الجهة معارضة وسيكون لهذه المعارضة صداها فى الإمبراطورية بعد عشرين عاماً . (٨)

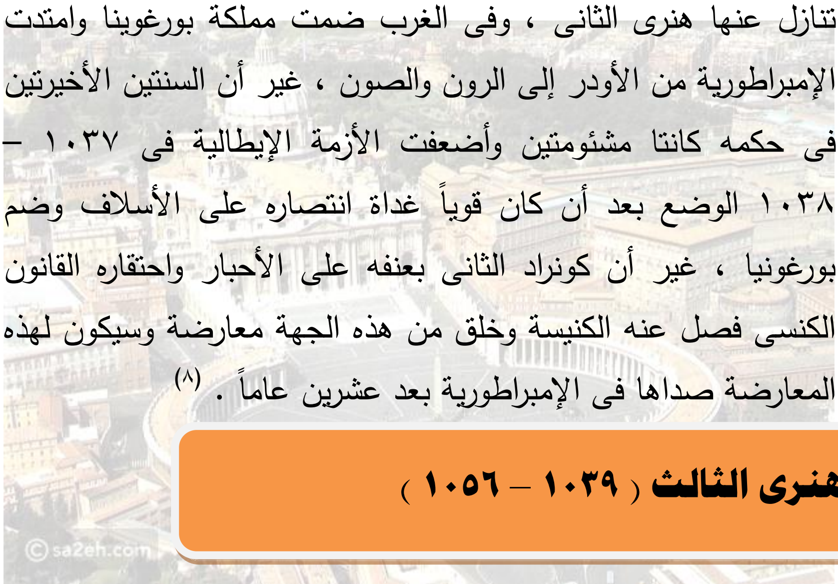

٧- هنرى الثالث (١٠٣٩ – ١٠٥٦)

مات هنرى الثانى سنة ١٠٢٤ ، اختار النبلاء وكبار الكنسيين بألمانيا كنراد (١٠٢٤ – ١٠٣٩) المعروف بالسالى ، ودوق فرانكونيا ملكاً عليهم وكانت أمه ابنة أوتو الكبير ، حاول كنراد أن يسترد ما فقدته مملكة ألمانيا من بلاد أثناء انغماس الملوك السكسون فى شئون إيطاليا وأثناء حكم هنرى الثانى الضعيف على أن ابنة هنرى الثالث (١٠٣٩ – ١٠٥٦) أخذ يوطد السلطة الملكية على أساس سليم إذ أدرك

هنرى الثالث أن الإقطاعيات الكنسية ليست أساساً قوياً تستند إليها الملكية ، فأضحت الحاجة ماسة إلى التماس مركز ثابت قوى للسلطة الملكية مثلما فعل أوتو الأول فى سكسونيا كما أن الحكومة القوية تحتاج إلى موظفين علمانيين موالين للملك وإلى قدر كبير من الموارد المالية .

والمعروف أن السرة السالية كانت تحكم دوقية فرانكونيا وحازت أملاكاً شاسعة فى سوابيا فإذا استطاع الملك السالى أن يضيف إلى هذه الأراضى جنوب سكسونيا وثورنجيا صارت له السيطرة على جوف ألمانيا ، شرع هنرى الثلث فى غقامة قلاع فى ثورنجيا وجنوب سكسونيا وفى شحنها برجال غير أحرار *Ministers* من أملاكه فى سوابيا اشتهروا بالولاء له وخدمة مصالحه ولم يحفلوا بنبلاء السكسون الذين قاوموا امتداد سلطة الملك وبفضل مساعدتهم انتزع هنرى حقوق الدوقات بجنوب سكسونيا فأثار ذلك نبلاء سكسونيا الذين ظلوا زمناً طويلاً مستقلين عن سلطة الملك .

واشتهر هنرى الثالث بكفايته وإدراكه لأهمية وظيفته باعتباره ملكاً إمبراطورياً ، فإذا قدر أهمية الكنيسة فى الكيان السياسى لمملكته فإنه أدرك أيضاً كفايتها فى مباشرة واجباتها الروحية ، ولذا رحب بمن كان فى بلاده من ممثلى حركة الإصلاح الكلونى وساندهم فى إصلاح الأديرة الألمانية وشجع أيضاً أعضاء المجلس البابوى الذين تشبعوا بفكرة الإصلاح وأرادوا أن يتخذوا من البابوية أداة لإصلاح الكنيسة بأسرها والواضح أن هنرى لم يدرك ما تنطوى عليه سياسته من خطر وإذ كانت الأهداف الأولى لدير كلونى منذ البداية ترمى إلى تخليص الكنيسة من

كل سيطرة علمانية وكان على دعاة الحركة الكلونية عاجلاً أو آجلاً أن يقاوموا ما حدث فعلاً من اعتبار كبار الكنسيين الألمان موظفين ملكيين اختارهم الملك وقلدهم شارات وظائفهم ، غير أن هنرى لم يدرك أن ما ينشده من إصلاح إنما قصد به أساس نظامه السياسى .

على أن حكم هنرى الثالث ولد مصادمات خطيرة فى سياسة الإمبراطورية إذ أصر المصلحون من أعضاء المجلس البابوى على إزالة ما للملك من سلطان على كبار الكنسيين وارتاع النبلاء والأحرار السكسون لما أقامه الملك فى أراضيهم من قلاع ولما أحياه من رسوم ومقررات جرى إغفالها منذ زمن طويل ، ولاستقدامه رجاله بسوابيا الذين اعتبروهم شعباً مغلوباً على أمره ، واضطر الأمراء بألمانيا إلى الانصياع للملك الذى حرص على تقويض استقلالهم الذى حققوه زمن الملكيين السابقين . (٩)

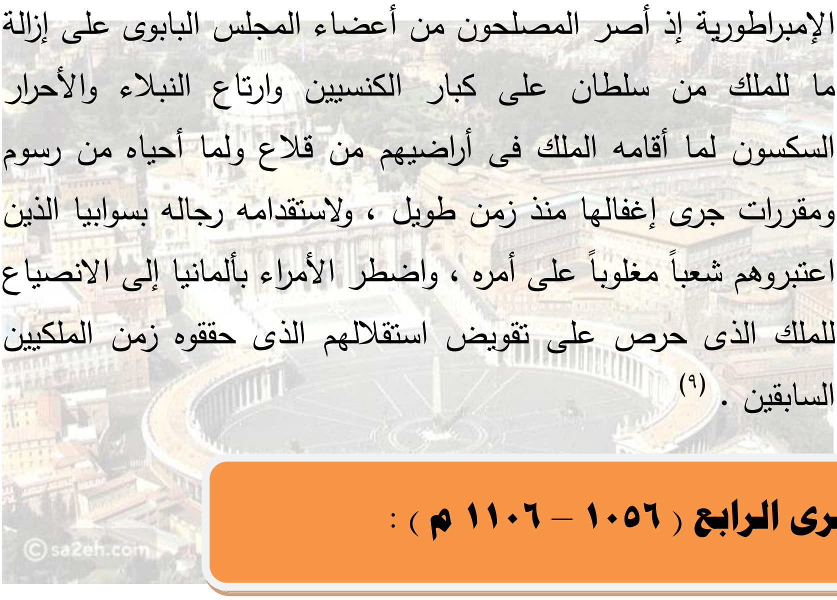

٨- هنرى الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٦ م) :

لما تولى هنرى الرابع الحكم سنة ١٠٥٦ بعد وفاة أبيه كان لا يزال حدثاً صغير السن فخضعت المملكة لحكم أوصياء عديدين ، وتولت البابوية وقتذاك أجرأ المصلحين الكلونيين وأكثرهم حماساً وهو هلد براند الألمانى الذى صار يعرف بالبابا جريجورى السابع ، وعزم جريجورى على أن يضع حداً لما يقوم به العلمانيون من تعيين الموظفين الكنسيين وتقليدهم بشارات وظائفهم ، يضاف إلى ذلك أنه هو الذى أذاع

الفكرة الجديدة عن سلطة الملك إذ ظلت الكنيسة قروناً عديدة تعتبر الملك نائباً عن الله فى حكم الناس وأن رسامته ومسحة بالزيت المقدس يجعل له طابعاً مقدساً ولا يعتبر مسئولاً إلا أمام الله وليس للملك إلا أن يحافظ على الأمن وأن يراعى ضرورة إطاعة أوامر الكنيسة فإذا أعلن العصيان فمن واجب البابا أن يعزله من منصبه .

لم يكد هنرى يبلغ سن الرشد حتى واصل بكل عزم وقوة سياسة أبيه فاختار جوزلار بجبال الهارتز بجنوب سكسونيا لتكون عاصمة له وشيد بها قصراً فخماً وأكثر من تشييد القلاع فى الجهات المجاورة واستقدم عدداً إضافياً من رجاله غير الأحرار وزاد فى الإصرار على انتزاع ما كان للدوقات من مقررات ورسوم فهب السكسون ثائرين غير أن الأمراء خشوا سلطة هنرى وبذلوا له المساعدة فاستطاع هنرى أن يقمع الثورة واشتدت قبضة الملك على جنوب سكسونيا فإذا نجح فى توطيد مركزه لكان ذلك خطوة كبيرة فى ازدياد قوة الملكية إذ أن فرانكونيا وثورنجيا وجنوب سكسونيا تعتبر قلب ألمانيا وقاعدة مثالية لسلطة ملكية قوية ، كما أن مناجم الفضة الغنية الواقعة بالقرب من جوزلار تهيئ له الحصول على المال اللازم لإقامة نظام حكومى قوى .

وكان بوسع هنرى أن ينجح فى مشروعاته لإقامة ملكية ألمانية مركزية قوية لو لم يصطدم بالبابا جريجورى السابع إذ أن البابا أصدر قراراً بحرمان هنرى من الكنيسة لأنه لم يحفل بأوامره عند انتخاب الأساقفة فتهيأت الفرصة للسكسون والأمراء لأن يعلنوا الثورة فصرحوا بأنه ما لم يسترض هنرى الكنيسة فسوف يختارون ملكاً جدياً على أنهم

حرصوا ألا يتم هذا الوفاق فاشتدت مراقبتهم لممرات جبال الألب غير أن هنرى الرابع استطاع أن ينفذ إلى لومبارديا وأن يحشد أنصاره بها ويظفر بعفو البابا بعد أن أذل نفسه فى كانوسا غير أن كل ذلك لم يسو المشكلة فليس فى نية هنرى التخلى عن السيطرة على الكنيسة الألمانية ، ورفض البابا جريجورى الوفاق وحرص أعداء هنرى بألمانيا على الإفادة من النزاع بين الإمبراطور والبابا . (١٠)

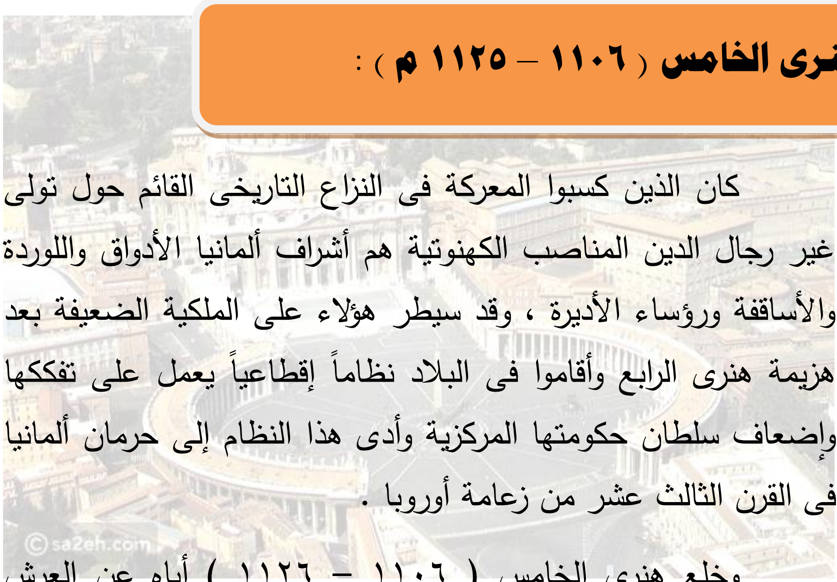

٩- هنرى الخامس (١١٠٦ – ١١٢٥ م) :

كان الذين كسبوا المعركة فى النزاع التاريخى القائم حول تولى غير رجال الدين المناصب الكهنوتية هم أشراف ألمانيا الأدواق واللوردة والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وقد سيطر هؤلاء على الملكية الضعيفة بعد هزيمة هنرى الرابع وأقاموا فى البلاد نظاماً إقطاعياً يعمل على تفككها وإضعاف سلطان حكومتها المركزية وأدى هذا النظام إلى حرمان ألمانيا فى القرن الثالث عشر من زعامة أوروبا .

وخلع هنرى الخامس (١١٠٦ – ١١٢٦) أباه عن العرش وواصل كفاح أبيه ضد البارونات والبابوات ، ولما رفض بسكال الثانى *Paschael-II* أن يتوجه إمبراطوراً إلا إذا نزل عن حقه فى توليه غير رجال الدين المناصب الكهنوتية ، وج بالبابا والكرادلة فى السجن ولما مات ألغى الأشراف نظام الملكية الوراثية وقضوا على الأسرة الفرنكونية *Franconian* ، وولوا لوثير الثالث *Lothair-III* السكسونى ملكاً على البلاد وبعد ثلاثة عشر عاماً من ذلك الوقت أسس كنراد الثالث

Conrad-III أسرة هوهنستاوفن *Hohenstaufen* السوابية أقوى أسرة ملكية فى تاريخ ألمانيا كله . [١١]

أسرة الهوهنشتاوفن

برز فى ألمانيا رجلان قويان بعد موت لوثير ، الأول : هو هنرى المتكبر *Henry-the-Proud* (ت ١١٣٩م) دوق سكسونيا ثم بافاريا أيضاً ، وهنرى هذا هو حفيد ولف الرابع *Welf-IV* (ت ١١٠١ م) ولذلك كان هنرى عميد البيت الولفى وعرف اتباعه بالولفيين ، والثانى يدعى كونراد هوهنشتوفن دوق سوابيا وكونراد هذا حفيد هنرى الرابع من الأم ، ويطلق على الهوهنشتاوفن أيضاً الجبليين *Ghibelline* نسبة إلى قرية *Waiblingen* فى إقليم سوابيا ، وعلى ذلك أصبح أمامنا هنرى المتكبر زعيم الولفيين ، وكونراد زعيم الجبليين ، ولما كان هنرى رجلاً قوياً فقد خشى النبلاء قوته وسيطرته عليهم ، وهو ما كانت تراه الكنيسة أيضاً لذلك اختار النبلاء كونراد ملكاً عليهم ، ومن هنا ظهر التنافس بين الحزبين الولف والجبليين ، وانتقل صدى هذا التنافس إلى إيطاليا حتى أصبح مفهوماً لديها مع مطلع القرن الثلث عشر أن كلمة الجولف تعنى المعارضة للجبليين أو الهوهنشتاوفن ، أما فى إنجلترا فقد أصبح مفهوم هذا التنافس يعنى أن الجبليين أو الهوهنشتاوفن هم أنصار الإمبراطورية أما الجولفيون هم أنصار البابوية فى صراعها مع الإمبراطورية ، ولعل

الأحداث التى وقعت فى عهد أسرة الهوهنشتاوفن فى صراعها مع البابوية تفسر هذا المفهوم .

١- كونراد الثالث (١١٣٨ – ١١٥٢ م) :

قام الصراع بين الجبليين والولفيين مع اعتلاء كونراد عرش ألمانيا وغذا كان كونراد قد ملك السلطة وكان بوسعه القضاء على هنرى فإن ولاء الولفيين لزعيميهم هنرى كان أِد من بطش كونراد ، وعلى أية حال فقد اتبع كونراد كافة السبل للقضاء على خصمه هنرى وسادت البلاد حرباً أهلية مع بدايات عهد كونراد ، وكان لهذه الحرب أثرها الكبير على ألمانيا فى الداخل والخارج ونجح كونراد فى أول الأمر فى نزع بافاريا من هنرى وخطط لضم سكسونيا ، ومات هنرى المتكبر فجأة فى عام ١١٣٩ م أى بعد عام واحد من تولية الملك كونراد ، وارتاح كونراد لموته ولكنه اصطدم بعناد أهل سكسونيا الذين ناصروا أسرة هنرى وساندوا ابنه هنرى الأسد الذى كان فى العاشرة من عمره ونصبوه دوقاً على سكسونيا وظل العداء مشتعلاً حتى عام ١١٤٢ م حين لجأ كونراد إلى الصلح وأعاد إلى الولفيين بافاريا وسكسونيا لينقذ بلاده من الحرب الأهلية .

وإذا كان كونراد اصطدم بالحرب الأهلية مع بداية حكمه فى عام ١١٣٨م فإنه اصطدم فى العام الثانى ١١٣٩ بقرارات الباب أنوسنت الثانى *Innocent-II* (١١٣٠ – ١١٤٣ م) التى تعطى البابوية السلطة العليا على رجال الدين فاهتز عرش كونراد فى الداخل والخارج ،

ولعل هذا ما دفعه إلى عقد الصلح مع الولفيين ليتفرغ للبابوية ولكن كونراد كان أضعف من مواجهة البابا .

وحاول كونراد أن يعوض فشله مع الأمراء والبابوية فخرج فى عام ١١٤٨ م ومعه سبعون ألف محارب وانضم إلى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ومعه لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧ – ١١٨٠م) ولكن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وعاد كونراد إلى ألماني دون نصر يقوى به على الأمراء والبابوية ويبدو أن هذا الفشل قد شجع بعض الأمراء داخل ألمانيا على تعزيز مركزهم وتقوية نفوذهم ورغم خضوع كونراد للبابوية بهدف الحصول على اللقب الإمبراطورى فإنه لم يحصل عليه ، فقد مات عام ١١٥٢ م وهو فى طريقه إلى روما للحصول على هذا اللقب . (١٢)

٢- فريديرك الأول (بارباروسا) *Barbarosa (1152 – 1190* م) :

توفى كونراد والتنافس على أده بين الجبليين والولفيين ، ولم يكن من وريث للملك كونراد سود فريديرك المعروف بالأول فهدأت النفوس لأن فريديرك هذا كان ابن فريدريك دوق سوابيا أخ كونراد ، عرف فرديريك باسم باربار وسا نسبة إلى لحيته الحمراء وكان ذا عقلية ناضجة وعزيمة ماضية ومن حسناته أنه عمل لخير ألمانيا وآخر بين الجبليين والجولوفيين وجنب البلاد فوضى الحرب الأهلية ، وأعاد إلى هنرى السادس دوقتى بافاريا وسكسونيا . (١٣)

٣- هنرى السادس (١١٩٠ – ١١٩٧) :

©sa2eh.com

وكاد هنرى السادس (١١٩٠ – ١١٩٧) يحقق حلم أبيه فقد انتزع فى عام ١١٩٤ جنوبى إيطاليا وصقلية من النورمان بمعونة جنوى وبيزا ، وخضعت له إيطاليا كلها عدا الولايات البابوية وضمت بروفانس ودوفينيه *Cauphine* وبرغندية وألساس ولورين وسويسرا وهولندة وألمانيا والنمسا وبوهيميا ومورافيا وبولندة ضمت هذه كلها إلى أملاك هنرى واعترفت إنجلترا بسيادته عليه وأدى له المسلمون الموحدون الجزية وطلبت أنطاكية وقليقية وقبرص أن تضمن إلى الإمبراطورية ، وكان هنرى ينظر بنهم إلى فرنسا واسبانيا وقد وضع الخطط للاستيلاء على بيزنطية ، وكانت الفرق الأول من جيشه قد أبحرت إلى بلاد الشرق حين أصيب بزخار البطن وقضى نحبه فى صقلية وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

ولم يكن هنرى قد حسب حساب مناخ هذه البلاد التى فتحها وأعد العدة لاتقاء ثأرها منه ، ولم يكن له إلا ولد واحد وهو طفل فى الثالثة من عمره وأعقبت موته فترة من الفوضى دامت نحو عشر سنين أخذ المطالبون بالعرش فيها يقتلون فيها بينهم ولما أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد تجددت الحرب بين الإمبراطورية والبابوية ، تجددت فى إيطاليا على يد ملك ألمانى – نورمانى أصبح إيطالياً سنتحدث عنه فيما بعد حين نتكلم على إيطاليا ، وأعقبت موت فردريك الثانى (١٢٥٠) نحو ثلاثين عاماً أخرى من الفوضى يسميها شلر : " العهد المرعب الذى لا سادة فيه " ، باع فيه الأمراء الناخبون عرش ألمانيا لكل مستضعف يتركهم أحراراً فى أن يوطدوا أركان سلطانهم المستقل وتكشف

عهد الفوضى عن نهاية أسرة هوهنستاوفن وأنشأ رولف الهبسبرجى فى عام ١٢٧٣ أسرة جدية واتخذ فينا عاصمة له وأراد رولف أن يكسف تاج الإمبراطورية فوقع فى عام ١٢٧٩ إعلانا يعترف فيه بخضوع السلطة الملكية للسلطة البابوية خضوعاً تاماً ويتخلى فيه عن جميع مطالبه فى إيطاليا الجنوبية وصقلية ولم يصبح رودل إمبراطوراً قط ، ولكنه استطاع بشجاعته وإخلاصه ونشاطه أن يعيد النظام والرخاء إلى ألمانيا وأن ينشئ أسرة قوية ظلت تحكم النمسا وهنغاريا حتى عام ١٩١٨ .(١٤)

٤- فردريك الثانى (١٢١٢ – ١٢٥٠) :

كان فريدريك الوارث الوحيد للإمبراطور هنرى السادس وكان فريدريك فى الثالثة من عمره آنذاك لذلك دبت الفوضى فى أنحاء ألمانيا قرابة عشرين عاماً تنازع السلطة خلالها الحزبان القديمان الولف والهوهنشتاوفن ورشح الولفيون أوتو أف برونزيوك *Otto-of-Brunswick* (١١٩٧ – ١٢١٨ م) ويعرف أيضاً باوتو الرابع كما رشح الهوهنشتاوفن فيليب دوق سوابيا (١١٩٧ – ١٢٠٨م) ويعرف أيضاً باسم فيليب الرابع وأدعى كل منهما الحق لنفسه فى حكم الإمبراطور وقامت الحرب الأهلية بين الحزبيين لعبت السياسة البابوية والفرنسية والإنجليزية دوراً كبيراً فى هذا الصراع حتى عام ١٢٠٨م حيث مات فيليب الرابع وهدأت الحال نسبياً عام ١٢١٢م عندما حكم

أوتو الرابع بدعم من البابا أنوسنت الثالث *Innocont-III* (١١٩٨ – ١٢١٦م) .

ولما بلغ فريديرك سن الرشد اشتعلت الحرب مرة أخرى وانتهت بانتصار فريدريك بعد ما تخلى البابا عند أوتو وساند فريدريك الذى ظل تحت وصاية البابا منذ موت أبيه .

وإذا أجاز لنا أن نصف الإمبراطور فريديرلاك فى أسطر قليلة ، وفى ذلك ظلم له ، فيمكن القول أن فريديرك كان محارباً وسياسياً متقفتاً لدرجة عالية مشجعاً للعلوم بدرجة تفوق ثقافة وجنديته فقد تحدث فريدريك بلغات متعددة ونظم الشعر وشجع العلوم والفنون وله أفكاره فى الفلسفة والطب والهندسة وعامل رعاياه معاملة بعيدة عن التعصب فكان منهم المسلم والمسيحى واليهودى وتكلم العربية وبدا وكأنه شرقى العادات ، هذا بالإضافة إلى حماسة للتجديد والثورة على القديم ولا عجب أن وصفه المؤرخ متى الباريسى *Matthew-Paris* بأنه العجيب الذى بدل الدنيا وأثار إعجابها *Super-Mundi-et-Immutater-Mirabilis* أو أعجوبة العالم .

ومن العجيب أن نجد مثل هذا الإمبراطور قد فشل فى مجال السياسة فى نظر معاصريه ويرجع ذلك إلى آرائه المتقدمة لعصره التى أدت إلى اصطدامه بالكنيسة وعلى رأسها البابا أنوسنت الثالث ، وهونوريس *Honorius* (١٢١٦ – ١٢٢٧م) وجريجورى التاسع (١٢٢٧ – ١٢٤١م) والأسباب المباشرة لهذا الصدام ترجع إلى عدة عوامل منها أن الإمبراطور فريدريك عمل على ضم إيطاليا وصقلية

للتاج الإمبراطورى ولكن البابوية وبعض المدن الإيطالية وجدت غير ذلك ونجحت البابوية ومن يؤيدها فى النهاية .

ومن أسباب الصدام أيضاً موقف الإمبراطور من الحملات الصليبية ، فهو الرجل الذى حكم العقل قبل السيف وكان لا يرى استخدام العنف طالما وجد سبيلاً لغير ذلك والمهم أن فريدريك تخلف عن قيادة الحملة الصليبية الخامسة كما سبق أن وعد بذلك ، ثم خرج على راس قواته بالحملة الصليبية السادسة بطريقة لم ترض عنها البابوية وكان لذلك كله عواقب وخيمة على الإمبراطور .

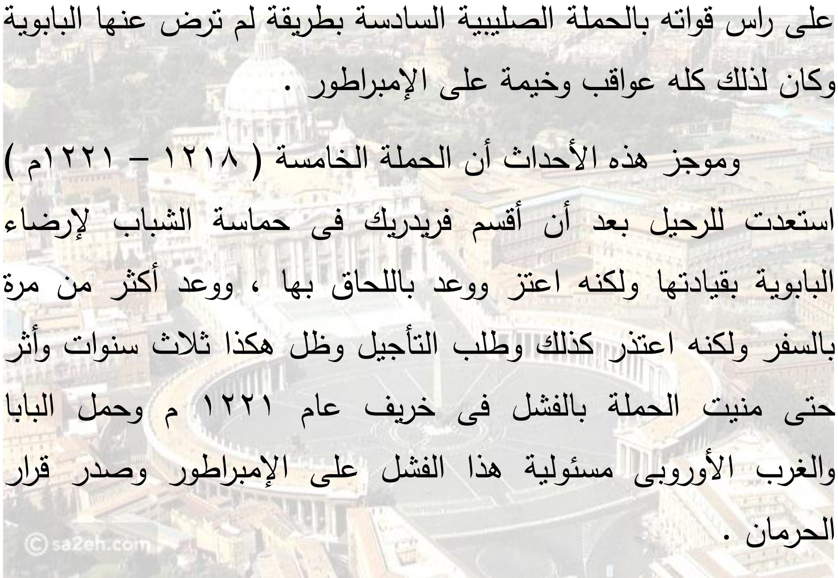

وموجز هذه الأحداث أن الحملة الخامسة (١٢١٨ – ١٢٢١م) استعدت للرحيل بعد أن أقسم فريدريك فى حماسة الشباب لإرضاء البابوية بقيادتها ولكنه اعتز ووعد باللحاق بها ، ووعد أكثر من مرة بالسفر ولكنه اعتذر كذلك وطلب التأجيل وظل هكذا ثلاث سنوات وأثر حتى منيت الحملة بالفشل فى خريف عام ١٢٢١ م وحمل البابا والغرب الأوروبى مسئولية هذا الفشل على الإمبراطور وصدر قرار الحرمان .

ووعد فريدريك بحملة أخرى ثم أجلها ، وأخيراً خرج بالحملة ولكن البابوية اعتبرته محروماً من الكنيسة ولا يصح له قيادة حملة صليبية ورغم ذلك خرج فريدريك بالحملة المعروفة بالسادسة ونجح فى ضم بعض الأراضى المقدسة بالوسائل السليمة إلى الأراضى الصليبية وصادفت حملته هذا نجاحاً لم تحصل أية حملة صليبية أخرى عدا الحملة الأولى ورغم ذلك عاد إلى أوروبا ليواجه غضب الكنيسة .

واصطدم فريدريك مرة أخرى بالبابوية عندما أعاد تنظيم دولته وأقام المجالس العامة التى جمعت نوايا من النبلاء ورجال الدين وأهل المدن ، لأن هذه النظم البرلمانية المتطورة فى حقل هذه العصور لم تجد هوى فى نفس البابوية والإيطاليين وظنت الكنيسة أن فريدريك يسعى إلى هدمها .

لم يجد فريديرك فى الرد على الكنيسة غير مهاجمتها بالحجة والبرهان وكتب فى عام ١٢٢٧ م أن المسيحية الأولى قامت على الفقر والبساطة وليس لأحد أن يشرع للناس قواعد غير التى شرعها السيد المسيح ولكن مثل هذه الكلمات لم يفهمها سوى طائفة الفرنشسكان التى أسسها القديس فرانسيس أف أسيس *St.Francis of Assisi* وهى الطائفة التى نادت بمثل هذه المبادئ فى هذه المرحلة ، وظل الصدام بين البابوية والإمبراطور حتى مات عام ١٢٥٠م ، بعد أن خلف وراءه اسماً لازال الناس يختلفون فى تقديره بين العظمة والعبقرية والإلحاد .

وإذا كان قد سبق عهد فريدريك عشرون عاماً من الفوضى فقد لحقه أيضاً ثلاثة وثلاثون عاماً من الاضطراب عادت خلالها السلطة للأمراء الذين نصبوا عليهم حاكماً ارتضى تسيدهم ، وفى عام ١٢٧٢م تمكن رودلف أف هابسبرج *Rudolf of Hapsburg* من اعتلاء العرش وتكوين أسرة حاكمة وتطلع رودلف إلى التاج الإمبراطورى فطلبت منه الكنيسة الخضوع التام للبابوية والتنازل عن ادعاءات ألمانيا فى إيطاليا الجنوبية وصقلية ، ووعد بذلك عام ١٢٧٩ م ، وانتظر اللقب ولكنه لم يحصل عليه ، والمهم أن رودلف تمكن من إعادة تنظيم ألمانيا وإعادة

الأمن والاستقرار داخل البلاد وظلت سلالة رودلف على عرش ألمانيا حتى الحرب العالمة الأولى . (١٥)

هوامش الفصل الثانى

١- سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، (القاهرة : ١٩٩٧) ، جـ ١ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

٢- السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، (بيروت : ١٩٦٨) ، ص ٤١٨ – ٤٢٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٨٧ – ١٨٩ .

٣- نور الدين حاطوم : تاريخ العرص الوسيط فى أوروبا ، (دمشق : ١٩٨٢) ، جـ ١ ، ص ٤٥٥ – ٤٥٨ .

محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٨٩ – ١٩١

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٨٩- ٣٠٠

٤- محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ - ٣٠٨ السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٤٢٣ - ٤٣٦ . محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، (١٩٩٩) ، ص ٣٦١ - ٣٤٨ .

٥- سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ - ٣١١ .

السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٤٣٦ . محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٩٥ .

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٣٤٨ . نور الدين حاطوم : تاريخ العرص الوسيط فى أوروبا ، جـ ١ ، ص ٣٤٨ .

٦- السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٤٣٦ - ٤٣٨ . محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ . نور الدين حاطوم : تاريخ العرص الوسيط فى أوروبا ، جـ ١ ، ص ٥٦٩ - ٥٧٥ .

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٣٤٩ .

٧- محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٩٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣١٤ – ٣١٧ .

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٣٥٠ – ٣٥٢ .

نور الدين حاطوم : تاريخ العرص الوسيط فى أوروبا ، جـ ١ ، ص ٥٨٦ .

نورمان كانتور : العصور الوسطى الباكرة ، ترجمة دكتور : قاسم عبده قاسم ، (القاهرة : ١٩٩٣) ، ص ٥٤٠ .

٨- نور الدين حتطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا ، جـ ١ ، ص ٥٨٧ ، ص ٥٩٢ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣١٧ – ٣٢١ .

السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٤٤٠

محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٩٨ – ١٩٩

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٣٥٢ .

٩- السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٩٩ – ٢٠١ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٣٥٢ .

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٩٣ ، ٦٠٣

١٠- السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا فى الصعور الوسطى ، ص ٤٤١ – ٤٤٣ .

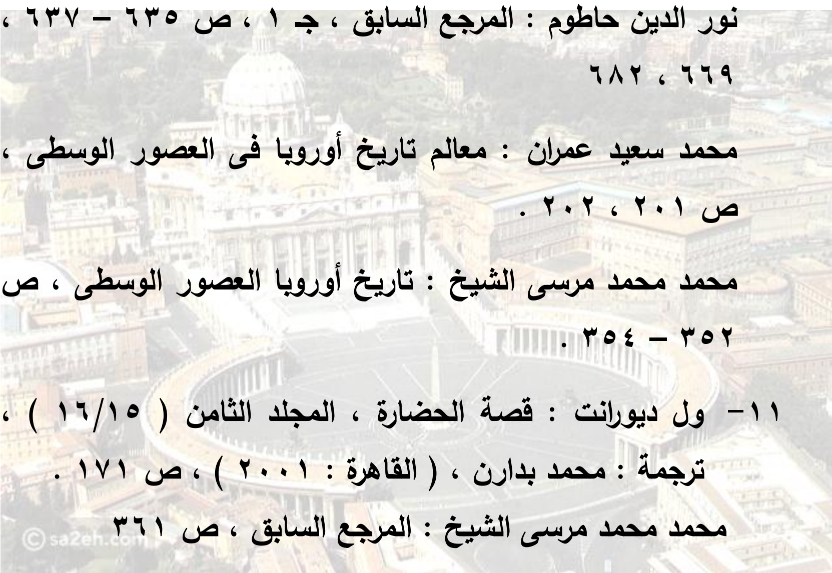

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦٣٥ – ٦٣٧ ، ٦٦٩ ، ٦٨٢

محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٣٥٢ – ٣٥٤ .

١١- ول ديورانت : قصة الحضارة ، المجلد الثامن (١٦/١٥) ، ترجمة : محمد بدارن ، (القاهرة : ٢٠٠١) ، ص ١٧١ .

محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٦١

محمد سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦٣٥ – ٦٣٧ ، ٧٥٥ – ٧٧٤

١٢- محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

١٣- عن الإمبراطور فريدريك الأول بارباروسا (١١٠٢-١١٩٠)
انظر :
نومان كانتور : التاريخ الوسيط ، جـ ٢ ، ص ٥٤٠ .

ول ديورانت : المرجع السابق ، مجـ ٨ ،

حامد زيان غانم : الإمبراطور فريدريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة ، (القاهرة : ١٩٧٧)

محمد عبد الشافى المغربى : آسيا الصغرى فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية : ٢٠٠٢) ، ص

١٤- ول ديورانت : قصة الحضارة ، مجـ ٨ ، ص ١٧٥ - ١٧٦
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

١٥- محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى الصعور الوسطى ، ص ٢٠٨ - ٢١١ .

١٦- ول ديورانت : المرجع السابق ، مجـ ٨ ، ص ٢٧٧ - ٢٩٠

١٧- محمد محمد موسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٦٨ - ٣٧٢ .

تدريبات على الفصل اثاني

السؤال الأول: ظلل في شيت الإجابة *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل** *False* ● **إذا كانت خاطئة**

١-أطلق على الهوهنشتاوفن إسم الجبليون نسبة إلى قرية قلعة في إقليم بافاريا.

٢- بمقتضي معاهدة سانت كلير ٩٩١م انفصلت لمباردیا عن التاج الفرنسي

٣- كان محور الصراع السياسي بين ليس السابع وهنري الثانى متمثلًا في مدينة نورمانديا

السؤال الثالث: السؤال الثاني: تخير الإجابة الصحيحة من بين الأقواس ثم قم بتظليلها ● في شيت الإجابة

١- كانت دوقية.... أكثر الدوقيات الألمانية إعتدالاً وتأثرًا بالصبغة الرومانية

(أ. بافاريا- ب. سكسونيا- ج. فرانكونيا- د. سوابيا).

٢- عين الإمبراطور أوتو الثالث(٩٨٣-١٠٠٢م) معلمه... في منصب البابوية

(أ.سيلفستر الثانى-ب.بندكت السابع- ج.يوحنا الثانى عشر- د.جريجوري الثامن)

الفصل الثالث

آل كابيه فى فرنسا

(٩٨٧ – ١٣٢٨ م)

أهداف الفصل الثالث

يهدف هذا الفصل إلى:

١- التعرف علي أصل أِرة آل كابية الحاكمة في فرنسا خلال فترة العصور الوسطي

٢- السياسة الداخلية والخارجية لملوك أسرة آل كابية

تعرضت بلاد غرب أوروبا فى القرنين التاسع والعاشر لحالة شديدة من الفوضى وفقدان الأمن بسبب الحروب والمنازعات التى قامت بين الأمراء والحكام وترتب على ذلك أن انهارت السلطة المركزية وعجزت عن ممارسة حقوقها وواجباته ، وبحث صغار الملاك عن قوة تحميهم فلم يجدوا لها تأثيراً مما أدى بهم إلى الارتباط مع كبار الأمراء والملاك والإقطاعيين فى ظل إطار من الحقوق والواجبات المتبادلة لحمايتهم من الأخطار التى هددت غرب أوربا .

وفى وسط تلك الظروف شاهد القرن العاشر سقوط البيت الكارولنجى وقيام أسرة كابيه فى الحكم ، ذلك أنه بعد أن عزل شارل السمين من بقايا البيت الكارولنجى سنة ٨٨٧ وقع الاختيار على أودو كونت باريس ليكون ملكاً فى العام التالى بسبب ما أظهره من شجاعة وبطولة فى صد إغارات الفيكنج عن مدينة باريس .

وبتولى أدودو الملك بدأت سلسلة من حوادث النزاع بين هذا البيت الإقطاعى وابناء البيت الكارولنجى فقد حدث أن اختير شارل البسيط (٨٩٣ – ٩٢٣ م) أحد أبناء البيت الكارولنجى ليكون ملكاً فعارض روبرت أخو أوتو ووريثه واستطاع أن ينال العرش سنة ٩٣٣م ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى العامل التالى تاركاً لأبنائه مهمة رفع شأن بيته الإقطاعى وتحقيق السيادة العليا له ، ثم حدث سنة ٩٨٧ م أن لقى لويس الخامس – وهو آخر سلالة البيت الكارولنجى – حتفه فى الصيد . [1]

جاءت وفاة لويس الخامس آخر السلالة الكارولنجية دون أن يعقب سنة ٩٨٧م بمثابة نهاية لهذا البيت وخاتمة لحكمه فى فرنسا إذ تم تتويج هيو كابيه ملكاً على فرنسا (٩٨٧ - ٩٩٦ م) فى نفس العام فبدأ بذلك تاريخ أسرة جديدة فى حكم فرنسا قرب أواخر القرن العاشر الميلادى أى أن هذه الأسرة الجدية حكمت فرنسا ردحاً طويلاً من الزمن وامتد عهدها نحو ثلاثة قرون ونصف .

ويعلل المؤرخون أسباب سقوط الأسرة الكارولنجية بأن ملوك هذه الأسرة لم يستطيعوا مسايرة النظم الإقطاعية التى غدت عصب الحياة الاجتماعية فى البلاد فى ذلك الوقت ولم يستطيعوا موائمة أنفسهم مه هذه التيارات الإقطاعية التى أصبحت تتغلغل فى كيان المجتمع وفى وقت لم يعد بوسع سلطة ما الاستمرار دون أن تسندها أسس إقطاعية وإذا كان للأسرة الجديدة من فضل فلأنها أمدت الملكية الفرنسية بأسس وروح إقطاعية فتية مكنتها من مسايرة الظروف القائمة والأوضاع الإقطاعية .

وعلى الرغم من ذلك فقد أثبتت الأحداث أن الملك الفرنسى لم يكن أقوى كثيراً من أفصاله الإقطاعيين وكثيراً ما كان الأفصال فى مركز أقوى من مليكهم وإن حتمت النظم الإقطاعية فى كثير من الأحيان معاملة الملك الفرنسى بشئ من الاحترام باعتباره اللورد الأعظم لهؤلاء الأفصال دون أن يعنى ذلك أنه أقواهم ، ولعل تاريخ آل كابيه الأوائل يؤكد هذه الحقيقة فقد حكم أربعة منهم البلاد على مدى نحو مائة وعشرين عام (٩٨٧ - ١١٠٨م) دون أن يتميزوا كثيراً عن أفصالهم الإقطاعيين بل بدوا فى مظهر ضعيف أمام منافسة كبار الأمراء

الإقطاعيين لأن فرنسا دخلت فى ذلك الوقت فى طور جديد من تاريخها فتعاظمت قوة الدوقيات التابعة لها وتعددت اللهجات الفرنسية وارتبطت كل دوقية بأسرة بعينها بما يستتبع ذلك من سك العملات واتخاذ اللهجات المتباينة الأمر الذى بالغ فى إضعاف الملكية الفرنسية .

فمن أقوى الدوقيات الفرنسية فى ذلك الوقت كانت فلاندرز بين نهر الشلد وبحر الشمال ، وبرجنديا فى الجنوب ، وبريتانى فى الغرب ، ونورمانديا على بحر المانش ، وأكوتين فى الجنوب بين اللوار والجارون ومن خليج بسكاى حتى الرون وعلى رأسها أمراء بواتييه بكل آمالهم فى الاستقلال والمنعة ، فضلاً عن جاسكونى وتولوز وغيرهما وكلها تحمل آمالاً عظيمة فى الوقوف على قدم المساواة مع الملك الفرنسى إن لم تكن آمالها منافسة هذا الملك فى القوة والسلطان ، ولهذا فقد بدا ملوك آل كابيه الأربعة الأوائل وحتى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى فى ظل هذه الأوضاع ملوكاً ضعافاً على الرغم من أن عصر هؤلاء الملوك الأوائل من آل كابيه يمثل عصر التقدم والبناء فى تاريخ فرنسا فى القرن الحادى عشر ، وبلغ من ضعف ملوك آل كابيه الأوائل أنه فى بعض الأحيان كان الملك الفرنسى يخشى الخروج خلف أسوار المدينة . (٢)

© sa2eh.com

١- هيو كابيه (٩٨٧ – ٩٩٦) :

ولكى ندرك مركز هيو كابيه يجب أن ننظر ‘ليه من ثلاثة زوايا مختلفة أولها : أنه توج ملكاً على دولة الفرنجة الغربيين (فرنسا) ليرث

الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم ، وثانيهما : أنه جاء ممثلاً لكبار الإقطاعيين ، وأخيراً أنه هو نفسه لا يعدو أن يكون أميراً إقطاعياً فى إقطاعه أو فى دوقيته ، وإذا كان من أسباب سقوط الملكية الكارولنجية أنها لم تستطع أن تمثل التطور الاقطاعى وتسايره فى وقت صار لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعائم وأسس إقطاعية ، فإنه يمكن القول بأن أسرة كابيه الجديدة أنقذت نظام الملكية فى فرنسا بتزويدها بروح وقواعد إقطاعية مكنتها من مسايرة العصر والظروف .

وقد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كابيه فى الوصول إلى حكم فرنسا يعتبر انتصاراً للأمراء الإقطاعيين على الملكية الكارولنجية ، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أن آل كابيه كانوا أنفسهم فى مركز لا يحسدون عليه من جراء منافسة كبار الأمراء الإقطاعيين وخطرهم ، ذلك أن فرنسا كانت عند قيام أسرة كابيه فى الحكم سنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضخم من الإقطاعيات المتباينة التى ارتبط كل منها بأسرة معينة فى ظل قوانين ونظم خاصة حتى أن ستة وخمسين من كبار الأمراء الإقطاعيين كانوا يسكون النقود الخاصة بهم ، فضلاً عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى فى فرنسا ، ولا أقل من استعراض أهم الإمارات أو الأقسام التى انقسمت إليها فرنسا عندئذ حتى يمكننا متابعة تاريخها منذ القرن العاشر .

ففى الشمال كانت دوقية برجنديا التى حكمها فرع من أسرة كابيه الحاكمة ، فى حين تحولت فلاندرز – بين نهر الشلد وبحر الشمال – إلى إمارة قوية ، بفضل سياسة أمرائها فى ضم الضياع المجاورة على الحدود الفرنسية من جهة وبفضل نشاطها التجارى وما ترتب عليه من

ازدياد الثروة واتساع المدن وكثرة السكان من جهة أخرى ، أما فى الغرب فإن بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب إهمالها وتأخرها وجدبها وكثرة الحروب فيها فضلاً عن إغارات النورمان عليها ، وعلى حدود بريتانى – على بحر المانش – قامت إمارة نورمنديا التى صار صاحبها – بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩٩١ – فصلاً للتاج الفرنسى ، وسرعان ما غدا أهلها من النورمان جزءاً من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجدية واعتنوا الديانة المسيحية .

أما جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة لأن الأقاليم الجنوبية امتازت بلغتها الخاصة البروفنسالية فضلاً عن عاداتها وتقاليدها التى ظلت ترتبط بالتراث الرومانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجرمانى ، وإذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض وإقطاعية للملك ، فإن أمراء الجنوب لم تربطهم صلة بآل كابيه سوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تاريخ حوادثهم ، وأهم هذه الإمارات الجنوبية كانت دوقية أكوتين وعلى رأسها أمراء بواتييه منذ القرن العاشر ظن وقد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ، ومن خليج بسكاى حتى الرون ، الأمر الذى جعل منى المتعذر على فرد واحد أن يحكمها ، أما الإقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون *Gassons* يحكمهم أمير منهم حتى انضموا إلى أكوتين فى أواخر القرن الحادى عشر ، وأخيراً وجدت أمارتان على البحر المتوسط ، الأولى : إمارة تولوز محل سبتمانيا القديمة ، والثانية : إمارة برشلونة محل المارك الأسبانى الذى أقامه شارلمان على الحدود .

آل كابيه الأوائل

وعلى الرغم من كثرة ما دون عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كابيه ، إلا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية ، والظاهرة العامة التى تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ – ١١٠٨) هو أن الظروف أظهرتهم فى مظهر الضعف أمام كبار المراء الإقطاعيين ، وإن كان الواقع هو أن فرنسا دخلت فى ذلك العصر دوراً جديداً من تاريخها ، بمعنى أنه إذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور ، فإن آل كابيه الأوائل يمثلون عصر صحوة وتقدم وبناء .

وقد اكسب هيو كابيه – أول هؤلاء الملوك – (٩٨٧ – ٩٩٦) الأسرة الحاكمة لقبها الذى عرفت به فى التاريخ ، وإن كان كل ما فعله هو أنه توج ابنه فى حياته وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها خلفاؤه فى القرنين التاليين ، الأمر الذى جعل العرش ينتقل فى سهولة إلى ابنه روبرت الثانى (٩٩٦ –١٠٣١) ، ثم حفيده هنرى الأول (١٠٣١ – ١٠٦٠) ثم ابن حفيده فيليب الأول (١٠٦٠ – ١١٠٨) دون أن يكون لأحد هؤلاء الملوك نشاط خاص يسترعى انتباهنا .

ويبدو أن الظروف كانت لا يمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا حكم فرنسا فى القرن الحادى عشر فى فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته الأسمية الواسعة ، لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو إنقاذ ما تبقى لهم من نفوذ موروث فى إمارتهم

الإقطاعية حول باريس وهى المنطقة المعروفة باسم جزيرة فرنسا *Ile de Fgrance* حيث وجد بعض صغار الأمراء الإقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع والحصون – وبخاصة فى عهد فيليب الأول – تحدياً له .

وإذا كان عهد فيليب بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه السلطة الملكية إلى الحضيض ، إلا أن هذا العهد يمثل أيضاً نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة نظراً لاتساع أملاك آل كابيه تدريجياً ، ذلك أن فيليب الأول استغل حاجة أمير بورج *Bourges* للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأول واشترى منه أقطاعه ، كما استولى على بعض أراضى كونت أنجو عن طريق المساومة السياسية ، ومن ناحية أخرى اسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقامة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم .

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون لتخلى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا إلى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة ، ففى داخل جزيرة فرنسا – أو على مقربة منها – وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكية ، وقد قدم رؤساء هذه الأسقفيات ومقدمى الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم ودعمها ، ولكن على الرغم من هذه المساعدات فإن آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أنداداً لكبار الأمراء الإقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا ، حقيقى أن إسهام كثير من فرسان فرمسا وأمرائها الإقطاعيين فى النشاط

الصليبى كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل إذ أدى ذلك إلى اتجاه هؤلاء الأمراء إلى هذه الحروب الدينية فى الشرق بدلاً من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض ، ولكن ذلك ليس معناه أن الفوضى الإقطاعية التى عمت البلاد قل خطرها ، وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الإقطاعيين وبعضهم ، أو بعبارة أخرى بين الفرنسيين بعضهم وبعض ، بل عن هجمات أجنبية قام بها مغيرون من الخارج كما كان الحال فى غزوات الفيكنج من قبل . (٣)

لويس السادس (١١٠٨ – ١١٣٧ م) :

كان لويس يصرف أمور الدولة فى عهد أبيه وتدرب على شئون الحكم والإدارة وما أن تولى العرش حتى كان قد نضج بدرجة تؤهله لحكم البلاد حكماً سليماً ، وقد حارب لويس الإقطاعيين وانتصر عليهم وكون جيشاً قوياً حمى به البلاد وعمل على رخاء دولته بحماية الفلاحين والصناع ، وقد ساعده فى حكمه سوجر *Suger* رئيس سانت دنيس St.Donis الذى كان وزيره وصديقه والذى يرجع له الفضل فى تدبير شئون الدولة ، وقد استمر سوجر هذا فى منصبه فى عهد لويس السابع .

لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠ م) :

ورث الحكم عن أبيه وعمل بكل طاقته لخدمة الدولة لدرجة أهمل فيها واجباته الزوجية وأدى هذا إلى تمرد زوجته اليانور *Eleanor* وريثة دوقية اكويتين ، ومن أهم أعمال لويس السابع خروجه مع كونراد الثالث ملك ألمانيا على رأس الحملة الصليبية المعروفة بالثانية التى اختل توازنها على أثر ضربات السلاجقة لرجالها فى آسيا الصغرى ثم فشلها أيام أسوار دمشق ، وبعد عودة لويس مهزوماً من الشام عام ١١٤٩م طلق زوجته ، فتزوجت اليانور من هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩م) ملك إنجلترا ، وبذلك انتقلت دوقية أكويتين من التبعية للتاج الفرنسى إلى التاج الإنجليزى وسيترتب على ذلك صدام بين الدولتين لم تنج فرنسا منه إلا بالصراع الذى تم بين هنرى الثانى والكنيسة الإنجليزية

ولما كان لويس السابع أقرب إلى الرهبان من الملوك فقد خابت آماله فى الحياة الدنيا فابتعد عنها وتقرب للكنيسة ولعل هذا الدافع يرجع إلى أن لويس السابع قد أحرق فى عام ١١٤١ م مدينة فترى *Vitry* أثناء صراعه مع كونت شامبانى وأهلك ثلاثة عشر ألف نسمة ، والمهم أن لويس سلم ابنه فيليب مقاليد الحكم فى فرنسا . [٤]

لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠م) :

أما لويس السابع (١١٢٧ – ١١٨٠) فقد كان مركزه قوياً بعد أن ضم إليه اكوتين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق ، وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبنى الثائر (سنة ١١٤٧) وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا

أنوسنت الثانى ، ويقال أن لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة إلى إحراق كنيسة فترى *Vitry* التى كانت مشحونة باللاجئين فاحترق فى هذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال ، ويبدو أن هذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع – وهو الرجل التقى – حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه وكان أن أسهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحباً معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ مما تطلب منه بذل كثير من الأرواح والأموال دون ثمرة .

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسية التى كانت لأبيه بحيث لم ينقذ الإدارة الحكومية فى فرنسا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر (ت ١١٥٢) *Suger* الذى كان مقدم دير سانت دنيس حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشاراً ووزيراً خاصاً للملك ، ولم يلبث أن ظهر عدم الانسجام بين لويس السابع – الملك التقى الهادئ – وزوجته المرحة الطروب ، وهى اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر ، وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك إنجلترا قد زوج ابنته من كونت انجو وأنجبت هذه الزيجة هنرى الأنجوى وصادف أن طلق لويس السابع زوجته اليانور صاحبة أكرتين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة ولأنها لم تنجب له ولداً ذكراً يحفظ الحكم فى بيت كابيه من جهة أخرى ، فتزوجت اليانور من هنرى الأنجوى السابق ذكره الذى اعتلى عرش إنجلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنرى الثانى ، وهكذا غدت ممتلكات ملك إنجلترا فى صلب القارة تمتد من المانش حتى

البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا وإنجلترا أمراً لا مفر منه ، وكان المحك بين لويس السابع وهنرى الثانى هى مدينة تولوز ، إذ منع الأول ملك إنجلترا من الاستيلاء عليها مما أُر الحرب بين الطرفين ، وقد شاءت الظروف أن تواكب هنرى الثانى فى ذلك الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى مما أثار الشعور العام ضد ملك إنجلترا وجعل الكثيرين من نبلاء بريتانى وبواتر وجوين يساندون لويس السابع ، هذا فى الوقت الذى اتبع لويس السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج ، فف الداخل لجأ إلى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقام لها المدن لتتخذها مسرحاً لنشاطها ولتكون عوناً له ضد كبار الأمراء الإقطاعيين . أما فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا وهو تفاهم أو تحالف ظل قائماً مدى ثلاثة أجيال ، هذا فى الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك إنجلترا عن طريق إثارة أبناءه ضده ، وفعلاً ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الذين كانوا يشرفون على أملاك التاج الإنجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع من خطر الملكية الإنجليزية . (٥)

فيليب الثانى أوغسطس (١١٨٠ – ١٢٢٣ م) :

كان ملكاً ذكياً عمل على تشجيع العلوم كما اتصف أيضاً بالحزم والشجاعة والحذر والدهاء ولم يتردد عن سلوك أى سبيل يوصله إلى غايته ومن حذره أنه كان كريماً من الكنيسة ولم يسمح لرجال الدين

أو البابوية بأن تتدخل فى شئون دولته السياسية ولعل فى هذا الصفات ما جعله يحصل على ما يريد دون استعمال القوة العسكرية ، وواقع الأمر كانت فرنسا فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الشخصية لتقف أمام إنجلترا وفيها هنرى الثانى وريتشارد قلب الأسد ويوحنا ، وأمام ألمانيا حيث حكم فريدريك بارباروسا وهنرى السادس .

نجح فيليب فى عام ١٢٠٤م فى فتح إقليم نورماندیا واسترده من التاج الإنجليزى وتقوى فيليب بهذا النصر واستطاع أن يضم بريتانى وأنجو ومين وتورين وبواتو إلى أملاك التاج الفرنسى ، ومع قوة الملكية بالحصول على هذه الأراضى استطاعات السيطرة على الحكومة المحلية وتقلصت سلطة الأدواق والكونتات وأشرفت الدولة على جميع الأقاليم .

لم تًسلم إنجلترا بضياع نورماندیا فتحالف يوحنا ملك إنجلترا (١١٩٩ – ١٢١٦م) مع أوتو الرابع إمبراطور ألمانيا ومع كونت فلاندر للوقوف فى وجه التوسع الفرنسى ووضعت الخطط العسكرية للقضاء على فيليب فى ضربة واحدة ولم يوزع قواته على جبهات القتال بل نازل بها مجتمعة القوت الإنجليزية فى معركة بوفين *Nouviens* عام ١٢١٤م ، وهزم فيليب يوحنا وترتب على هذه الهزيمة نتائج بالغة الأهمية كان لها أثرها السياسى على قارة أوروبا بأكملها ، ومن هذه النتائج خلع أوتو من عرش الإمبراطورية الألمانية وتولية فريدريك الثانى ، وإنهاء زعامة ألمانيا على القارة الأوروبية ، كما خضع كونت فلاندرز لملك فرنسا . أما فى إنجلترا فقد كان من نتيجة هذه الهزيمة تمرد النبلاء الإنجليز على الملك ومحاربته وهزيمته وإجباره على توقيع العهد الأعظم

Magna Carta بعد عام من الهزيمة ١٢١٥م ، ولاشك أن موقف الملكة فى فرنسا قد زاد قوة على ما تبقى من نفوذ الإقطاعيين .

وفى مجال السياسة الداخلية فقد كم فيليب بلاده بمنتهى الإخلاص رغم صراعه لبعض الوقت مع الكنيسة بسبب زواجه من أجنس أف ميران *Agens of Mearan* وطرقه لزوجته الثانية انجبورج *Ingeborg* وتعرض فيليب لقرار الحرمان من الكنيسة ولكنه لم يعبأ بهذا القرار .

وأعاد فيليب تنظيم دولته فاستبعد رجال الدين من البلاط وحل محلهم رجال القانون وشجع التجارة بمنح الامتيازات وحماة التجار ومنح عدداً من المدن عهداً بالحكم الذاتى واستبدل بالخدمات الإقطاعية التى أصبح فى غنى عنها البدلات العسكرية ، واهتم بالعمارة فتم فى عهده بناء حصن اللوفر ليحمى نهر السين ، وأتم واجهة كنيسة نوتردام *Notre Dame* .

ولإرضاء البابوية والرأى العام الأوروبى ولكى لا يظهر بمظهر المتخلف عن حماية الأراضى المقدسة خرج مع الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسدد وفريديرك بارباروسا لمحاربة صلاح الدين ، وعاد فيليب من الشام فاشلاً قبل أن تستكمل الحملة أعمالها ، وعلى أية حال فقد مات فيليب عام ١٢٢٣م بعد أن أقام دولة فرنسا القوية . (٦)

إصلاحات فيليب أوغسطس :

ولم تكن انتصارات فيليب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته فى التاريخ لأتن إصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات ،

وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيفاً مع أفصاله وأتباعه الإقطاعيين لأن مشغله فى الحروب والفتوح حالت دون أن يسلك مسلكاً عدائياً تجاه هؤلاء الأفصال ، ومع ذلك فإنه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الأمراء الإقطاعيين ، أما موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيليب أغسطس مع البابوية لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة فى بلاده ، فأخذ يعمل جاهداً للحد من تدخل البابا فى شئون الكنيسة كما ألزم رجالها بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات .

أما فى الناحية الإدارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيليب أغوسطس كان محارباً وسياسياً أكثر منه إدارياً ومشرعاً وهكذا كان دوره الرئيسى فى تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطانها ، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم ، ومع ذلك فإن الظروف تطلب منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الإدارى لفرنسا ، وهو البناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع ، ذلك أنه قاوم الاتجاه الذى كان يرمى إلى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية لما فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين وقد أوجد فيليب أوغسطس طبقتين من الموظفين الإداريين تتألف الأولى من الوكلاء الملكيين *Baillis* ومهمتهم الإشراف على العدالة وجمع الإيرادات الملكية ، وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوسطى لضمان إخلاصهم للملك وارتباطهم به ، فضلاً عن مراعاة نقلهم من منطقة إلى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها ، أما الطبقة الثانية فكانت من المديريون الذين عهد إليهم الإشراف على المناطق الواقعة على الحدود قرب الأعداد ومن ثم اختير هؤلاء المديريون من الفرسان والبارونات ذوى

الخبرة بشئون القتال ، وفيما عدا مهامهم الحربية قام المديرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدهم فى ذلك عدد كبير من الموظفين والمندوبين ، وقد ساعد فيليب أوغسطس فى الناحية الإدارية وزيره والتر الاسبتارى *Walter the Hcspilater* الذى امتد نشاطه إلى جميع فروع الإدارة الحكومية فضلاً عن شئون الجيش والقضاء ، وإلى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين وجدت مجموعة من المستشارين – العلمانيين والدينيين – روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى يظلوا بمثابة مجلس استشارى ، وكان الملك يضيف إلى هؤلاء مجموعة أخرى من النبلاء والأساقفة فى حالة الضرورة ، وعند دعوة هذا المجلس روعى فى الدعوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه ، ويبدو أن هذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا بحيث لا يتعرض المسائل التى تدخل فى الروتين الحكومى العادى وبعبارة أخرى فإنه كان يمثل هيئة استشارية بحتة لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا أنه كان حاكماً مطلقاً بكل معانى الكلمة لأن طريقة النظام الإقطاعى وما ارتبط به هذا النظام من حقوق وواجبات كانت تحد من سلطة الملك المطلقة .

أما المدن فكان فيليب أوغسطس نصير لها فحالف أهلها وأظهر عطفاً كبيراً على آمالهم حتى دخل كثير من المدن الفرنسية الخارجة عن أملاكه تحت حمايته ولم يكتف فيليب أوغسطس بإعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها ، وإنما ساعدها فى تقوية أسوارها واستحكاماتها

وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها كذلك شجع التجار الأجانب على التردد على الأسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من إنتاجها ، أما باريس فقد أضحت على أيام فيليب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية فى أوروبا ذلك أنه شيد لها سوراً قوياً يضم بين جوانبه القصر الملكى والمدارس والكتدرائية والأحياء التجارية والصناعية ، كما عنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها ، وفى عهد فيليب أوغسطس حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها بل حققت لها اعترافاً رسمياً من السلطة الحاكمة ، وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالى الألب فى العصور الوسطى وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة فى القارة ، فضلاً عن كونها ضمت بعض المبانى الجميلة ذات الطراز القوطى الذى أخذ ينتشر فى بقية أنحاء فرنسا عندئذ .

وخلاصة القول أن فيليب أوغسطس استطاع – عن طريق القوة والسياسة – أن يجعل من فرنسا دولة عظمى وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أى أمير إقطاعى آخر فى فرنسا ، ويكفى أنه أول ملك من أسرة كابية شعر بأن قوته وسطوته بلغتا درجة من الثبات بحيث لم يعد فى حاجة إلى تتويج ابنه فى حياته ليضمن له العرش من بعده . (٧)

وهكذا أعطى فيليب أوغسطس فرنسا الكثير وجعل منها دولة عظمى ومنح الملكية الفرنسية قوة وازدهاراً تضاءلت إلى جانبه قوة الأمراء الإقطاعيين ، فضلاً عن إصلاحاته الأخرى فى مجال الإدارة والكنيسة والتعليم وغير ذلك من أوجه الإصلاح ، وترك المملكة الفرنسية

قوية الجانب ، وحول باريس إلى أول عاصمة حديثة لدولة مركزية كبرى لا تعلو فوقها كيانات الإقطاع الذى تغلغل فى الحياة الفرنسية فى ذلك الوقت ، وأخيراً وبعد حياة حافلة توفى الملك فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣ بعد أن حول التجارب السابقة إلى نظام دائم فى الإدارة المحلية ظلت أسسه باقية حتى انهار النظام الإقطاعى . [٨]

لويس الثامن (١٢٢٣ – ١٢٢٦) :

تولى بعده ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ – ١٢٢٦) الذى لم يطل العهد به إلى نحو ثلاث سنوات ، وعلى الرغم من أنه لم يكن له ما عرف عن والده من المهارة فى الشئون السياسية والعسكرية والمقدرة والكفاية إلى أنه تمسكم بسياسة والده فى بسط نفوذ الملكية الفرنسية على مختلف أنحاء فرنسا خاصة فى الجنوب ، واستطاع أن يفرض سلطته على أكوتين ثم قامك بحملة صليبية جديدة ضد الهراطقة فى الجنوب سنة ١٢٢٦ بعد أن تنازل له عمورى ابن سيمون دى مونتفرات عن كل ما حصل عليه والده من امتيازات من البابوية فى جنوب فرنسا ، ونجح لويس الثامن فعلاً فى تحقيق كثير من أهدافه فى جنوب فرنسا قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦ أى فى نفس العالم الذى خرج فيه على رأس تلك الحملة الصليبية التى كانت فى حقيقتها حملة تضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . [٩]

فيليب الرابع (١٢٨٥ – ١٣١٤ م) :

أما فيليب الرابع الجميل (١٢٨٥ – ١٣١٤ م) وهو حفيد لويس التاسع – فقد امتاز بصفات الجرأة وقوة العزيمة والمهارة السياسية كما أن سياسته اتجهت نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها ، وتحقيق زعامتها على أوروبا الغربية ، وأعلن منذ توليه العرش أن دولة فرنسا تمتد من المحيط الأطلسى إلى البحر المتوسط ، وبمعنى آخر أن الحدود الطبيعية لبلاده هى الراين والألب والبرانس .

أما عن العلاقة بين فيليب الرابع والبابوية ، فقد بدأت عندما فرض فيليب الضرائب على رجال الكنيسة لاستخدامها فى حروبه مع إنجلترا ، فاحتجوا على هذا العمل وشكوه للبابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣ م) ، وكان أن أصدر البابا قراراً سنة ١٢٩٦ م ببطلان حق الملوك فى فرض ضرائب على ممتلكات الكنيسة دون إذن من البابوية ، وهدد بتوقيع قرار الحرمان لى كل من يخالف هذا القرار فاستاء من تصرف البابا ودفعه ذلك إلى إلقاء القبض وإحراق القرارات البابوية على رؤوس الأشهاد ثم استدعى لأول مرة فى التاريخ الفرنسى (أبريل سنة ١٣٠٢ م) مجلس طبقات الأمة *States General* لمؤازرته ضد البابا ، وقد أقر النبلاء فى ذلك المجلس السلطة الزمنية للملك ولم يستطع البابا الخلاص إلا بصعوبة ، ثم مات فى روما سنة ١٣٠٣ م ، وبوفاته انتهى آخر البابوات العظام الذين حرصوا على إعلاء شأن البابوية وينبغى القول أن فشل البابا بونيفاس الثامن لا يرجع إلى عجز فى مواهبه بقدر ما يرجع إلى عدم تفهمه الروح الجديدة التى سادت المجتمع الأوروبى أواخر العصور الوسطى .

ولشدة حاجة فيليب الجميل إلى المال لجأ إلى إجراءات تعسفية فى جمعها منها فرض الضرائب الباهظة على التجارة والمدن والهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات كما أنه غش النقود وتلاعب فى قيمتها ولم تفلت هيئة الفرسان الدواية من قبضته وكانت تلك الهيئة الشهيرة قد عملت طويلاً فى مساعدة الصليبيين بالشام وغدت تقوم بأعمال مصريفية ومالية بعد أن انتهى نشاطها الحربى بسقوط عكا فى أيدى المماليك سنة ١٢٩١ م ووصل الأمر بتلك الهيئة أن صارت تقرض الخاصة مثل النقابات والأديرة الجامعات ، كما أنه غش النقود وتلاعب فى ملوك فرنسا وغيرهم الأموال بالفائدة الأمر الذى عاد عليها بالثروات الطائلة ثم كان أن أقدم فيليب على هدمها بعد أن وجهت إليها الاتهامات فقيل أن فرسانها هراقطة يقيمون شعائر سرية ويتآمرون على المسيحية وأصدر أمراً سنة ١٣١٢ م بحل هيئة الداوية ومصادرة أملاكها وإعدام بعض فرسانها حرقاً بالنار .

وإذا كان فيليب الرابع قد دعا مجلس طبقات الأمة إلى الانعقاد لأول مرة سنة ١٣٠٢ م ، فإن هذا المجلس الذى تألف من ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث – رجال الدين والنبلاء والبرجوازيين – قد ازدادت أهميته بعد وفاة فيليب سنة ١٣١٤ م بحيث أنه بلغ بعد ذلك درجة كافية من النضج والكمال .

وعلى أية حال فإن شارل الرابع الذى حكم فرنسا بين سنتى ١٣٢٢ ، ١٣٢٨م – وهو الابن الصغر لفيليب الرابع – لم يترك وريثاً يرثه فى الحكم الأمر الذى أدى إلى انتهاء عهد أسرة كابيه . (١٢)

هوامش الفصل الثالث

(١) محمود الحويرى : محاضرات فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٦٨ .

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤٢٣ – ٤٢٥ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٥١ – ٢٥٣ .

محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢١٢ – ٢١٦ .

نومان كانتور : العصور الوسطى الباكرة ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، جـ ٢ ، ص ٦٥٤ .

هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ – ٢٥٧ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤٢٥ – ٤٢٨ .

نومان كانتور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٤) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص
محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤٢٨ – ٤٣٠ .
جوزيف نسيم بوسطى : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، ص ٢٢٥ .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ – ٢٦١ .
جوزيف نسيم بوسطى : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧
محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٤٣١ – ٤٣٤ .
هلستر (س. ورن) : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص
فشر (هـ. أ. ل) : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى ، جـ٢ ، س ٢٨١ – ٢٨٢ .

(٦) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢١٨ – ٢٢٠ .
جوزيف نسيم بوسطى : المرجع السابق ، ص
محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص

ول ديورانث : قصة الحضارة ، مجـ ٨ ، ص ٢٢٣ – ٢٢٨ .

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ – ٢٧٤ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص

جوزيف نسيم بوسطى : المرجع السابق ، ص

محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٤٣٨ – ٤٤٢

فشر (هـ. أ.ب) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٨) نورمان كانتور : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٨ .

محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٤٤٧ .

(٩) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص

جوزيف نسيم بوسطى : المرجع السابق ، ص

(١٠) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٢٣١ – ٢٢٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

فشر (هـ. أ . ب) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٤٥٦ .

(١١) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

فشر (هـ. أ . ب) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص

(١٢) محمود الحويرى : محاضرات فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٧٧ – ٧٩ .

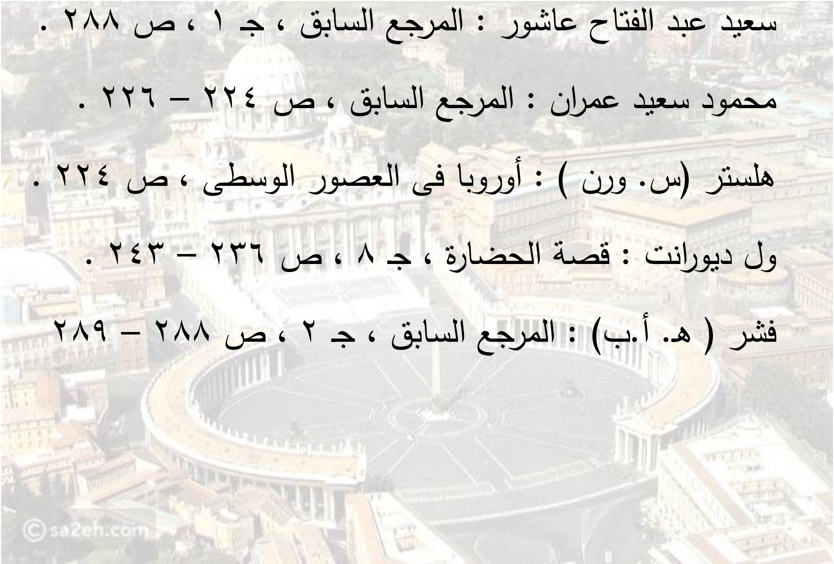

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ .

هلستر (س. ورن) : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٢٤ .

ول ديورانت : قصة الحضارة ، جـ ٨ ، ص ٢٣٦ – ٢٤٣ .

فشر (هـ. أ.ب) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ – ٢٨٩

تدريبات على الفصل الثالث

السؤال الأول : **السؤال الثاني**: **تخير الإجابة الصحيحة من بين الأقواس ثم قم بتظليلها ● في شيت الإجابة**

١-شهد عهد الملك.... اتساعًا لأملاك آل كابيه الأوائل

(أ. هيو كابيه- ب. روبرت الثانى- ج.هنري الأول- د.فيليب الأول)

٢-تزوج الملك.... من الأميرة إليانور وريثة دوقية أكوتين

(أ.لويس السادس-ب. لويس السابع-ج. لويس الثامن- د.لويس التاسع)

السؤال الثالث: **ظلل في شيت الإجابة** *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل** *False* ● **إذا كانت خاطئة**

١- – قام فيليب أغسطس (١١٨٠-١٢٢٣م) ببناء حصن اللوفر لحماية نهر السين.

٢- قام فيليب الرابع(١٢٨٥-١٣١٤م) بحملة صليبية ضد الهراطقة في الجنوب الفرنسي

الفصل الرابع
إنجلترا تحت الحكم النورمانى والبلانتاجنت

أهداف الفصل الرابع

يهدف هذا الفصل إلى التعرف علي الفتح النورماني لإنجلترا ، ودراسة أحوال إنجلترا تحت الحكم النورماني

أثر الفتح النورمانى على إنجلترا :

تنظر الدراسات التاريخية الحديثة إلى الفتح النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦ على أنه أخطر من مجرد غزوة حربية قام بها فريق من المغامرين للسيطرة على بلد من البلاد وإدخاله تحت حكمهم ، حقيقة أن غالبية هؤلاء المغامرين الذين نجحوا فى فتح إنجلترا وفدوا من نورمنديا ولكنهم جروا فى ركابهم عدداً كبيراً من الناطقين باللاتينية ، وهؤلاء شاركوا فى عملية الفتح ثم أخذوا نصيبهم من الغنائم والأراضى المفتوحة وانتشروا فى البلاد ليتركوا أثراً أعمق من مجرد الأثر الحربى ، هذا إلى أن النورمان أنفسهم الذين غزوا إنجلترا فى القرن الحادى عشر كانوا قد أصبحوا فعلاً قبل ذلك الغزو جزءاً من الأمة الفرنسية الناشئة بعد أن استقروا فى نورمنديا وتأثروا بعوامل البيئة الجديدة وحضارتها ، حتى صار الغزو النورمانى لإنجلترا فى حقيقة جوهرة غزو فرنسياً حضارياً ، ولا عجب فقد زود هذا الغزو إنجلترا بأسرة حاكمة فرنسية وهيئة من النبلاء وكبار رجال الدين الفرنسيين وطبقة من الناطقين بالفرنسية باشرت شئون الحكم والنشاط التجارى .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن النتيجة الحقيقية للغزو النورمانى هى إخراج بريطانيا من عزلتها النسبية وتقوية الصلات بينها وبين القارة وجعلها عضواً عاملاً فى تطور الحضارة الغربية تتأثر بكل حركة حضارية مهمة تنشأ فى الغرب وتؤثر فيها ، فالغزو النورمانى هو الذى أدى إلى تطور النظام الإقطاعى فى إنجلترا تطوراً مشابهاً لما كان عليه

الحال فى غرب أوروبا وبخاصة فى فرنسا ، وبعبارة أخرى فإن هذا الغزو هو الذى أدى إلى تطور الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى إنجلترا تطوراً مشابهاً لتلك الأوضاع التى عرفت فى غاليا .

وفى ركاب الحكام والمحاربين النورمان أتى رجال الكنيسة من المنتمين إلى أديرة فرنسا الشهيرة ليتركوا أثراً عميقاً فى حياة الجزر البريطانية ، وحسبنا أن لانفرانك وأنسلم وثيوبالد – وهم الذين تولوا رآسة أسقفية كانتربورى بالتتابع فى أوائل العصر النورمانى – كانوا جميعاً ينتمون إلى دير بك *Bec* الشهير فى نورمنديا ، هذا بالإضافة إلى أن حركة الإصلاح الكنسية التى ارتبطت باسم هلدبراند (جريجورى السابع) تدفقت مبادؤها – الخاصة بتحرير الكنيسة ورجالها من سيطرة الدولة وبتوسيع دائرة القانون الكنسى واختصاصه – على إنجلترا عن طريق فرنسا ، وقد نشأ من ذلك فى إنجلترا – بعد الفتح النورمانى – حركة إصلاحية كنسية واسعة ، فأخذ كبار أساقفة كانتربورى يصطدمون بالملوك من خلفاء وليم الفاتح فى سبيل الاحتفاظ بكلمة الكنيسة وسيادتها على شئونها ، وبدأت روح جديدة تدب فى الديرية الإنجليزية وفق المثل التى سارت عليها الأديرة العظيمة فى فرنسا ، وهكذا صار من اليسر أن تمتد حركة الإحياء الديرية – التى ظهرت فى أوائل القرن الثانى عشر – من فرنسا إلى إنجلترا على عهد هنرى الأول فأسست هيئتا السسترشيان والكارثوسيان – وكلاهما ولد فى برجنديا – أولى مؤسساتها الديرية فى إنجلترا بالذات .

ومع الفتح النورمانى وصل إلى إنجلترا طراز فنى جديد هو الطراز الرومانسكى الذى عرفه الإنجليز باسم النورمانى والذى حل محل الطراز الأنجلو سكسونى وهكذا أخذت تنتشر فى أنحاء إنجلترا منذ القرن الحادى عشر الكنائس والأديرة الرومانسية والقصور الرومانسية الضخمة لتحل محل المبانى الأنجلو سكسونية الكئيبة المعتمة ، وظل هذا الطراز الرومانسى – أو النورمانى – سائداً فى إنجلترا حتى ظهر الفن القوطى قرب منتصف القرن الثانى عشر لينتقل هو الآخر من فرنسا إلى إنجلترا

ويطول بنا الشرح لو حاولنا تتبع أثر الغزو النورمانى لإنجلترا فى مختلف الميادين كاللغة والأدب والحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادى وذلك نكتفى بالإرة إلى أن هذا الأثر كان عظيما ، ففى الناحية اللغوية غدت الفرنسية لغة بلاط ملوك إنجلترا النورمان وأخذت تتغلغل تدريجياً بين ثنايا لغة البلاد ذات الطابع السكسونى حتى نشأ عن الامتزاج بين اللغتين – فى أواخر القرن الرابع عشر – ما أصبح يعرف باللغة الإنجليزية ، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن الأثر الاجتماعى الذى نشا عن الامتزاج بين الغزاة النورمان وأهالى البلاد الأصليين مما ظهرت آثاره فى نواحى الجنس والتقاليد والعادات .

ومهما يكن من الأمر فمن الواضح أن أعظم نتائج الفتح النورمانى بالنسبة لإنجلترا ظهرت فى الميدان السياسى ويكفى أن هذا الفتح تمخض عن قيام أقوى دولة شهدتها أوروبا فى أوائل القرن الثانى عشر ولا غرو فقد استطاع النورمان أن يثيروا فى جميع البلاد التى فتحوها – سواء كانت إنجلترا أو غير إنجلترا – قسطاً من النشاط والحيوية ترك أثراً واضحاً فى تطورها التاريخى ، وتبدو

هذه الظاهرة أشد ما تكون وضوحاً فى تاريخ إنجلترا ذاتها ، وهو التاريخ الذى تأثر إلى درجة عظيمة بالفتح النورمانى سنة ١٠٦٦ . (١)

أولاً : وليم الفتاتح (١٠٦٦ – ١٠٨٧م)

أفاد وليم دوق نرمنديا من كل ما قد تحقق هدفه بالاستيلاء على إنجلترا ، إذ ساءت الأحوال السياسية والحربية فى إنجلترا على عهد الملك إدوارد ، واشتد التنافس بين إيرلات وسكس ومرسيا ، ونورثمبريا وايست انجليا ، ولاسيما إيرال هارولد جودونسون ، وغلب على الإنجليز روح البلادة والجمود ، بينما تركزت السلطة فى يد دوق نرمنديا وحذق النرمان الحرب الراكبة والقوس والنشاب ، وظفر وليم النرمندى بتأييد البابوية فى مشروع غزو إنجلترا فلما انتصر وليم فى معركة هيستنجز سنة ١٠٦٦ على هارولد جودوينسون لم يتعذر على وليم قمع الثورات التى نشبت فيما بعد فأخضع كل البلاد .

والمعروف أن وليم نشأ وتربى فى بيئة إقطاعية إذ كان صاحب إقطاع فرنسى كبير (نرمنديا) وتبعه إلى إنجلتر رجال تشبعوا أيضاً بالفكرة الإقطاعية وليس من العسير على هؤلاء الرجال أن يحولوا إنجلترا إلى دولة إقطاعية إذ أنهم لم يقاتلوا فى سبيل إقامة ملك نرمانى على عرش إنجلترا إلا بعد أن اطمأنوا إلى ما سوف يظفرون به من أراضى ومغانم إنجليزية ، ولم تخب آمال أولئك المغامرين الذين قدموا من نرمنديا وانجو وبريتانى وفلاندر على أن وليم أدرك

أن الملك الإنجليزى السكسونى حاز من السلطات ما ينكرها كل سيد إقطاعى ، ولذا عزم على أن يجعل نفسه الخليفة الشرعى لإدوارد وهارولد ، وإننا لنعجب ما إذا كانت دراسة وليم بملكية كابيه فى فرنسا لم تكن كافية لأن تجعله شديد الحذر من إقامة نظام إقطاعى بالغ النقاء .

ومع أن أفكار الملك وليم الإقطاعية قد تؤدى إلى إقامة مملكة إقطاعية ، فإن الدواعى العسكرية لمملكته الجديدة لم تدع له سبيلاً للاختيار ، إذا كان لزماً عليه أن يتخذ نظاماً يحول دون قيام الثورات السكسونية ، ويحمى المملكة من أعدائها بالخارج ، لذا لابد من إعداد أسباب دفاع قوية لرد غارات الإسكتلنديين والولشيين ، فضلاً عن الغزوات الإسكنديناوية ، وبذلك احتاجت إنجلترا إلى شبكة من الحصون القوية المشحونة بالعساكر ، وإلى جيش ثابت يستطيع أن يحتشد كلما اقتضت الحاجة ذلك ، والراجح أن النظام الإقطاعى هو الذى يسد هذه الحاجة ، ومن المحقق أن هذا الحل هو الذى ارتآه وليم الفاتح .

الإقطاعيات النرمندية :

© sa2eh.com

زعم وليم الفاتح أنه ظفر بكل البلاد بحق الفتح فأضحت الأراضى كلها ملكاً له يتصرف فيها كيفما شاء ولم تكن لفظة الملك *Allodium* معروفة فى إنجلترا النرمندية على حين أنها دلت فى القارة الأوروبية على التملك المطلق للأرض ، وإذ كانت الأراضى بإنجلترا ملكاً للملك كان كل ما يبتغيه أحد الرعايا هو أن ينال قطعة أرض من الملك .

واستقرت ملكية وليم الفاتح للأرض فيما هو معروف باسم كتاب الروك النرمانى *Damesday Book* الذى لم يكن سوى سجل لمساحة ما يملكه الملك من الأراضى بإنجلترا ، إذا يصف فعلاً المملكة بأسرها ، كونتية بعد كونتية ، ويشير إلى أن كل الأرض إما يحوزها الملك مباشرة ، أو يوزعها على كبار الأتباع ووردت أسماء هؤلاء الأتباع عند وصف كل كونتية ، وتكررت الإشارة إلى أن كل ما ظفر به التابع من الأراضى إنما حازها من الملك وهذا هو السر فى أن الملك احب أن يعرف كل شئ عنها من حيث مساحات أراضى الحرث ، وعدد المحاريث بكل ضيعة وعدد الفلاحين والنازلين على الأطراف والمقيمين بالأكواخ ، وعدد الأرقاء والأحرار ومساحة أرض الغابات وأرض المراعى ، ومقدار ما يؤدى من الضرائب والمجموع الكلى لما يؤدى سنوياً ، وهو أعظم ما يهتم له الملك إذا كان يؤدى عادة بطرق كالتى كانت جارية زمن الملك إدوارد أثناء حياته وعند وفاته (٥ يناير ١٠٦٦) وعند الفراغ من تقدير مساحة الأرض سنة ١٠٨٦ كما لو أن الأرض جرى استغلالها بأكملها .

© sa2eh.com

سلطة الملكية :

بالإضافة إلى إنشاء هيئة إقطاعية كان الملك على رأسها تولى وليم الفاتح التراث الملكى الذى خلفه الملوك الإنجليز السكسون .

ومع أن وليم الفاتح تنازل للكنيسة عن امتياز هام بما أجراه من فصل المحاكم العلمانية عن المحاكم الكنسية وأجاز للكنيسة بأن تتخذ لها نظاماً قضائياً مثلما كان لها فى سائر غرب أوروبا فإنه حرص على أن يسلك طريق أسلافه (ملوك الإنجليز السكسون) فى الإشراف على

انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة ومنع مندوبى البابا من الدخول إلى مملكته إلا بإذن منه فلا زال يعتبر الأساقفة يؤلفون جانباً من إدارته فكانت كل قراراته موجهة دائماً إلى الأسقف ورئيس المقاطعة *(Shire)* ، باستثناء بعض المقاطعات التى استقر بها الإيرلاث . (١)

وليم الثانى (١٠٨٧ – ١١١٠ م) :

توج وليم الثانى ملكاً على إنجلترا وأقسم على مراعاة النظام الذى وضعه أبوه ، ولكن وليم حكم البلاد حكماً استبدادياً كما تطرف فى معاملة الكنيسة مما هدد بوقوع صدام بين الطرفين حيث اختلف من لانفران *Lanfrank* رئيس أساقفة كانتربورى الذى توجد وليم وأصبح مستشاراه ، وظل على هذا الحال حتى وفاة لانفرنك الذى خلفه أنسلم ، وفى سنة ١١٠٠ م انتهت حياة وليم باغتياله بيد مجهول أثناء الصيد .

هنرى الأول (١١٠٠ – ١١٣٥ م) :

تولى الحكم خلفاً لوليم الثانى سنة ١١٠٠م ، وكان هنرى الأول إدارياً ممتازاً وحاكماً قوياً فأخضع ثورة قام بها البارونات فى إنجلترا ، كما غزا نورماندیا وقبض على أخيه الثائر ، وفيما عصى علاقته بالكنيسة تم الاتفاق على حل فورى فى النزاع على السيادة وهو أن يتضمن اعتراف الأساقفة بالتبعية للملك فى الشئون الدنيوة ، مقابل تنازل الملك عن حق تقليد الأساقفة مهام مناصبهم الدينية .

ستيفن كونت بلوا (١١٣٥ – ١١٥٤) :

أعقب وفاة هنرى الأول فترة نزاع حول وراثة العرش ، وكان يعتقد أن العرش سيؤول لبنته ماتيلدا ، ولكن ستيفن كونت بلوا وهو أول من أُسم بالولاء لماتيلدا كان أول من حنث بوعده واغتصب عرش إنجلترا ، ويعتبر عصر ستيفن عصر فوضى ، وقد أطلق عليه بالفعل عصر الفوضى *Period of Anarchy* وذلك بسبب الحرب الأهلية والفتن التى سادت معظم فترة حكمه تقريباً . (٣)

هنرى الثانى (١١٥٤ – ١١٨٩م) :

باعتلاء هنرى الثانى عشر إنجلترا ينتهى حكم أسرة النورمان فى إنجلترا ويبدأ حكم أسرة البلانتاجنت *Plantagenet* ، وترجع هذه التسمية إلى جوفرى اف أنجوى – والد هنرى – الذى كان يلبس عسلوجا من نبات الرتم المسمى بالفرنسية *Planta Genet* فى قبعته ، ومن الواضح أن هنرى انتزع حقه بحد السيف فبدأ قوياً يحكم مملكة تمتد من اسكتلندا إلى جبال البرانس وتضم نصف فرنسا تقريباً ، ولكن هذه المساحة الكبيرة قد مزقتها الحروب الأهلية أو الأطماع الإقطاعية التى انتهزت فرصة الحروب الأهلية ووطدت مراكزها .

والمعروف عن هنرى أنه كان حاد الطبع كثير المطامع ذا ذاكرة قوية ، وحتى يسيطر هنرى على مملكته بدأ بضرب الإقطاع ونجح فى إخضاعهم واحداً بعد الآخر ، ودمر العديد من الحصون الإقطاعية وأقام دعائم الأمن والعدالة والنظام وانتشر السلم داخل البلاد واستطاع هنرى

إخضاع أيرلندا لحكمه وبدأ كأعظم حكام عصره ، واستقل فى بلاطه سفراء الدول الذين يطلبون العون أو المشورة لبلادهم ، ولكن هذا الملك القوى الذى يعتبر من أعظم حكام إنجلترا قد تحطم عندما تنازع مع توماس بكت *Thomas Becket* رئيس أساقفة كانتربورى .

ويرجع تاريخ توماس بكت عندما ولد فى لندن عام ١١١٨ م من طبقة وسطى نورماندية وظهر نبوغ توماس وهو صغير فاهتم به ثيوبالد *Theobald* رئيس أساقفة كانتربورى وأرسله ليدرس القانون المدنى والكنسى فى بولونيا وغيرها ، ولما عاد إلى إنجلترا تدرج فى المناصب الدينية حتى أصبح رئيس شماسة كانتربورى فى عام ١١٥٤م ، وفى عام ١١٥٥ م أصبح الوزير الأول فى البلاط الإنجليزى وعمره سبعة وثلاثين عاماً ، واصبح الصديق الحميم للملك هنرى ومستشاره وموضع ثقته ، وعاش توماس بكت كرجل دنيا على أرفع مستوى فقد شار ألعاب الفروسية وكانت مائدته أفخم الموائد ، وقاد الجيوش فى الحروب وكان سفيراً للملك فى جهات متعددة وله حاشية لا تقل عن مائتين من الرجال .

وفى عام ١١٦٢ م أصبح توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى وبتوليه هذا المنصب تبدل حاله تماماً فقد هجر الحياة الدنيا بكل زينتها وعاش على الخضر والبقول وأصبح المدافع الأول عن حقوق الكنيسة وتمسك بعدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية ومن هنا كان الصدام مع الملك هنرى .

وكان هنرى يرى بسط سلطاته على جميع الطبقات بما فيهم رجال الدين خاصة عندما وجد أن المحاكم الكنسية لا تعاقب رجال الدين على ما يرتكبونه من جرائم ولهذا السبب استدعى هنرى الأشراف ورجال الدين إلى اجتماع عقد فى مدينة كلارندون *Clarendon* الواقعة إلى الجنوب الشرقى من سالزبورى عام ١١٦٤ م ، وأجبر هنرى الحاضرين على توقيع دستور كلارندون الذى يقضى على الكثير من المزايا التى يتمتع بها رجال الدين .

اعترض توماس بكت على هذا الإجراء ورفض أن يضع خاتم الكنيسة على هذا الدستور ولكن هنرى أذاع قرارات كلارندون وقدم توماس بكت ليحاكم أمام المحكمة الملكية وليس أمام المحكمة الكنسية ، وكان لدى توماس بكت من الشجاعة ما جعلته يمثل أما المحكمة ويعارض رجال الدين الذين ساندوا الملك وأعلنوا أنه مذنب لخروجه على الملك باعتباره سيدهم الإقطاعى ، وفى نهاية المحكمة تقرر القبض عليه ولكنه اعترض وأعلن أنه سيستأنف الحكم أمام البابا وخرج من المحكمة دون أن يجرؤ أحد أن يقبض عليه .

أحس توماس أنه يقف فى وجه الملك بمفرده بعدما تخلى عنه رجال الدين فهرب ليلاً إلى شمال فرنسا واستقر فى دير سانت أومر *St.Omer* الواقع فى إقليم فلاندرز ، ومن هذا الدير أرسل استقالته إلى البابا إسكندر الثالث ١١٥٩ – ١١٨١ م ، ولكن البابا رفض قبول استقالته وأيده فى موقفه وطلب منه التوجه إلى دير بونتنى *Pontigny* حتى يتجلى الموقف .

وظل الحال على هذا الوضع سنتين نفى هنرى خلالهما جميع أقارب توماس بكت ، وفى عام ١١٦٦ م سافر هنرى إلى نورماندى فهاجه توماس بكت من فرنسا وأصدر قرار الحرمان ضد رجال الدين الذين ساندوا الملك وأيدوا دستور كلارندون ، ورد هنرى على ذلك مهدداً بمصادرة أملاك جميع الأديرة الواقع فى بلاده وتخضع لدير بونتنى إذا استمر توماس مقيماً فى هذا الدير ، وجال توماس بكت ليعيش على الصدقات طوال ثلاث سنوات .

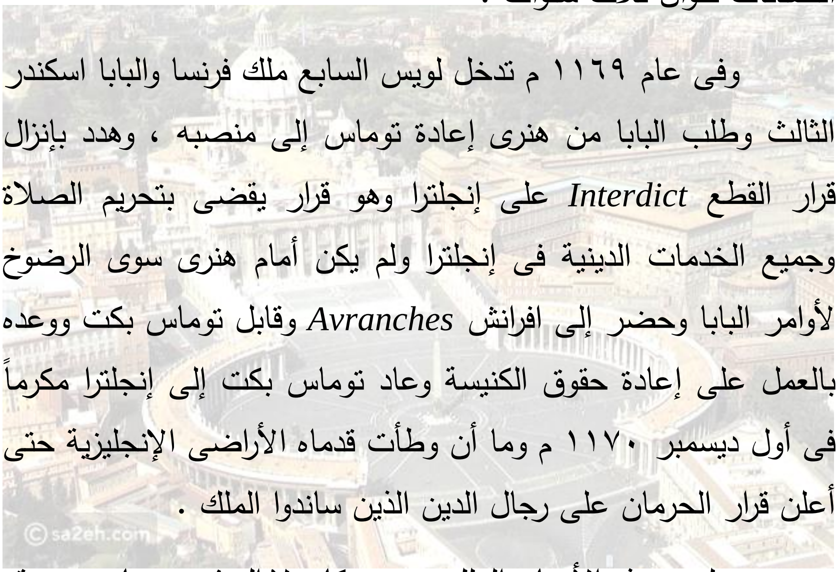

وفى عام ١١٦٩ م تدخل لويس السابع ملك فرنسا والبابا اسكندر الثالث وطلب البابا من هنرى إعادة توماس إلى منصبه ، وهدد بإنزال قرار القطع *Interdict* على إنجلترا وهو قرار يقضى بتحريم الصلاة وجميع الخدمات الدينية فى إنجلترا ولم يكن أمام هنرى سوى الرضوخ لأوامر البابا وحضر إلى افرانش *Avranches* وقابل توماس بكت ووعده بالعمل على إعادة حقوق الكنيسة وعاد توماس بكت إلى إنجلترا مكرماً فى أول ديسمبر ١١٧٠ م وما أن وطأت قدماه الأراضى الإنجليزية حتى أعلن قرار الحرمان على رجال الدين الذين ساندوا الملك .

وبلغت هذه الأخبار الملك هنرى وكان لازال فى نورماندى ، وقد وصلت مسامعه بصورة محرفة ومبالغ فيها فغضب هنرى وفسر بعض رجال هنرى أن الملك يريد التخلص من توماس بكت فاتتجه أربعة من الفرسان هم ريجنالد فتز أورس *Reginald Fitz Urse* ، ووليم دى تراكى *William de Traci* ، وهيودى مورفى *Hugh de Morville* وريتشارد بريتو *Richard Brito* دون علم الملك واغتالوا توماس بكت

عند مذبح كنيسة كانتربورى فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ م وقطعوه أرباً بسيوفهم .

اهتز العالم المسيحى لهذه الحادثة وأدان هنرى بهذه الجريمة الشنعاء ووجل هنرى من هذا الاتهام وحتى يبرأ ساحته أمر بالقبض على القتلة وأرسل إلى البابا يعلن براءته من حادثة الاغتيال ولعل هنرى قد أحس بأنه مسئول عن مصرع توماس بكت بطريقة غير مباشرة ، فوعد بأن سيكفر عن ذنبه بالطريقة التى يرضى عنها البابا وبدأ هنرى بإلغاء دستور كلاندون وجميع الآثار التى ترتبت عليه ، ومن ذلك إعادة جميع أملاك وأموال الكنيسة التى صادرها .

أصبح قبر توماس بكت مزاراً للمسيحيين وأعلنت الكنيسة قداسته ومنحه البابا اسكندر الثالث لقب قديس فى الثانى عشر من مارس عام ١١٧٢م كما أتى الملك هنرى الثانى إلى قبر توماس بكت فى كانتربوى نادماً ، وعلى مسافة ثلاث أميال من قبرتوماس بكت ترجل هنرى وسار حافى القدمين حتى وصل إلى قبر توماس ثم انحنى أمام القبر وطلب من الرهبان أن يجلدوه وتزلزل كبرياء هنرى أمام قبر صديقه وعدوه الميت وهنا يمكن القول أن هنرى الثانى استسلم وخضع لتوماس بكت الميت ، بما لم يستسلم ويخضع به لتوماس بكت الحى .

والمهم أن إرادة هنرى الحديدية قد تحطمت وزاد سخط العامة عليه فضلاً عن سخط الكنيسة رغم براءته ، وزاد عليه المتاعب من أسرته عندما تآمرت زوجته وولديه ريتشارد ويوجنا لخلعه عن العرش

وتحالف المتآمرون مع فيليب أوغسطس ملك فرنسا فى حروبه ضد إنجلترا وظلت المتاعب تحيط بالملك هنرى حتى مات فى عام ١١٨٩ م.

وعلى هذه الصورة ربما يرى البعض أن هنرى قد تحطم من جراء صراعه من الكنيسة ولكن الحقيقة أن هذا الفشل يعتبر فشلاًَ عابراً فى تاريخ إنجلترا ، فالملك هنرى كان يرى تحرير الدولة من القيود الكنسية والإقطاعية ، وغايته أن تكون هناك حكومة قوية لها نظام وقانون واحد يخضع له الجميع وربما كان التوقيت الذى بدأه هنرى هو الذى كان غير مناسب ، كما أن الطريقة التى عالج بها هنرى مشاكل عصره هى التى جعلته يفشل فى مشروعاته ، فالملك هنرى كان يرى إخضاع الجميع لدستور واحد أمام حكومة مركزية قوية وهى سياسة حكيمة ، ولكن المشكلة أن هنرى كان يرى أن يقوم هذا النظام فى ظل حكومة استبدادية ، وهذا هو لب المشكلة ، وعلى أية حال لقد أقام هنرى حكومة قوية ووحد البلاد بعدما أخضع الأشراف المتمردين ونجح فى هذا الجانب نجاحاً كبيراً ورأس دولة فى ظل حكومة مركزية غير مسئولة إلى أقصى حد ، وإذا كان هنرى خاض صراعاً رهيباً مع الكنيسة فإن المراحل التالية ستشهد صراعاً اشد ضراوة بين الملكية والإقطاع . (٤)

ريتشارد الأول (١١٨٩ – ١١٩٩ م) :

جرى رتشارد الأول ويوحنا ولدا هنرى الثانى على سياسة ازدياد سلطة الملك ، ولم يتعرض ريتشارد لمقاومة من قبل البابوية والكنيسة لاشتراكه فى الحرب الصليبية الثالثة ، أما يوحنا فكان حريصاً على أن

يزيد فى سلطة الملك على حساب البابوية والبارونات ، على أنه لازمه سوء الحظ لافتقاره إلى البسالة واستخفاف الناس به ، ولأنه واجه عدوين خارجيين عنيدين هما فيليب أغسطس ملك فرنسا والبابا أنوسنت الثالث ، يضاف إلى ذلك أنه أضاع دوقية نرمنديا ، ومارين ، وأنجو . (٥)

يوحنا والعهد الأعظم (١١٩٩ – ١٢١٦م) :

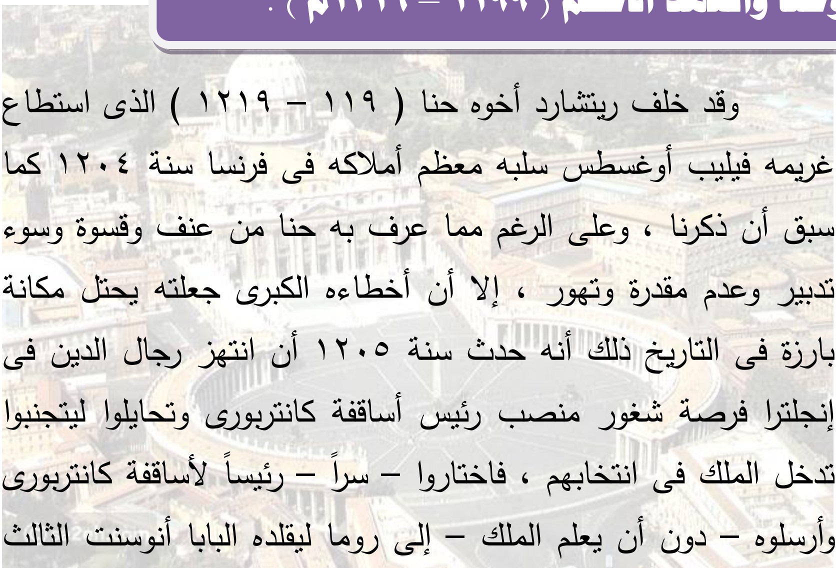

وقد خلف ريتشارد أخوه حنا (١١٩ – ١٢١٩) الذى استطاع غريمه فيليب أوغسطس سلبه معظم أملاكه فى فرنسا سنة ١٢٠٤ كما سبق أن ذكرنا ، وعلى الرغم مما عرف به حنا من عنف وقسوة وسوء تدبير وعدم مقدرة وتهور ، إلا أن أخطاءه الكبرى جعلته يحتل مكانة بارزة فى التاريخ ذلك أنه حدث سنة ١٢٠٥ أن انتهز رجال الدين فى إنجلترا فرصة شغور منصب رئيس أساقفة كانتربورى وتحايلوا ليتجنبوا تدخل الملك فى انتخابهم ، فاختاروا – سراً – رئيساً لأساقفة كانتربورى وأرسلوه – دون أن يعلم الملك – إلى روما ليقلده البابا أنوسنت الثالث مهام منصبه رسمياً ، وفى تلك الأثناء عين الملك حنا رجلاً لشغل هذا المنصب وأرسله أيضاً إلى روما حيث التقى مع منافسه فأعرض البابا عنهما جميعًا وعين ستفن لانجتون رئيساً لأساقفة كانتربورى ، وكان أن رفض الملك قبول ستفن فى هذا المنصب ، مما أثار سوء تفاهم بينه وبين البابوية حتى انتهى الأمر بأن أصد البابا قرار الحرمان ضده سنة ١٢٠٨ لقسوته وقتله رجال الكنيسة ، ولم يلبث البابا أنوسنت الثالث أن

أعلن عزل الملك حنا وأباح لرعاياه التحرر من طاعته والولا له ، فرد حنا على ذلك بالاستيلاء على جميع أملاك الكنيسة فى إنجلترا ، وق ظل الموقف معلقاً بين الملك حنا والبابوية خمس سنوات وكان من الممكن أن يستطيع حنا الثبات فى موقفه لو أنه محبوب من شعبه ولكن أساليبه التعسفية جعلته مكروهاً لا يستطيع الاعتماد على أمرائه فى الداخل وفى ذلك الوقت أخذ فيليب أوغسطس يستعد لغزو إنجلترا بتحريض من البابوية وأعد لذلك أسطولاً ضخماً من ألف وخمسمائة سفينة (١٢١٢ – ١٢١٣) وهكذا اضطر الملك حنا إلى الإذعان أخيراً سنة ١٢١٣ لرغبة البابا فقبل ستفن لانجتون رئيساً لأساقفة كانتربورى ورد أراضى الكنيسة المصادرة ، كما اعترف بسيادة البابوية وتعهد بتقديم مبلغ سنوى لها رمزاً لهذه التبعية .

وبعد ذلك انضم حنا إلى الحلف الكبير الذى ألفه الإمبراطور أوتو الرابع وكونت فلاندرز ضد فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وعندما رفض أمراء إنجلترا مساعدة ملكهم فى حربه الجديدة أبحر هو هو إلى فلاندرز على رأس طائفة من الجند المأجورين ولكنه لم يلبث أن عاد إلى بلاده بعد أن أنزل فيليب أوغسطس الهزيمة بجيوش الحلفاء فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ ، وكان استياء البارونات الإنجليز قد بلغ أشده عندئذ ولاسيما عندما طالب حنا بفرض ضريبة جدية تساعده على استئناف الحرب ضد فرنسا ، لذلك تكتل الأمراء وقدموا قائمة بمطالبهم إلى الملك حنا الذى أخذ يماطل فى أول الأمر حتى استكشف عجزه عن إغراء رجال الكنيسة أو أهالى لندن بمساعدته ، وعندئذ احتل البارونات لندن

واضطروا الملك حنا إلى الموافقة على العهد الأعظم ودمغه بالخاتم الملكى فى ١٥ يونيو سنة ١٢١٥ .

والواقع أن العهد الأعظم هذا لا يعتبر وثيقة جديدة فى موضوعها تحقق الحرية للشعب كما يبدو لأول وهلة ، وحسبنا أن العهد الأعظم لم يتعرض لذكر أهل الريف الذين ألفوا ثلاثة أرباع سكان إنجلترا فى ذلك الوقت ، وربما كان أقرب إلى الصواب أن نعتبر العهد الأعظم وثيقة إقطاعية تتجه فى جوهرها نحو تنظيم العلاقة بين الملك وكبار الأمراء الإقطاعيين ، ذلك أنه أورد حقوق الأمراء القديمة مفصلة كما نص على احترام حقوق الكنيسة ولاسيما فيما يتعلق بانتخاب القساوسة وحرم على الملك جمع إتاوات دون موافقة المجلس الكبير باستثناء عدة حالات مثل أسر الملك أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارساً أو زواج كبرى بناته . أما لندن وغيرها من المدن فقد ضمن لها العهد الأعظم حقوقها وامتيازاتها القديمة ، كما سمح للتجار بدخول البلاد ومباشرة نشاطهم دون أن يتعرضوا لشئ من الإزعاج والمضايقات ، وفى حالة استيلاء الدولة على بعض الممتلكات للصالح العام فإن أصحابها يجب أن يعوضوا تعويضاً كافياً ، أما فى الناحية القضائية فقد نص العهد الأعظم على عدم الاكتفاء بالشبهات والأقاويل لإلصاق تهمة بشخص معين وإنما يتحتم أن يأتى الشهود بأدلة دامغة على هذه التهمة ، كذلك نص على أن تتناسب العقوبة مع الجريمة مع إبطال بعض العقوبات الوحشية .

على أن أهم مادتين فى العهد الأعظم هما المادة التاسعة والثلاثون والمادة الأربعون ، أما المادة التاسعة والثلاثون فتنص على أنه

لا يجوز القبض على أى شخص حر أو سجنه أو سلبه ممتلكاته أو حرمانه من حماية القانون أو نفيه أو إيذائه بأى وجه من الوجوه إلا بعد محاكمته أمام محكمة من أنداده وفق أحكام القوانين المعمول بها . وأما المادة الأربعون فيتعهد فيها الملك بألا يبيع حقاً لأحد الأفراد أو ينكره أو يماطل فيه ، وربما كان أهم من هذا كله ما يفهم ضمناً من العهد الأعظم من أن الملك خاضع للقانون وأن القانون فوق الملك الذى لا يملك حق الخروج عليه ، فإذا حاول الملك الخروج على القانون وجب استعمال القوة لإخضاعه ، والواقع أنه على الرغم من عدم استطاعة البارونات استخدام القانون ضد الملك وعلى الرغم من أن نظرية (القانون فوق الملك) كثيراً ما تتوسيت ، إلا أنها ظلت دائماً تمثل ركناً مهماً فى الدستور البريطانى كما ظل العهد الأعظم يذكر ملوك إنجلترا على الدوام بأن ملكيتهم مقيدة .

على أنه لا الملك حنا ولا نبلاؤه أظهروا احتراماً لشروط العهد الأعظم فلم يلبث بارونات الشمال أن هاجموا الأراضى الملكية وعندئذ شكا حنا للبابا الذى سانده فأصدر قرار الحرمان ضدهم وقد ظل الملك يحارب هؤلاء البارونات الخارجين حتى توفى فى العام التالى – أى سنة ١٢١٦ – بسبب إفراطه فى الطعام والشراب . (٦)

هنرى الثالث (١٢١٦- ١٢٧٢) وبرلمان سيمون دى منتفرات سنة ١٢٦٥ :

وجدير بالذكر أنه طرأ على العهد الأعظم عدة تعديلات هامة فى السنوات العشر الأولى من حكم هنرى الثالث (١٢١٦ – ١٢٧٢) عندما كان طفلاً تحت الوصاية ، وقد حكم أوصياؤه البلاد بروح العهد الأعظم ولكن هنرى عندما تقلد زمام الأمور وقعت تطورات هامة بسبب

سوء مسلكه وتصرفاته ونقضه للدستور ، وما أبداه من قصر النظر فى ميدان السياسة إذ أخذ يغدق الوظائف الهامة ذات الثروة والجاه على الأجانب كما أحنى رأسه للبابا مستسلماً لرغباته ، وطمع فى تتويج ابنه الصغير المسمى أدموند ملكاً على صقلية ، وقد ترتب على ذلك استنفاذ أموال الدولة وسخط رجال الدين والإقطاعيين عليه ومطالبتهم بالإنصاف بسبب الغبن الذى لحقهم ، وواتتها الفرصة عندما اجتمع البرلمان فى اكسفورد سنة ١٢٥٨ إذ اضطر هنرى الثالث تحت ضغط المعارضة إلى قبول حكومة يهيمن عليها حزب البارونات وعرفت هذه الشروط فى تاريخ إنجلترا الدستورى باسم شروط اكسفورد *Provisions of Oxford* التى أقسم الملك هنرى باحترامها .

ولكن هنرى لم يلبث أن أخل بقسمه هذا واعتمد على البابا لإحلاله منه ، وكانت النتيجة أن اشتدت المعارضة ضده بعد أن انضم إليها بالإضافة إلى البارونات كثير من رجال الدين وطلبة جامعة أكسفورد وأهل المدن الحرة ، وكان هدف هذه الطوائف المتعددة هو حماية البلاد من ذلك الحكم الاستبدادى وتفاقم الحال وتطور النزاع بين هنرى والمعارضة إلى حرب أهلية عانت منها البلاد الأمرين ، وقد تزعم هذه الحركة رجل فرنسى أجنبى يدعى سيمون منتفرت *Simon de Montfort* الذى كان قد ورث بعض الإقطاعيات بإنجلترا عن طريق الزواج وانتهت الحرب بهزيمة الجيش الملكى سنة ١٢٦٤ وأسر هنرى وولى عهده الأمير إدوارد .

هكذا نرى أن الكفاح مع الملكية بإنجلترا لم ينته بسبب إهمال هنرى لتعهداته السابقة ، وقد انتهت الحرب التى قامت بين الملكية وحزب المعارضة بهزيمة هنرى ، ولو أن النصر الذى أحرزه سيمون لم يؤد إلى خلع الملك إلا أنه أدى إلى تقدم التطور الدستورى فى البلاد خطوة جديدة باجتماع البرلمان المعروف فى التاريخ الإنجليزى باسمه سنة ١٢٦٥ ، وقد تزعم سيمون الحركة الدستورية وقتئذ بإنجلترا ، وكان هدفه دعوة ممثلى الأحرار من رجال الطبقة الثالثة ليكون لهم صوت مسموع فى البرلمان المذكور ، وهو يعتبر بداية عهد جديد فى إنجلترا بسبب الغرض الذى اجتمع من أجله ، فضلاً عن أنه لم يكن هناك برلمان سابق له يشبهه فى سعة تمثيله لمختلف طوائف الأمة الإنجليزية ، بعد أن أصبحت المدن والأقاليم تمثل فيه بالإضافة إلى رجال الدين والبارونات وقد شهد الأمير إدوارد هذا البرلمان ، كما أقسم أبوه باحترام الصلح الذى تم عقده عقب هزيمته أمام سيمون ، ولكن حركة سيمون دى منتفرت فشلت مؤقتاً بمقتله فى سنة ١٢٦٦ فى موقعة ايفشام على يد الأمير إدوارد ، وكانت الخطوة التالية فى عهد هذا الأمير عندما اصبح ملكاً تحت اسم إدوارد الأول .

إدوارد الأول (١٢٧٢ – ١٣٠٧) :

عندما تولى إدوارد الأول العرض (١٢٧٢ – ١٣٠٧) نراه يخطو بالحكم البرلمانى خطوات جدية واسعة تدل على فطنة وبعد نظر ، جمع البرلمان الذى اشتهر باسم البرلمان النموذجى فى سنة ١٢٩٥ ودعا إليه ممثلى الطبقات الثلاثة الحرة *Three Estatas* لكى تقر الأمة

بأسرها سياسته المالية التى تتمثل تمثيلاً واضحاً فى عبارته المشهورة التى عرف بها وهى :

" أن كل ما يمس الجميع يجبل أن يوافق عليه الجميع "

"What touches all, should be approved by all"

وظل هذا البرلمان الجديد الذى اشتهر باسم برلمان الطبقات الثلاث يجلس فى مجلس واحد على القرن الخامس عشر وهم الأشراف ورجال الدين وطبقة الأحرار من سكان المدن ، ولأول مرة فى التاريخ الإنجليزى نسمع فى القرن الخامس عشر بانفصال الأشراف وكبار رجال الدين عن طبقة الأحرار فجلسوا وحدهم كهيئة مستقلة أصبحت فيما بعد تعرف بمجلس اللوردات وفى قاعة عليا من الطابق الأول من وستمنستر فأصبح لهذا يسمى بالمجلس الأعلى *Upper House* . بينما تركوا عامة الشعب من الأحرار وصغار الفرسان وسكان المدن والتجار فى القاعة السفلى ، وأصبحوا يدعون المجلس الأدنى *Lower House* أو مجلس العامة أو العموم *House of Commons* .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن عهد الملك إدوارد يمتاز بنشاط تشريعى كبير فكان من أهم تشريعاته القانون الذى يحدد القواعد المتبعة فى تنظيم الأراضى وقانون آخر حرم الكنيسة من كثير من أراضيها وقانون ثالث سمح تجزئة الإقطاع إلى اقطاعات صغيرة ، وكان لهذا أثره فى التقليل من خطورة الإقطاعات الكبيرة .

وقصار القول أن الخطوات التى تمخضت عن الأنظمة البرلمانية مع تعقدها كانت وليدة الحوادث والملابسات التى تحيط بها

وتتلخص فى ثلاث نقاط تاريخية تعتبر بحق نقاط تحول فى تاريخ الدستور الإنجليزى وهى :

١- العهد الأعظم سنة ١٢١٥ الذى يقترن باسم الملك حنا .

٢- برلمان سيمون منتغرت سنة ١٢٦٥ .

٣- البرلمان النموذجى سنة ١٢٩٥ وهو الذى يقترن باسم الملك إدوارد الأول .

مبدأ الانتخاب والتمثيل للمجالس البرلمانية الوسيطة :

ولتفهم المدى الذى وصلت غليه الحركة الدستورية الإنجليزية فى تطورها فى هذا العصر المتقدم يجب أن نفهم بوضوح مسألة ذات أهمية خاصة فى الأنظمة الدستورية ألا وهى مبدأ الانتخاب والتمثيل فى المجالس *Election&represention* وفى مثل هذا المهد البعيدة يجب علينا أن تفرق تفريقاً واضحاً بين طبيعة الانتخاب وطبيعة تمثيل الطبقات وقتئذ ، وبين ما هو حاصل فى التاريخ الحديث ، فالانتخاب لتلك المجالس البرلمانية الوسيطة لم يكن عاما بواسطة الشعب ، ولكنه كان محصوراً فى يد عمال الملك ، وهو أشبه ما يكون بالتعيين والإلزام منه بالانتخاب الحقيقى *Selectionand Noteelection* وكان الأشخاص المعينون يلزمون بحضور تلك المجالس مما لم يعتبره البعض امتياز كبيراً وعلى ذلك يصبح مبدأ تمثيل الأمة فى مثل هؤلاء الأشخاص أمراض لا أساس له من الصحة .

والخلاصة أنه لم يكن هناك انتخاب بالمعنى المألوف من هذا المصطلح وقد ترتب على ذلك أنه لم يكن هنا تمثيل صادق للطبقات

بالمعنى الذى نفهمه فى العصر الحديثة ويجب ألا يغرب عن البال أن حضور تلك المجالس البرلمانية إنما كان فى العصور الوسطى عبئاً ثقيلاً على الأفراد ويكفلهم النفقات الباهظة ويعطل أعمالهم الخاصة ويعرض حياتهم لمخاطر الأسفار فى وقت كانت فيه المواصلات بطيئة والطرق غير معبدة واللصوص وقطاع الطرق منتشرون فى الجبال والغابات لسب كل ما يمكنهم أن يضعوا يدهم عليه ، وإن هذه الصعاب والمخاطر جعلت الناس وقتئذ لا يرحبون بحضور تلك المجالس وكانوا لا يذهبون إليها إلا ملزمين بواسطة عمال الملك ، وفوق هذا فقد كان ينتظر من هؤلاء المعينين فى هذه المجالس النيابية أن يقدموا للملك هدايا مالية عند وصولهم .

ولقد فسر بعض الشراح المحدثين عبارة الملك إدوارد الأول التى أشرنا إليها على ضوء القواعد البرلمانية الحديثة ، بأنها توازى مبدأ عدم جباية الضرائب بدون تمثيل وموافقة كافة الطبقات التى سيقع عليها هذه الضرائب على كاهلهم *No Taxation Without Representation* فاعتبروا هذه العبارة تشبه إلى حد كبير عبارة إدوارد الأول " ما ميس الجميع يجب أن يوافق عليه الجميع " ، فكان المفروض فى نظرهم أن يجتمع ممثلو الطبقات الثلاث لمناقشة الضرائب التى تطالب الحكومة المركيزة الملكية بها لأمر من الأمور ، ومن حقها اعتمادها أو رفضها ، والواضح فى العصور الوسطى أن مضمون عبارة إدوارد بعيد عن ذلك الافتراض كل البعد ، فكان مجلس العامة يجتمع وقتذاك لا ليناقش طلبات الملك وإنما ليعتمد قراراته ويحاط علماً بها وينقلها إلى منطقته التى يسكنها والعمل على ترويجها بين الناس .

© sa2eh.com

وأخيراً يجب علينا ألا ننسى فى هذا المقام طبقة رقيق الأرض وهى الطبقة العاملة فى الزراعة ، فلم تكن ممثلة فى أى هيئة من الهيئات النيابية كان أساسها فى القرون الوسطى إقطاع الأرض ، وكان رقيق الأرض مسخرين وغير مقطعين أى ليست لهم صفة الإقطاع بأى حال من الأحوال ، وإنما تباعاً للأرض وليست الأرض تابعة لهم ، وعلى ذلك اصبح رقيق الأرض ليس لهم محل فى مجلس العموم الوسيط . (٨)

إدوارد الثانى (١٣٠٧ – ١٣٢٧) :

تولى عرش إنجلترا سنة ١٣٠٧ م وكان ضعيفاً مولعاً بصحبة الأراذل حتى صار أداة عمياء فى أيدى ندمائه ووقعت البلاد فى فوضى كبيرة انتهت بأن عزله البرلمان وأعدمه سراً سنة ١٣٢٧ م .

إدوارد الثالث : وحركة ((وكلف)) (١٣٢٧ – ١٣٧٧ م) :

تولى إدوارد الثالث ابن إدوارد الثانى سنة ١٣٢٧ م وكان فارساً متميزاً ويختلف عن أبيه كثيراً فى أسلوب حياته وعهده الطويل استاذ بأهمية كبرى فى التاريخ الإنجليزى وكانت أهم الأحداث التى شهدها ذلك العهد حرب المائة عام وقيام منظمة السيسترشيان بتحويل كثير من أراضى إنجلترا الضحلة المهملة إلى أرض زراعية خصبة ، كما كان من أهم الأحداث الوباء الأسود الذى اجتاح أوروبا عند منتصف القرن الرابع عشر أثره الهدام فى إنجلترا وفى ذلك العهد ظهر خنا وكلف *John Wiclif* (١٣٢٤ – ١٣٨٤) وهو أحد المصلحين الرينين ، فنادى بحق الدولة فى مصادرة ممتلكات الفاسدين من

رجال الدين ، كما نادى بعدم التقيد بالبابوية ، وكانت آراء وكلف تسبق العصر الذى يعيش فيه بحيث أدت إلى كثير من الاضطرابات فى الداخل والخارج من خلال أتباعه الذين عرفوا باسم اللولارديين *Lollards*

ريتشارد الثانى (١٣٧٧ – ١٣٩٩) :

تولى حكم إنجلترا وكان فى سن العاشرة من عمره فقام بالوصايا عليه وتصريف شئون البلاد مجلس وصايا من اثنى عشر عضواً .الفترة من سنة ١٣٩٩ إلى سنة ١٤٨٥ :

تولى عرش إنجلترا بعد ذلك الملك هنرى الرابع (١٣٩٩ – ١٤١٣م) وكان مليئاً بالمتاعب ثم جاء بعده هنرى الخامس (١٤١٣ – ١٤٢٢م) ثم هنرى السادس (١٤٢٢ – ١٤٦١م) الذى حدثت فى عهده انقسامات وحروب على اقتسام الملك ، حتى تولى إدوارد الرابع الحكمة سنة (١٤٦١ – ١٤٨٢م) .

علـى أن سياسـة إدوارد الرابـع (١٤٦١ – ١٤٨٣) سـرعان ما أدت إلى قيام ثورة انتهت بطرده من البلاد ، وهكذا أضحت إنجلترا وأحد ملوكها فى السجين والثانى طريداً فى المنفى وعلى الرغم من عودة هنرى الســادس إلــى العـرش لمـدة قصـيرة ، إى أن إدوارد الرابــع اســتطاع أن ينتصر على خصومه فقتل هنرى السادس وحل محله فى العرش ، وقد قبض إدوارد الرابع بعد ذلك على زمام الأمور بيد من حديد حتى حقق لإنجلترا قسطاً وافراً من الطمأنينة والنظام كانت فى أشد الحاجة إليهما .

ريتشارد الثالث وقيام أسرة تيودور :

عند وفاة إدوارد الرابع كان أبناؤه صغار السن فتولى الوصاية عليهم عمهم ريتشارد الذى لم يلبث أن انتزع العرض لنفسه متخذاً لقب ريتشارد الثالث (١٤٨٣ – ١٤٨٥) ، وقد دأب الكتاب الذين عاصروا حكمه على تشويه سمعته فوصفوه بالقسوة والعنف ونسبوا إليه كثيراً من الجرائم والأعمال الوحشية ، ولكن يبدو من دراسة أحوال المملكة عندئذ أن نسبة كبيرة من الشعب كانت تؤيد الملك فى مسلكه ، وأن أحوال البلاد عندئذ تطلبت منه أتباع هذه السياسة ، أما ما يقال من أنه قتل أبناء أخيه فى قلعة لندن فرواية ينقصها الدليل والإثبات ، والراجح أن أمهم دبرت خطة لتهريبهم فى الفترة الواقعة بين وفاة ريتشارد الثالث ودخول هنرى السابع مدينة لندن ، وأن الأخير هو الذى أعدمهم ليضمن عدم منافستهم له فى العرش .

وحسبنا أن خصوم ريتشارد الثالث اعترفوا بأنه إلى جانب شدته امتاز بالقدرة وأن البرلمان أصدر على عهده عدة قوانين عادلة ومفيدة ، والواقع أن هناك عدة ملاحظات على عهد ريتشارد تستحق الإشارة والاعتبار فالقوانين التى أصدرها البرلمان فى ذلك العهد صدرت لأول مرة باللغة الإنجليزية ، كما أنها صدرت مطبوعة لأول مرة ، كذلك دعم ريتشارد الثالث وظيفة ذات الأهمية البالغة للتجارة ونظم البريد بواسطة الرسل والسعادة .

علـى أن مشـكلة وراثـة العـرش اسـتمرت تسـبب حالـة مـن الاضطراب وعدم الاستقرار حتى نجح هنرى تيودور فى إنزال الهزيمة بريتشارد الثالث سنة ١٤٨٥ وبذلك تسلم هنرى السابع التاج ليصبح أول ملوك أسرة تيودور .

وبعد ، فإنه على الرغم من الحروب الداخلية والخارجية الكثيرة التى تعرضت لها إنجلترا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلا أنها أحرزت فى تلك الحقبة تقدماً كبيراً فى الميدان الحضارى ، وكانت أهم مظاهر هذا التقديم فى المجال التجارى لاسيما تجارة الصوف التى أخذ الإنجليز يبشرونها بأنفسهم فى ظل التنظيمات التجارية الجديدة ، كذلك دخلت الطباعة إنجلترا على يد كاكستون حوالى سنة ١٤٧٤ أما الجامعات الإنجليزية فقد واصلت نشاطها بفضل ما لقيته من تشجيع مستمر وبيئة صالحة ، وحسبنا ما قام به الملك هنرى السادس من تأسيس كلية الملك *King's College* وكلية المسيح *Christ's College* فى جامعة كمبردج زيادة على مدرسة أتون ، وفى تلك الأثناء لم تتوقف حركة بناء الكتدرائيات والكنائس والأديرة وفق الطراز القوطى ذى الطابع الإنجليزى الجميل ، أما اللغة الإنجليزية فقد أخذت فى ذلك العصر تستقيم فى طريقها وتستكمل بناءها ، فكتب بها شوسر قصص كانتربورى ، مما مهد للنهضة الأدبية العظيمة التى تزعمها شكسبير فى القرن التالى ، وأخيراً فإن البرلمان تمتع فى هذين القرنين – الرابع عشر والخامس عشر – بسلطة وساعة ظل الإنجليز يفخرون بها فى العصور التالية . (٩)

هوامش الفصل الرابع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٤٦٥ – ٤٦٧ .

محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤١٦ ، ٤٢١ .

جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبة ، جـ ١ ، ص ٧٠٦ – ٧٠٨ .

وعن معركة هيستنجز انظر :

جوزيف داهموس : سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ، ترجمة : محمد فتحى الشاعر ، ص ٧٩ – ١٠٣ .

(٢) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٤٩٤ – ٤٩٦ .

محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٣ – ٢٤٧ .

جوزيف داهموس : المرجع السابق ، ص ٢١٢ – ٢١٤ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٦٧ – ٤٦٩ .

محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص

دول ديوانت : قصة الحضارة ، مجـ ٨ ، ص ١٨٢ – ١٨٧ .

جوزيف داهموس : المرجع السابق ، ص

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٩٦ – ٧٠٧

وعن قوانين وليم الفاتح :

السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٤١٥ –٥١٦

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ،

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ،

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٨٧ .

(٤) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٢٥١ – ٢٥٥ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٠ – ٤٧٣ .

جوزيف داهموس : المرجع السابق ، ص ٢٠٧ – ٢٢١ .

دول ديوانت : قصة الحضارة ، مجـ ٨ ، ص ١٨٧ – ١٩٨ .

(٥) السيد الباز العرينى : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٥٠٧

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

محمد عبد الشافى المغربى ، آسيا الصغرى فى العصور الوسطى ،

وانظر عن ريتشارد الأول :

معظم مراجع ومصادر الحروب الصليبية .

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٤٧٣ – ٤٧٦ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ – ٢٦٣ .

جوزيف داهموس : المرجع السابق ، ص ٢١٤ – ٢١٦ .
فشر (هـ.أ.ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ – ٢٩٧
دول ديوانت : قصة الحضارة ، مجـ ٨ ، ص ١٩٣ – ٢٠٣ .

(٧) جوزيـف نسـيم يوسـف : تـاريخ العصـور الوسـطى الأوروبيـة وحضـارتها ، ص ٢١٦ – ٢١٨ . سـعيد عبـد الفتـاح عاشـور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٧ – ٤٧٨ محمود سعيد عمران : المرجـع السـابق ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ . السيد البـاز العرينـى : المرجع السابق ، ص ٥١٠ – ٥١٢ .

(٨) جوزيـف نسـيم يوسـف : تـاريخ العصـور الوسـطى الأوروبيـة وحضارتها ، ص ٢١٨ – ٢٢١ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧٨ – ٤٨١ . محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .
فشر (هـ. أ. ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ – ٣٠٠

(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٤٨٥ – ٤٨٩ .

© sa2eh.com

تدريبات على الفصل الرابع

السؤال الأول: **ظلل في شيت الإجابة** *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة**

و ظلل*False* ● **إذا كانت خاطئة**

١-اثار قتل هنري الأول لتوماس بكت رئيس أساقفة كانتربوري الشعور العام الإنجليزي.

٢--نجح النورمان في غزو إنجلترا في النصف الثانى من القرن الحادي عشر الميلادي

السؤال الثالث: **السؤال الثاني**: **تخير الإجابة الصحيحة من بين الأقواس ثم قم بتظليلها** ● **في شيت الإجابة**

١-أعتلى هنري الأنجوى عرش إنجليترا عام.......

(أ. ١١٥٠م-ب.١١٥٢م-.١١٥٤م-د.١١٥٦م)

٢-انتصر النورمان على الإنجليز في معركة هاستنغيز في القرن

(الحادى عشر- الثانى عشر- الثالث عشر- كل الإجابات السابقة غير صحيحة)

الفصل الخامس
أوروبا والمغول

أهداف الفصل الخامس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف علي المغول ونشأتهم وعلاقتهم بالغرب الأوروبي خلال العصور الوسطي

ظهر لفظ المغول كعلم على إمبراطورية وأسرة لأول مرة فى أيام جنكيز خان (ت ١٢٢٧) ، ثم استعمل هذا اللفظ بعد ذلك اسماً لأمة ، ولقد كان المغول الذين زلزلوا البلاد الواقعة بين الصين وبحر الأدرياتيك فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، يذكرون فى المصادر الإسلامية والروسية والغربية المعاصرة باسم التتار ، بل لقد كان المغول قبل جنكيز خان يسمون أنفسهم بهذا الاسم ، وقد وردت كلمة التتار فى نقوش أورخون سنة ٧٣١ اسماً لشعب . (١)

أما المغول فقد ظلوا حتى القرن الثانى عشر لا يحتلون سوى مكانة ضئيلة فى التاريخ العام باعتبارهم رعاة رحل يقطنون فى المنطقة التى أخذت عنهم اسم منغوليا أو بلاد المغل ، بعيداً على التيارات الحضارية الكبرى فى العالم ، ولكن شاءت الظروف أن يتولى حكم كبرى قبائلهم سنة ١١٧٥ فتى – هو الذى عرف فيما بعد باسم جنكيز خان (الخان الأعظم) – خلد اسمه فى قائمة كبار الغزاة المحاربين الذين شهدهم التاريخ ، ومهما تكن أسباب الغزوات الواسعة التى قام بها المغول تحت قيادة جنكيز خان ، وسواء كانت هذه السباب ترجع فى جوهرها إلى عوامل طبيعية مثل زيادة السكان ونقص الأقوات وضعف المرعى ، أو غير ذلك من العوامل ، فالمهم هو أن جنكيز قضى ثلاثين عاماً فى قتال عنيف حتى جعل من نفسه سيداً مطلقاً على جميع قبائل المغول ، فضلاً عن قبائل الأتراك فى مناطق الأستبس الشمالية ، الأمر الذى مكنه من استئناف الغزو – خارج نطاق المغول – على مقياس أوسع ، وكان أن غزا جنكيز خان إمبراطورية الصين فيما بين سنتى ١٢١٠ ، ١٢١٦ ، ثم اتجه غرباً فأخضع جرخانات *Gur Khans*

تركستان الشرقية ، وفى سنة ١٢٢٠ جاء دور أتراك خوارزم الذين كانوا قد فرغوا عندئذ من فتح بلا فارس بأكملها فخضعوا جميعاً لقوة جنكيز خان وإن ظلوا يبدون بضع المقاومة حتى سنة ١٢٣١ ، ومن الخطأ أن نرجع انتصارات جنكيز خان إلى كثرة رجاله فحسب دون أن نعمل حساباً لمهارة المغول فى الفروسية واستخدام الخيل فى الحرب ، فضلاً عن براعتهم فى التكتيك الحربى واستعمال العدد الحربية بطريقة لم تعرفها بقية الجيوش التى اصطدم بها المغول فى ذلك العصر .

وكان حريم جنكيز خان يتألف من خمسمائة امرأة وعدد لا حصر له من الأبناء ولكن برز من جميع هؤلاء أربعة قاموا بالمهام الرئيسة فى دولة أبيهم ثم خلفوه فى اقتسام إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته سنة ١٢٣٧ ، ويهمنا من هؤلاء الأبناء أوكتارى الذى خلف أباه فى زعامة إمبراطورية المغول وتولى منصب الخان الأعظم بإجماع الآراء ، وتولى (تولوى) الذى كان نصيبه الجزء الغربى من إمبراطوريى المغول شمالى بحر قزوين وهى القبائل المغولية التى سميت بالقفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبى الذى امتازت به مخيماتهم ، ولكن تولى توفى فى السنة نفسها قبل أبيه فقسمن أملاكه بين أبنائه الأربعة عشر وظهر من هؤلاء الأبناء الابن الثانى باطو الذى نادت به قبائل القسم الغربى من المملكة – غربى نهر الفولجا – خاناً عليهم ولم يلبث أن قام باطور بغزوات واسعة النطاق فى روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا ، مما ترك أثراً كبيراً فى التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى ففى تلك الفترة بين سنتى ١٢٣٧ ، ١٢٤٠ اجتاح المغول مكل الإمارات الروسية وأخضعوها وألزموها بدفع الجزية ، بعد أن أحرقوا عدة مدن مهمة مثل

مدينـة موسكو التـى نسـمع عنهـا للمـرة الأولـى فـى التـاريخ خـلال هـذه الأحداث ، وفى سنة ١٢٤١ اتجهت جيوش المغول نحو بولندا وهنغاريا فانقسم الجيش المغول إلى قسمين أحدهما قضى على مقاومة البولنديين وأنزل بهم الهزيمة فى ليجنتز *Liegnitz* ثم اخترق مورافيا ليلحق بالسقم الرئيسى الذى كان تحت قيادة باطو نفسه والذى حطم قوة الهنغاريين عند مـوهى *Mohi* واحتل كل بلادهم ، هـذا فـى الوقت الـذى قامت بعض جموع المغول بتدمير الصرب والبلغار بحيث لم ينقذ أوروبا من المغول عندئذ إلا وفـاة أوكتـاى – خـان المغول الأعظـم – ممـا اسـتدعى عـودة باطو شرقاً إلى مركز المغول فى جوف آسيا للاشتراك فى انتخاب زعيم جديـد ، وهكـذا تـم إنقـاذ بقيـة غـرب أوروبـا نتيجـة لانشـغال المغـول بأوضاعهم الداخلية وعدم تمكنهم من معاودة الهجوم على غرب أوروبا أما بخصوص البلاد الأوروبية التى دمرها المغول فقد استطاعت بولندا وهنغاريا بسرعة نسبية من الضربة التى نزلت بهما فى حين ظلت روسيا – بحكم موقعها المتطرف شرقاً – ما يقرب من قرنين تحت وطأة القبلة الذهبية فى عزلة تامة عن التاريخ الأوروبى .

© sa2eh.com

أما إيلخانات فارس فقد أغار زعيمهم هولاكو على العراق وأسقط الخلافة العباسية فى بغداد سنة ١٣٥٨ ، ثم تقدم للإغارة على أطراف الدولـة المملوكيـة فـى الشـام ، لولا أن نجح سلاطين المماليك فى إيقاف المغول عند حدودهم بعد أن أنزل بهم السلطان قطز الهزيمة فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وفى الوقت نفسه بسط هولاكو سيطرته على سـلاجقة الـروم فـى آسيا الصـغرى وبـذلك تكـون إمبراطوريـة المغـول قد بلغت أقصى اتساعها عند نهاية القرن الثالث عشر على أن دولـة مغول

فارس لم تلبث أن تفتتت بعد قليل وانقسمت بين عدة زعماء حتى اعتنق هذا الفرع من المغول الإسلام أسوة بأقربائهم مغول القبيلة الذهبية وإن كانت هذه الخطوة لم تتم إلا بعد أن أفسدوا البلاد التى نزلوا فيها فساداً صعب إصلاحه .[٢]

أولاً : غزو روسيا :

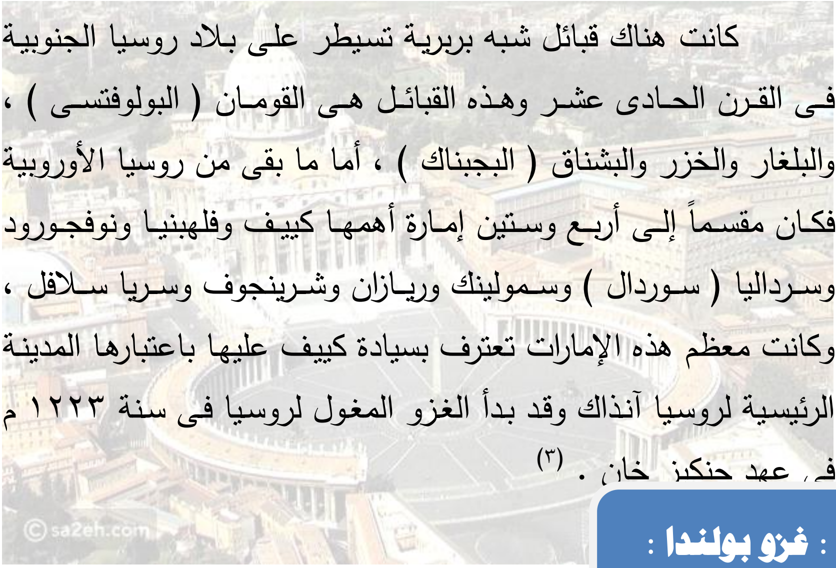

كانت هناك قبائل شبه بربرية تسيطر على بلاد روسيا الجنوبية فى القرن الحادى عشر وهذه القبائل هى القومان (البولوفتسى) ، والبلغار والخزر والبشناق (البجبناك) ، أما ما بقى من روسيا الأوروبية فكان مقسماً إلى أربع وستين إمارة أهمها كييف وفلهينيا ونوفجورود وسرداليا (سوردال) وسموليتك وريازان وشرينجوف وسريا سلافل ، وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كييف عليها باعتبارها المدينة الرئيسية لروسيا آنذاك وقد بدأ الغزو المغول لروسيا فى سنة ١٢٢٣ م فى عهد جنكيز خان .[٣]

ثانيا : غزو بولندا :

بعد أن أتم المغول غزو روسيا فى سنة ١٢٤٠ اقتسمت جيوشهم إلى قسمين ، زحف أحدهما شمالاً إلى بولند بقيادة بأيدر بن أوكتان ، على حين تسلق القسم الثانى بقيادة باطو نفسه جبال الكربات وهاجم المجر .

أما فيما يتعلق ببولند فقد ظهرت فى القرن العاشر الميلادى ، ويعتبر بولسلاف الأول (٩٩٢ – ١٠٢٥) المؤسس الحقيقى لدولة بولندا فهو الذى وحد القبائل البولندية بزعامته ومد نفوذه إلى بومرايينا وسليزيا ومورافيا وكراكاو ، واستطاع قبيل وفاته أن يجعل نفسه ملكاً على بولند ، ويعد بولسلاف الثالث (١١٠٢ – ١١٣٩) من أعظم ملوك بولندا ، فقد أوقف الزحف الألمانى على بلاده ، وأتم تنظيم مملكته ، بيد أنه لكى يجنب مملكته ويلات التنازع بين أبناء الأسرة المالكة ، قسمها بين أولاده إلى خمس إمارات وهى سيليزيا وبولندا العظمى وماسوفيا وساندومير وكراكاو ، وجعل مدينة كراكاو عاصمة للمملكة ، وجعل حق اعتلاء العشر لأكبر أعضاء أسرته سناً ، على أن هذا الترتيب لم يؤد إلى اجتناب التنافس بين أبناء الأسرة المالكة ، بل بدء عهداً من التفكك والضعف باتت فيه السلطة الملكية شبه معدومة حتى سنة ١٣٠٥ ، الأمر الذى ترك البلاد فريسة سهله لأعدائها وخاصة المغول .

وعلى أية حال استطاع جيش بايدر فى فبراير سنة ١٢٤١ أن يجتاز نهر الفستولا ، وقد تجمدت مياهه ، وقام بنهب ساندومير وأحرقها وفى ٢٤ مارس تحولت مدينة كراكاو القديمة الشهيرة إلى كومة من رماد ، بعد أن فر سكانها إلى الغابات والأحراش ، وهرب أيضاً الأمير البولندى بولسلاس الرابع على اثر هزيمة لاجئاً إلى مورافيا ، ثم عبر المغول نهر الأودر بالقرب من مدينة راتبور *Ratibor* ، واندفعوا إلى مدينة برسلاو ، وحاصروا قلعتها بضعة أيام ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها ، وقاموا بتخريب ضواحى المدينة ، وفى الثامن من أبريل وصل الجيش المغول قرب مدينة ليجنتز *Lieghitz* ، وفى تلك المدينة كان

الدوق البولندى هنرى سيلزيا يقود جيشاً ضخماً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل ، من البارونات والنبلاء والفرسان من سيليزيا وبولندا ، وجماعات من مدينة جولدبرج ، وقوة من فرسان منظمة الداوية ، كما أسرع إلى نجدته دوف أوبلن وحاكم مورافيا وفرسان التيوتون ومنظمات حربية أخرى ، هذا فى الوقت الذى وقف الدوق هنرى فى انتظار أخى زوجته ملك بوهميا فنسسلاوس الأول (١٢٤٠ – ١٢٥٣) ، الذى كان يجتاز سيليزيا وقتئذ فى طريقه إلى ليجنتز على راس خمسين ألف مقاتل . [٤]

وما ان علم المغول عن طريق جواسيسهم باقتراب جيش بوهيمى قوى من ناحية الجنوب الغربى لتعزيز موقف الدوق هنرى ، حتى قرروا شن هجوم على الدوق قبل أن يصل هذا الجيش ، وكان الدوق هنرى قد جمع كل قواته خلف أسوار ليجنتز ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن بقاءه فى هذا الموضع يجعله عاجزاً عن نشر قواته أمام العدو ، فى الوقت الذى لم يعرف فيه بالتحديد وقت وصل الجيش البوهيمى للانضمام إلى قواته ، وعندئذ رأى أن يستعد لمواجهة الهجوم المرتقب من جانب المغول فى مكان مفتوح يتيح له حرية الانطلاق والحركة ، فبادر بنقل قواته خارج ليجنتز قبالة الاتجاه الذى يتوقع منه مجئ ملك بوهيميا على رأس قواته لنجدته ، وذلك فى السهل الواسع الذى أطلق عليه فيما بعد اسم فاهلشتات *Wahlstatt* (أى مكان المعركة) ، وفى هذا السهل باغت الجيش المغولى هنرى بهجوم كاسح فى التاسع من أبريل سنة ١٢٤٢ .

وكان أول ما فعله المغول عند نشوب المعركة أن أطروا قوات هنرى بوابل سهامهم التى برعوا فى تصويبها وعندئذ هاجم فرسان هنرى بمعداتهم الثقيلة جموع المغول ، وحدث اشتباك قصير عمد فيه المغول إلى التظاهر بالانسحاب والتقهقر ، وهى خدعة حربية دأبوا على تنفيذها فى حروبهم للإيقاع بعدوهم فى كمين يعدونه له ، مما يدل على مهارتهم فى التكنيكات الحربية ، وصح ما توقعه المغول ، فقد ترك فرسان هنرى معسكرهم لمطاردة المغول والقضاء عليهم وبذلك يكونوا قد ارتكبوا خطأ كبيراً إذا فجأة ظهرت فرقة من المغول على ظهور خيولهم السريعة قطعت عليهم طريق الرجعة مما جعلهم يقعون فريسة سهلة فى أيدى المغول ، فأجهزوا عليهم جميعاً وحولوهم إلى كومة من الأشلاء ، وقد تراوح عدد الضحايا بين ثلاثين وأربعين ألف قتيل كان فى مقدمتهم الدوق هنرى الذى حاب بشجاعة فائقة ، وطبقاً لعادة المغول الوحشية قاموا بقطع آذان ضحاياهم ووضعوها فى تسعة أكياس أرسلوها لباطوا تذكارا للنصر ، كما قطعوا راس الدوق هنرى وحملوها على راس حربةى خارج أسوار ليجنتز دليلاً على ما بلغوه من قوة وباس . وعندما وصلت أخبار الكارثة التى لحقت بالبولنديين وحلفائهم فى ليجنتز إلى مسامع فنسسلاوس الأول ملك بوهيما ، وكان على مسافة خمسين ميلاً من ليجنتز تملكه الجزع والرعب وأحس بعجزه عن التصدى للمغول فانسحب راجعاً .

هذا وبعد يومين من معركة فاهشتات وبينما كان النيران لازالت مشتعلة فى ليجنتز وصلت الأخبار من باطو تفيد بنجاحه فى سحق قوات بيلا الرابع ملك المجر (هنغاريا) وطلب إلى بايدر أن يلحق

بـه وعندئذ أوقف بايدر تقدمه غرباً وتحرك جنوباً صوب المجر بعد أن اجتاز مورافيا لينضم إلى الجيش الرئيسى الذى كان تحت قيادة باطو نفسه .

وهنا نلاحظ أن المغول لم يخضعوا بولندا لسيطرتهم المباشرة إذ تركوها بعد سنة من غزوها فى حين أنهم على العكس من ذلك – كما رأينا – استقروا فى روسيا لمدة قرنين واشتهروا باسم مغول خانية القبجاق أو باسم مغول القبيلة الذهبية والواقع أن هؤلاء المغول لم يتركوا لجارتهم بولندا فرصة العيش فى هدوء ، فقد دأبوا على شن غاراتهم عليها ونهبها حتـــى أنهـــم أحثـــوا بهـــا مـــن الخـــاب فـــى غـــارة واحدة سنة ١٢٥٩ ما هو أشد واعنف مما أحدثوه بها خلال غزوهم بها من الحراب فى غارة واحدة سنة ١٢٥٩ ما هو أشد وأعنف مما أحدثوه بها سنة ١٢٤١ ، وقد شهدت بولندا خلال الخمسين سنة التى أعقبت هذا التاريخ أحلك فترة فى تاريخها وعلى وجه الخصوص فـى عهـدى بولسـلاف الخـامس (١٢٤٣- ١٢٧٩) ولـزك الثـانى (١٢٧-١٢٨٨) ، حيـث لـم تتوقـف غـارات المغـول المخربـة علـى أراضيها ومدنها . [٥]

© sa2eh.com

ثالثاً : غزو المجر (هنغاريا) :

يجدر بنا قبل أن نستعرض الأحداث الخاصة بالغزو المغولى للمجر أن نشير إلى الكومان ، وذلك لتداخل تـاريخهم فـى تـاريخ هذا البلـد خـلال الفتـرة التـى نحـن بصـددها ، وهـؤلاء القومـان هـم التـرك

الوثنيون ، الذين ينزلون البرابرى الروسية الواسعة بين الدينير والدينستر ، وهـم أيضـاً القفجـاق وهـم مـن العناصـر التركيـة التـى نزحـت مـن أواسـط آسـيا وأقامـت فـى سـهول روسـيا الجنوبيـة بعـد البشـناق (البجنـاك) والغـز ، ولـم يظهـروا إلا بعـد القـرن العاشـر المـيلادى وقـد عرفـوا فـى اللغـة اليونانيـة باسـم *Koumanoi,Komanoi* وفـى اللاتينيـة *Comani Comani* ، وأطلـق علـيهم المجريـون اسـم *Kun* ، بينما اشتهروا فى الحوليات الروسية بسلام بولفتس *Plovtsy* . (٦)

ومما يذكر أنت زعيم القومان كوتيان (كوتونى) وهو الذى قدر لـه أن يبقى حيا بعد مذبحة كلكا فى ٣١ مايو سنة ١٢٢٣ قد علم أن المغـول بقيـادة بركـة يحشـدون قـواتهم سـنة ١٢٣٨ فـى منطقـة البـرارى بجنوب روسيا لإخضاع بقية المناطق التى يسكنها القومان وكان كوتيان مـع قومـه آنـذاك يشـغلون المنـاطق الخصـبة الواقعـة فـى شـمال البحـر الأسـود وخشـية أن يقـع فـى أيـدى المغـول بـادر بـالفرار غربـاً ومعـه كـل محاربيه وزوجاتهم وأطفالهم وخيامهم وعرباتهم المغطاة ولم يلبث أن عبر الـدنيبر والدنيسـتر واجتـاز بيسـارابيا وغاليسـيا إلـى أن وصـل إلـى جبـال الكربـات ومـن هنـاك أنفذ سفارة إلى بيلا الرابع ملك المجر (١٢٣٥ – ١٢٧٠) يطلـب الإذن بـدخول بـلاده فـى مقابـل اعتناقـه المسـيحية الكاثوليكية هو وقومه .

ولاشك أن العرض الى قدمه كوتيان كان مغريا حتى لم ير الملك بيلا الرابع بدأ من قبوله إذ يعنى ذلك تحويل عقيدة مائتى ألف وثنى إلى المسيحية الأمر الذى يعزز كنيسة المجر الكاثوليكية ويرفع من شأنها ، هذا إلـى أنـه كـان تحـت أيـدى كوتيـان أربعون ألـف محـاب علـى أهبـة

الاستعداد لتقديم ولائهم للملك بيلا وبإمكانه أن يتخذهم عوناً له فى نزاعه ضد البارونات والنبلاء الذين كانوا حجر عثرة فى سبيل تقوية سلطته الملكية وبناء على ذلك رحب بيلا بدخول القومان سهول المجر الغنية وبدا فى تعميدهم على الكاثوليكية ، ولكن القومان الذين ألفوا حياة الرعى والتنقل والترحال فى مناطق البرارى الواسعة لم تعجبهم ظروف البيئة الجديدة وضاقوا ذرعاً بها ومما يذكر هنا أن القومان اصطدموا بجيرانهم الفلاحين فقد اعتدوا على نساء الفلاحين وألفت قطعانهم محاصيل القمح ودفعتهم الحاجة للحصول على الطعام إلى الإغارة على ممتلكات الفلاحين . ونتيجة لذلك استغل البارونات الفرصة لصالحهم فأعلنوا سخطهم وغضبهم فى أنحاء البلاد وطالبوا بطر القومان من أراضيهم رغبة فى تقليص السلطة الملكية والإبقاء على نفوذهم .

وفى تلك الثناء تواترت الأخبار باقتراب حجافل المغول من حدود المجر وما أن وصل المغول إلى هذه الحدود حتى أوفدوا من قبلهم رسولاً لبيلا الرابع ملك المجر وكان هذا الرسول إنجليزياً سبق له أن ارتكب جرما فى وطنه دفعه إلى الهرب بعيداً خشية أن يقع فى أيدى العدالة فشق طريقه إلى آسيا الوسطى والتحق بخدمة المغول ، وعلى أية حال طلب الرسول من بيلا أن يسلمه القومان الذين كانوا " عبيداً للمغول " ، كما طلب منه الاعتراف بسيادة خان المغول الأعظم " الذى منحته السماء كل أرجاء الأرض ملكاً له " وأن يقدم له الجزية وهدايا ثمينة اعترافاً بطاعته ، ولكن ملك المجر اعتبر دفع الجزية لزعيم من الرعاة عملاً مشيناً لا يليق به ولذلك قابل مطالب المغول التى حملها الإنجليزى إليه بالرفض القاطع .

وفـى هـذا الوقـت العصـيب الـذى كـان بـيلا أشـد حاجـة إلـى الاستعانة بقوة القومان وأعدادهم الضخمة لدفع المغول عن بلاده فقد بيلا هذه القوة ذلك أن العامة فى المجر بتحريض من البارونات قاموا بقتل كوتيـان زعـيم القومـان وكبـار رجالـه بعـد أن وجهـوا إلـيهم تهمـة جلـب أعدائهم المغول إلى بلادهم ولكن القومان لم يسكتوا على مقتل زعيمهم وصمموا على الانتقام من المجريين فاشتدت إغارتهم على المزارع والقرى وقتلوا كل من وقع فى أيديهم ، ثم كان أن ساقوا معهم ماشيتهم واتجهوا جنوباً إلى بلغاريا وقد خربوا ونهبوا المناطق الواقعة فى طريقهم ، حدث هذا فى الوقت الذى لم يكترث كثير من النبلاء والبارونات بجهود الملك الرامية إلى حشد المقاومة وتنظيمها لمواجهة المغول ، وبغض النظر عن الأسـاقفة الـذين وضـعوا أنفسـهم فـى خدمـة الملـك فـإن عـدداً قلـيلاً مـن البارونات هم الذين وضعوا قواتهم تحت تصرفه .

وعلـى أيـة حـال فـى ربيـع سـنة ١٢٤٢ كانـت الجمـوع المغوليـة بقيادة باطو وسبوتاى قد توغلت فى بلاد المجر حيث نفذت إليها فى ثلاثة جيوش الأول بقيادة شيبان نفذ إليها من جهة الشمال بين بولونيا ومورافيا ، وجاء الثانى وهو الجيش الرئيسى بقيادة باطو من غاليسا ، أما الجيش الثالث بقيادة قدان وبورى فقدم من مولدافيا ، وعندما وصلت الأخبار إلى بيلا الرابع بتقدم المغول فى بلاده ، أسرع إلى جبال الكربات وسد ممراتها بالأشجار المقطوعة لتعوق تقدمهم وعهد بحراستها إلى أحد أنصاره الأكفاء ثم دعا مجلس الريخستاج *Reichstag* للانعقاد فى بودا للتداول فى الأمر وفى ذات الوقت أمر بدعوة جميع الرجال الصالحين للخدمة العسكرية بحمل سلاحهم دفاعاً عن المجر .

وحدث قبل أن ينافس الريخستاج وسائل المقاومة والدفاع أن علم بيلا فى ١٠ مارس سنة ١٢٤١ أن المغول يتأهبون لمهاجمة ممرات جبال الكربات ، وقبل أن يرسل الإمداد إلى هناك لتعزيز دفاعاته ، وصلته أخبار سيئة مفادها أن المغول بقيادة باطو اجتاحوا ممر فيريك بعد أن أجبروا حاميته على الاستسلام ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بذبح أفرادها حتى أنه لم ينج منهم إلا قلة ضئيلة بصعوبة وكان أن وصل المغول ١٥ مارس إلى أسوار مدينة بست *Pest* على بعد خمسة كيلومترات من أسوارها بعد أن قطعوا مائتى ميل على ظهور خيولهم فى ثلاثة أيام واحرقوا ودمروا الأقاليم الواقعة فى طريقهم وسرعان ما تجمعت الجيوش المغولية الثلاثة فى ١٧ أبريل أمام بست حيث حشد فيها ملك المجر جيوشه المؤلفة من الماجيار والكرواتيين وفرسان الداوية الفرنسيين والألمان والإيطاليين فضلاً عن متطوعين آخرين ، ومما هو جدير بالملاحظة أن بيلا أقام معسكره فى مروج موهى *Mohi* الواقعة على ضفاف نهر سايو أحد روافد نهر ثيس وهذه المرودج تمتاز بأنها سهل فسيح مفتوح من جميع الجهات ، وقد اختارها بيلا لكى يكشف تحركات عدوه فى الوقت الذى أحاط معسكره بسياج من العربات ربطها معاً بإحكام كحاجز ضد العدو . (٧)

أما المغول فقد نزلوا على الضفة الأخرى لنهر سايو قبالة معسكر المجريين ولما كانت الضرورة الحربية تحتم عليهم عبور هذا النهر فقد عزموا على عبوره فوق الجسر الوحيد المقام عليه أثناء الليل وما أن علم بيلا بذلك حتى أسرع إلى إرسال كولومان شقيقه وأوجولينوس رئيس الأساقفة على راس قواتهما إلى راس الجسر حيث نجحا فى صد

محاولة قام بها المغول لعبور النهر ثم عادا إلى معسكرهم بيد أن المغول لم يلبثوا أن عبروا النهر بعد أن أقاموا جسر مؤقتاً على وجه السرعة وسرعان ما طوقوا المعسكر المجرى وكان اللقاء عنيفاً بين الفريقين فقد ظل المغول يضربون المعسكر المجرى بشراسة بالسهام والنفط المشتعل والأحجار أما حلقة العربات التى كان الغرض منها الاحتماء بها فى ضربات المغول فقد كانت والعلى المجريين فقد حبستهم داخل مساحة ضيقة أحاد بها المغول واستطاعوا أن يحولوهم إلى حطام وشهدت أرض المعركة أفجع المناظر إذ أمعن المغول الذبح والقتل فى القوات المجرية بذلك سقطت مدنية بست فى أيدى الغول فى ١١ أبريل سنة ١٢٤٣ ، وعلى أية حال انتهت المعركة بالقضاء على المجريين قضاء تاماً تقريباً وقد قدر بعض المؤرخين عدد القتلى بمائة ألف وقدرهم البعض الآخر بخمسة وستين ألف . أما الإمبراطور فردريك الثانى فقد قدر خسائر المجريين فى الأرواح بما لا يقل عن جميع القوة الحربية للملكة ، أما الملك بيلا الرابع فقد فر غارباً على اثر الهزيمة القاصمة التى لحقت به وعبر الدانوب إلى المجر الغربية ومنها إلى أوستريا حيث سجنه دوقها فردريك ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية ضخمة وحصل منه على بعض الإمارات فى غرب المجر هذا وقد حاول الملك الشريد أن يجد المأوى عند الإمبراطور فردريك الثانى ، وفى نظير ذلك عرض عليه أن يصير تابعاً له ولك الإمبراطور رفض إيواءه ، وأخيراً وجد بيلا الرابع الملاذ فى جزيرة تراو *Trao* – إحدى جزر الأرخبيل الدلماش – البعيدة عن الشاطئ ، وكان من حسن حظ بيلا الرابع آنذاك أن المغول بقيادة قادان قد توقفوا عن تعقبه واقتفاء أثره إذ وصلت الأخبار لقادان بوفاة

أوكتاى خان المغول الأعظم فى ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ الأمر الذى استدعى عودة باطوا إلى قراقورم للاشتراك فى انتخاب خان أعظم جديد ، وهكذا تم إنقاذ بقية غرب أوروبا بسبب انشغال المغول بأوضاعهم الداخلية ، وعدم تمكنهم من معاودة الهجوم على أوربا ، ويرجح البعض أن المغول بعد أن توغلوا بعيداً عن أوطانهم خشوا أن يفتك بهم الجوع خاصة أنهم دمروا المدن وخربوا القرى بما فيها من حقول وبذلك نجا الجزء الغربى من أوروبا من خطر محقق كان ينتظره على أيديهم . ومن المحتمل أيضاً أن المغول رحلوا فجأة عن أوروبا بسبب طريقتهم المألوفة فى الحروب وهى إرضاء نزعتهم بنشر الرعب فى قلوب سكان البلاد خلال الغارة الأولى على حين يتركون الغزو النهائى لتاريخ لاحق ، وإن كان هذا لم يحدث فى أوروبا نتيجة لتفسخ إمبراطورية المغول وما أصابها من خلل ، ومهما يكن من أمر فقد سلك باطو الطريق إلى البحر الأسود مجتازاً بلغاريا فى ربيع سنة ١٢٤٢ ومضى فى سيره حتى بلغ مناله سنة ١٢٤٣ فى البرارى الروسية فا الحوض الأدنى لنهر الفولجا ، وفى تلك الأثناء نهبت بعض قواته ألبانيا ودلماشيا وصربيا حيث توقف المغول عن التقدم غرباً وهكذا ركعت أوروبا للمغول ودانت لهم البلاد الممتدة من البحر البلطى إلى الدانوب وتحولت مدنها إلى حطام .

ومما تجدر الإشارة إليهم أن المغول ألحقوا بالمجر خسائر فادحة فى الأرواح والحياة الاقتصادية فى الوقت الذى وجهوا ضربة قاسمة للسلطة الملكية وإزاء التخريب الشامل الذى أصاب أنحاء المجر اضطر الملك بيلا الرابع بعد عودته إلى بست المخربة إلا الإذعان لباروناته فأقتسم معهم أرضه ونفوذه وكان من الأمور الأساسية التى وضعها بيلا

فى اعتباره هو إعادة النظر فى طريقة الدفاع عن بلاده فقد سمح للنبلاء أن يشيدوا قلاعاً حصينة للدفاع عن البلاد ذلك أن القلاع الإقليمية القديمة التى كانت من المبانى الترابية لم تصمد أمام المغول فى حين أن القلاع الحجرية أفلتت منهم بسبب مناعتها ، وفى هذا الصدد أخذ بيلا الرابع يروج لبناء قلاع حجرية جديدة فى ممتلكاته ذات حصن واحد متعدد الطبقات وما لبث البارونات الإقطاعيون فى أنحاء المجر أن احتذوا حذوه فأنشأوا قلاعهم على هذا النمط مما أدى على تحصين دفاعات البلد من ناحية ونمو قوة البارونات على حساب السلطة الملكية من ناحية أخرى .

فضلاً عن ذلك عمر بيلا الرابع بست المخربة بالألمان ونقل عاصمة ملكه فى سنة ١٢٤٧ إلى بودا على الضفة الأخرى من الدانوب فى نفس العام وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المنهارة وقامت طبقة جديدة من النبلاء أعادت تنظيم المراعى والضياع الكبرى كما جاء عمال المناجم الألمان إلى أرز جيرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترانسلفانيا .

وجدير بالذكر هنا أن الغزاة المغول أثناء زحفهم على أوروبا لم يكتفوا بذبح أولئك الذين حاولوا مقاومتهم بل ذبحوا أيضاً الأهالى العزل حتى يبعثوا الخوف والرعب فى القلوب وكانت الوسيلة الوحيدة للنجاة من وحشية المغول هى الاختباء فى الغابات والمستنقعات أو الهروب على التلال ومن هنا هلك القسم الأعظم من الأهالى جوعاً ، وقد دأب المغول على إغراء الأهالى على الخروج من أماكن اختبائهم لتوفير المؤن التى تحتاجها جيوشهم فى مقابل منحهم الأمان وللأسف فإن كثيراً من الأهالى

كانت تخدعهم وعود المغول فيعودون إلى زراعة أرضهم وفلاحة حقولهم ، ولكـــن عنـــدما ينضـــج المحصـــول كـــان هـــؤلاء الأهـــالى يلقون مصيراً تعساً ونهاية أليمة على أيدى المغول ، وذلك بإجراء مذبحة فيهم واسر البعض منهم ، ومن المحتمل أن الذى دفع المغول إلى هذا السلوك الوحشى هو اهتمامهم بألا يتركوا خلفهم أعداء أثناء زحفهم غرباً

وبعد ، فإنه مهما قيل فى غارات المغول من وحشية وتخريب وأنها كانت كارثة أصابت صميم الحياة وأنها جنت على العلوم والمعارف ولاسيما الحضارة الإسلامية فإن هذه الغارات برغم ما عرف عنها من شدة كانت مجلبة لبعض الفضائل والمزايا وربما كان من مزاياها أنها كانت سبباً فى المزج بين الشعوب المختلفة المتباعدة مما نتج عنه فبما بعد تجديد العقليات التى طال ركودها وخمولها ، وكان تأثير غارات المغول وضحاً فى أوروبا فقد كانت سبباً هاماً فى حركة النهضة الأوروبية فهى التى دفعت بالأتراك العثمانيين مجاهل خراسان إلى أبواب القسطنطينية .فكانت بذلك السبب المباشر والأخير فى تحطيم الدولة البيزنطية وما نتج عن ذلك من انتشار اليونان وكنوزهم العلمية فى مختلف البلاد الأوروبية ، وقد استطاعت هذه الغارات أيضاً أن تحكم الحـــدود والحـــواجز بـــين مختلـــف الأقـــاليم والمماليـــك فمكنـــت بـــذلك لبعض الرحالة من أمثال ماركو بولو أن يجوبوا الأقطار النائية من آسيا وأن يحدثونا عن العجائب التى لم يكن من المستطاع الوصول غليها ، كما كانت أحد العوامل فى إيجاد المساواة الدينية بمساواتها بين الفقيه المسلم والقس المسيحى والاما البوذى والبخش المغولى ، وكانت هذه

المساواة الدينية قد انعدم وجودها منذ خمسة قرون أو ستة مضت قبل هذه الغارات . [٨]

على أنه فى سنة ١٢٣٨ بدأ ملوك غرب أوروبا ينتبهون إلى ما ينتظرهم من أخطار على أيدى المغول ذلك أن الإسماعيلية (الحشيشية) وقد رأوا المصير التعس الذى ابتلى به المغول جيرانهم فى الشرق الإسلامى انتبهم الرعب والفزع ولذلك حاولوا أن يؤلفوا جبهة متحدة من جميع الأقاليم المجاورة لهم لمواجهة المغول . [٩]

ومما يذكر أنه ما أم وصلت أخبار الفظائع التى اقترفها المغول فى شرق أوروبا إلى البابا جوريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) حتى بعض برسائل إلى أمراء العالم المسيحى يدعوهم فيها للقيتم بحملة صليبية ضد التتار لصد تيارهم الجارف على أننا نستشف من تلك الرسائل أن مسألة النزاع بينه وبين الإمبراطورية فردريك الثانى ، فضلاً عن الحروب الصليبية فى الشرق الأوسط ، كانا محور تفكيره الأساسى فقد جاء فيها : " أن الأوضاع المحزنة للأراضى المقدسة وأحوال الإمبراطورية الرومانية التى يرثى لها ، فضلاً عن أمور كثيرة هى كل ما يشغل انتباهنا ، وكلننا لن نأتى على ذكرها بل سننساها فى زحمة الفظائع التى ارتكبها التتار " ، ثم كان أن مات البابا جريجورى التاسع بعد معركة ليجنتز سنة ١٢٤١ ، ولم تلتقط أوروبا أنفاسها إلا بعد وفاة أوكتاى خان المغول الأعظم ، وانسحاب المغول إلى روسيا سنة ١٢٤٢ . [١٠]

أما الباب أنوسنت الرابع (١٢٤٣ – ١٢٥٤) فقد رأى انه لو تحول المغول إلى المسيحية الكاثوليكية فسوف يكفون عن مهاجمة أوروبا لأن الدين يمنعهم من ذلك ، وفى تلك الأثناء صادفت دعوة البابا إلى حملة صليبية جديدة منذ سنة ١٢٤٥ هوى فى نفس الملك لويس التاسع ونتيجة لذلك لم تقتصر أهدافها – البابا ولويس – على خدمة المصلحة الصليبية المباشرة ، بمحاولة استرجاع مدينة بين المقدس من المسلمين فحسب بل انطوت على فكرة اجتذاب المغول الوثنيين نحو مشروع حلف صليبى مغولى بمعنى أن يهاجم المغول على الشرق الوسط الإسلامى كله من الناحية الشرقية على حين تقوم الحملة الصليبية المتوقعة بهجوم على بلاد الشام من ناحية البحر المتوسط بعد أن يتفق الجانبان على خطة حربية متناسقة وبذلك يعود الصليبيون إلى ما فقدوا من البلاد منذ أيام صلاح الدين ويخلو الجو للبابوية وأحلامها لإيصال المسيحية الكاثوليكية إلى آسيا بالإضافة إلى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تحت رئاسة بابوية واحدة . (١١)

سفارة حنا بلانو كاربينى :

وقد بدأ الاتصال بين المغول والبابوية قبيل منتصف القرن الثالث عشر ففى سنة ١٢٤٥وفى أثناء انعقاد المجمع الدينى فى ليون أنفذ البابا أنوسنت الرابع سفيرين من قبله إلى خان المغول الأعظم وشعبه وزودهما برسائل تدعو المغول إلى اعتناق المسيحية ، وكان أحد هذين السفيرين هو لورنزو البرتغالى *Lorenzo of Portugal* ، وقد

تحدد له الذهاب إلى البلاط المغولى عن طريق أرمنيا وفارس ، ولكن مما يبعث على الشك أنه وصل إلى أبعد من ميناء اباس ، أما السفير الآخر وهو الراهب الفرنسيسكانى حنا بلانو كاربينى *John of Plano Carpini* فقد غادر مدينة ليون فى ١٦ أبريل سنة ١٢٤٥ على راس سفارته متخذاً الطريق البرى الشمالى ، وكان أو وصل كاربينى إلى بوهيما فاستقبله ملكها فنسسلاف (١٢٤٠ – ١٢٥٣) بترحاب وزوده بالمؤن اللازمة ، ثم وصل إلى سيليزيا حيث أعطاه دوقها بزلسلاف خطابات توصية تمكنه من المرور فى أراضيه تحت حماية السلطات الإقليمية ومن سيليزيا واصل كاربينى رحلته فاجتاز كراكاو وغاليسيا وفولهينيا ، وقبل أن يغادر فولهينيا نصحه أميرها فاسيلكو أن يحمل معه هدايا قيمة لتقيمها للمغول الذين يلحون فى طلبها باستمرار وبدونها لا يستطيع أى رسول أن يؤدى مهمته بنجاح ، فضلاً عما سيلاقيه من عنت وإهمال وبناء على ذلك اشترى كاربينى من النفقات المخصصة لسفارته فرو القندس الثمين وغيرها من جلود الحيوانات الثمينة الأخرى كما أعطاه الأهالى والفرسان ورئيس الأساقفة جلود حيوانات مختلفة مما تروق فى أعين المغول ، وعلى أية حال وصل كاربينى إلى مدينة كييف فى ٣ فبراير ١٢٤٦ بعد رحلة شاقة مضنية استغرقت عشرة أشهر وبذلك يكون قد وصل إلى نهاية العالم المتحضر حيث بدأ بعد ذلك الدخول فى عالم البرابرة الواسع المترامى الأطراف فى فصل الشتاء على الجليد .

وبعد ذلك واصل كاربينى رحلته ناحية الشرق ، وفى ٢٣ فبراير من نفس العام نصب خيمته ليلاً لينال قسطاً من الراحة وما أن لاحت تباشير الصباح حتى فاجأته ثلة مسلحة من فرسان المغول بصرخات

مدوية كالعاصفة وأحاطوا به ورفاقه ثم سألوه عن سبب مجيئه إلى بلادهم ووجهته فأجابهم كاربينى بأنه موفد من قبل البابا زعيم المسيحيين ولم يلبث الفرسان أن سألوه عن الهدايا التى أتى بها فأعطاهم بعضاً منها وكان أن ساقه الفرسان معهم عبر البرارى الواسعة التى لم يشاهد فيها كاربينى مدينة واحدة إلى أن وصلوا جميعاً فى ٤ أبريل ١٢٤٦ إلى معسكر باطو على نهر الفولجا الأدنى .

وقبل أن يدخل كاربينى خيمة باطو استقبله موظف كبير بالبلاط وحذره من مغبة عدم الركوع للقائد المغولى ، وفى حضرة باطو جرى ترجمة رسائل البابا المدونة باللغة الروسية والعربية والمغولية (الأويغورية) وعندما عرف باطو مضمون الرسائل لم يأخذ على عاتقه مسئولية الرد عليها بنفسه بل أمر كاربينى ورفاقه بالتوجه إلى منغوليا مقر الخان الأعظم كيوك (١٢٤٦ – ١٢٤٨) ويبدو أن كاربينى أحس بالقلق والخوف حينئذ إذ كتب فى تقريره قائلاً : " لم نكن نعرف إذا كنا مساقين إلى الموت أو سنبقى أحياء ، فقد أصابنا الضعف والإعياء والهزال بحيث أننا لم نستطع ركوب خيولنا إلا بصعوبة شديدة " ، وجدير بالذكر هنا أن كاربينى أعطانا صورة عن خيمة باطو فوصفها بالفخامة والروعة وعلى أبوابها وقف الحراس والموظفين وهم فى هذا أشبه بموظفى الإمبراطور (فردريك الثانى) ، وكان باطو جالسا على مرتفع من الأرض يشبه العرش وإلى جانبه إحدى زوجاته أما بقية أخوته وأولاده وكبار رجاله فقد جلسوا فى مكان أدنى منه ارتفاعاً فى منتصف خيمته الرائعة التى كانت من قبل ملكاً لبيلا الرابع ملك المجر .

وكيفما كان الأمر فقد غادر كاربينى معسكر باطو فى ٨ أبريل متوجهاً إلى معسكر الإمبراطورى برفقة جماعة منغولية لحراسته فى الطريق ، وكان باطو قد أمر قائد تلك الجماعة بالوصول إلى قراقورم دون إبطاء ، وقد استرعى انتباه كاربينى الطريقة التى كان يستخدمها المغول فى ركوب خيلهم للوصول إلى وجهتهم فى أسرع وقت ، إذا كان المغول فى كل محط يحتفظون بقطيع احتياطى من الخيول مما يتيح لهم استبدال خيولهم المنهكة بأخرى نشيطة بمعدل يتراوح بين خمس وسبع مرات فى اليوم ولو حدث فى إحدى المراحل أن عجز فرس عن مواصلة السير فإن راكبه يتركه خلفه ، هذا ويظل المسافرون المغول على ظهور خيولهم طوال النهار حتى وقوع الليل وإذا حدث أن بلغوا محطاً فى وقت متأخر عن موع تناول الطعام فليس أمامه إلا الانتظار حتى الصباح كى يجدوا ما يتبلغوا به ، الأمر الذى لم يألفه كاربينى وجعله يعانى باستمرار آلام الجوع المبرح ، وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن ماركو بولو ذكر فيما بعد أيام حفيد الخان المغولى الأعظم جنكيز خان أن السرعة التى كان المغول ينتقلون بها عجيبة إذ بواسطتها يمكن للإمبراطور أن يحصل على الأخبار من أى مكان على مسيرة عشرة أيام فى يوم وليلة ، وفى كل محط يسجل الكاتب وقت وصول كل ساع ووقت رحيله وينتظرهم دائماً جوار على أهبة الاستعداد مسرج ونشط إلى درجة يستطيعون معها أن يمتطوه فى الحال ويسابقوا الريح بأقصى سرعة ، ويبلغ هذا النظام درجة كبيرة من الدقة حتى أنه إذا اخترق السعاه مناطق عديمة الطريق فإنهم يجدون مخيمات وخيولاً تنتظرهم .

وفى المرحلة الأخيرة من الرحلة يروى كاربينى أنه عبر صحراء شاهد فيها الجماجم والعظام البشرية " ترقد فى أكوام على الأرض " واجتاز مناطق مليئة بالمدن والقلاع المحطمة وعبر ممرات جبال عالية كان الجليد يغطى قممها فى فصل الصيف كما تناهى إلى سمعه أسماء مدن وبلاد وشعوب لم تطرق على آذان الأوروبيين آنذاك وبعد رحلة شاقة قاسية وصل إلى المسكر الإمبراطورى فى منغوليا على مسيرة نصف يوم من قراقورم فى ٢٢ يوليو ١١٤٦ م حيث شهد اختتام جلسات القوريلتاى الذى اجتمع لانتخاب كيوك الخان الأعظم الجديد . (١٢)

وكان النزاع الطويل بين باطو وكيوك السبب الذى قطع الغز المغولى لأوروبا لسنتين من ناحية وتأخير انتخاب الخان الأعظم من ناحية أخرى ، فالمعروف أنه اشتد نزاع باطو أثناء الحملة الروسية مع ابنى عميه كيوك بن أوكتاى وبورى حفيد جغتاى ، فانسحبا غاضبين وعادا إلى وطنهما ورشح أوكتاى قبل وفاته فى ١١ ديسمبر ١٢٤١ حفيده شيرامون ليخلفه فى عرض إمبراطورية المغول ، ولكن شيرامون كان شاباً قليل الخبرة ولما توفى أوكتاى ولت الوصاية على العرش أرملته توراكينا خاتون ، وهى أميرة تنتمى إلى النايمان وتدين بالمسيحية وقد صممت على أن يتولى ابنها كيوك هذا المنصب فى الوقت الذى قامت بإدارة شئون الإمبراطورية حتى يستطيع ابنها العودة من روسيا ، وعلى الرغم من اعتراف الأمراء بسلطتها إلى أن يتم اختيار خان أعظم جديد فإنها لم تستطع أن تحمل أمراء العشائر المغولية بقبول كيوك إلا بعد حوالى خمس سنوات سنحت لها الفرصة خلالها التخلص من كبار الشخصيات المناوئة لسياستها ، والواقع أنه كان من أسباب القلاقل فى

إمبراطورية المغول عدم وجود قانون لوراثة الحكم فقد أدى ذلك إلى كثرة المباحثات والجدل بعد وفاة كل خان ، وكان لابد للاعتراف بالخان الجديد من أن يحضر كل أعضاء الأسرة حفل اعتلاء العرش ، ولذلك كان يعقد بهذه المناسبة القوريلتاى ، وربما انقضت سنوات بين وفاة الخان وانعقاد القوريلتاى ، وكان الحاكم طوال هذه المدة وطبقاً للتقاليد المغولية هو زوجة الخان المتوفى ، ولكن نفوذها لم يكن معترفاً به من الجميع ، بل كان بعض الأمراء فى أقاليمهم يتصرفون بوحى من أنفسهم غير عابئين بحقوقها .

وعلى أى حال ، شاهد كاربينى جلسة القوريلتاى الذى انعقد قرب قراقروم فى ١٥ أغسطس ١٢٤٦ لانتخاب كيوك الخان الأعظم ، وقد حضر القوريلتاى كل حكام الأقاليم والمماليك والمدن التابعة لإمبراطورية المغول سواء من الأماكن المتحضرة الثرية أو مناطق البرارى ، كما شهده كل أمراء أسرة جنكيز خان باستثناء باطو الذى اعتذر عن الحضور لمرضه ، لعدم رضائه عن وراثة كيوك العرش ، ويذكر كاربينى أن أربعة آلاف رسول حضروا القوريلتاى منهم من كان يحمل الجزية ومنهم من كان يحمل الهدايا الثمينة ، ومن بين الذين حضروا سلطان سلاجقة الروم بآشيا الصغرى (قلج رسلان الرابع) ، وياروسلاف أمير روسيا الأعظم ، وأمراء من الصين وكوريا ، وممثلون عن فارس وكرمان وجورجيا وحلب ، وسفارة من قبل الخليفة العباسى ، وأخرى من قبل طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) .

وبعد أن سلم كاربينى رسائل البابا إلى حاشية الخان الأعظم ، ظل وأعضاء سفارته ضيوفاً فى المعسكر الإمبراطورى فى انتظار الرد ،

وفى تلك الأثناء تقابل وتحدث مع كثير من المسيحيين النساطرة ، وكثير من أسرى المجر وروسيا الذين أجادوا لغة المغول وبفضل المعونة التى أسداها إليه أولئك الرجال استطاع أن يلم بكل شئ يتعلق بالمغول إلماماً تاماً .

وأخيراً تسلم كاربينى رد خان المغول الأعظم كيوك مختوماً بختمه فى ١٣ نوفمبر ١٢٤٦ فى الوقت الذى تلقى أمرتاً بالعودة إلى وطنه ، والواقع أم كيوك أحسن استقبال سفارة كاربينى ، وقد ساعد على ذلك كثرة عدد المسيحيين النساطرة بين مستشاريه ، غير أنه عندما اطلع على رسالة البابا التى يدعوه فيها لاعتناق المسيحية لم يسعه ألا أن يرد عليه طالباً منه الاعتراف بسيادته وأن يأتى إليه مع سائر ملوك الغرب الأوروبى ليقدموا له فروض الطاعة والولاء ويأتوه بالجزية سنوياً ، فلما عاد كاربينى إلى البابا قدم له رد الخان الأعظم المخيب للآمال ، كما رفع إليه تقريراً وافيا أشار فيه إلى أن المغول قوم لا يخرجون إلا للفتح والهدم والتخريب ، كما أوصى فى تقريره أنه ينبغى على المسيحيين أن يحاربوا المغول تحت قيادة موحدة ، وحذر من الخدع التى يمارسها المغول فى حروبهم ، وحتى لا تقع الأشياء الثمينة فى أيدى المغول نصح بإخفائها فى كهوف .

وهكذا أخفقت سفارة كاربينى فى تحويل المغول إلى المسيحية الكاثوليكية ولكنها من زاوية أخرى حققت نجاحاً أكيداً ذلك أن التقرير الذى رفعه للبابا أنوسنت الرابع أمدنا بوصف حى رائع عن حياة المغول وعاداتهم وتقاليدهم التى يضيق بنا المقام عن ذكرها ، ونكتفى بالإشارة إلى بعضها ، من ذلك أن المغولى كان له الحق فى الزواج بأكثر من

واحدة دون التقيد بعدد ما ، وقد جرت عادة المغول على الزواج من القريبات ففيما عدا الأم والابنة والأخت من أم واحدة كانوا يتزوجون من الأخوات اللاتى من أب واحد وليس الشقيقات وكذلك من زوجات الأب بعد وفاته ، هذا ويتم شراء الزوجات من آبائهن نظير ثمن باهظ ، ومن الصعب على الزوجة التى يموت زوجها الحصول على زوج آخر خاصة إذا كان ابن زوجها غير راغب فى الزواج منها .

ومنه المعروف أن السرقة عند المغولب عقابها الوحيد الموت ، ولذلك عندما اتهم أندرو دوق شيرنجوف فى روسيا أمام باطو بسرقة بعض الخيول مع أن التهمة لم تثبت عليه حكم عليه بالموت ، ومن عادة المغول أنهم كانوا يعتقدون فى الكهانة والعرافة والتنجيم والسحر ، وبناء على ذلك عندما بقد إلى بلاطهم رسل أو أمراء يلزم عليهم أن يمروا بين نارين متقدين ومعهم الهدايا التى جلبوها معهم خشية أن يكونوا قد مارسوا السحر أو أحضروا معهم سماً أو أى شئ آخر يلحق بهم الضرر وبذلك يبطل مفعولها جميعاً ، وعندما يصاب مغولى بمرض لا يرجى منه شفاء فإنهم يثبتون حربة خارج خيمته ويلفون حولها قطعة من اللباد الأسود ، ومن ثم لا يجرؤ أحد عدا أهل بيته على دخول خيمته ، وإذا اشتدت علة المريض وأوشك على الموت ينزوى عنه الجميع إذ يمنع من يحضر موته من دخول معسكر الإمبراطور أو الزعماء المغوليين قبل أنم يظهر القمر الجديد .

وقد لاحظ كاربينى أن المغول أكثر شعوب العالم طاعة لزعمائهم ذلك أنهم يتفانون فى احترام بعضهم لبعض ولا يحسد بعضهم بعضاً

ولا يتقاتلون أو يتنافسون فيما بينهم ولا يعرفون الكذب وحياتهم بسيطة بعيدة عن الترف والرفاهية ، ولا يوجد بينهم من يرتكب السرقة إلا نادراً ، ونتيجة لذلك فإنهم يتركون مساكنهم وعرباتهم دون أن يوصوها بالمزاليج وإذا حدث أن مغولى فقد ماشيته فإنها تعود إليه دون مشقة البحث عنها ، وقد جرى العرف بين المغول على اقتسام طعامهم حتى لو كان قليلاً وهم يتميزون بالصبر على تحمل الجوع ، فعندما يفرغ طعامهم ولا يجدون شيئاً يأكلونه ليوم أو يومين لا يظهرون ضيقاً وتبرما بل يندمجون فى الغناء والمرح كما لو أنهم شبعى ، كذلك لديهم القدرة على تحمل البرد القارس والحر الشديد .

هذا ، ويتألف طعام المغول من أى شئ يستطيع مضغه إذ يأكلون الكلاب واذلئاب والثعالب والخيول وقد شاهدهم كاربينى يأكلون القمل والفئران وهم لا يعيشون على الخبز أو الأعشاب والخضراوات وماشبه ذلك ، فيما عدا اللحم الذى يعتبر طعامهم الأساسى وعندما يفرغون من طعامهم يمسحون أيديهم فى طماقاتهم ، أو ينظفونها بمسحها فى الحشيش أو بشئ من هذا القبيل ، ولذلك كانت ايديهم قذرة دوماً من الدهون العالقة بها ، أما ذوى المكانة منهم فقد اعتادوا حمل قطعة من القماش ليمسحوا أيديهم بها بعد الانتهاء من أكل اللحم ، ومما يذكر أن المغول لا يغسلون ملابسهم ويعاقبون من يقوم بذلك خاصة أثناء الرعد ، وأخيراً فإنه يشربون لبن المهرة بكميات هائلة إذا توافرت لديهم ، كما يشربون لبن النعاج والأبقار والماعز والجمال . (١٣)

بعثة اسكين :

لقد سارع بعض رجال البعثة فى الطريق الشمالى عبر روسيا وربما ساروا عبر أراضى هنغاريا كما أخذ البعض الآخر الطريق إلى بلاد الشام حيث الإمارات الصليبية وبذلك أصبحت ذات فائدة للصليبيين ، وكان على راس هؤلاء أحد رجال الدين الدومنيكان ويدعى أسكلين *Ascelin* ، ومن ضمن حاشيته رجل يدعى سيمون أف سانت كونتين *Simon of Sint Quentin* صاحب كتاب تاريخ التتار الذى فقد والذى قدم لنا بعض المعلومات التى بقيت لنا فى بعض المصادر ، وعلى أية حال فقد سار أسكلين فى الطريق الجنوبى إلى المغول عبرقبرص وبلاد الإسلام ثم إلى مدينة تفليس *Tiflis* فى اشلمال حيث لحق بالبعثة راهب دومينكانى آخر يدعى جيوسكارد أف كريمونا *Cuiscard of Cremoan* ومن تفليس بدأت الرحلة التى استمرت حوالى ستة أسابيع حتى وصلوا إلى معسكر المغول الذى كان يتولى أمره القائد بياجو *Baigu* فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٢٤٧ م وكان اللقاء بين بياجو وإسكلين بعيداً عن الصداقة ، فقد كان كلاهما عنيداً ، وقد سجل لنا سيمون أحد رجال البعثة ما دار من اقتراحات قدمت من رجال حاشية بياجو وفيها : قتل اثنين من رجال البعثة ، واقتراح آخر يقضى بإعادة أسكلين إلى البابا وعلى جسده أثر الضرب بالسياط .

لم يكن بياجو راغباً فى نقل رسالة البابا إلى خان المغول بل طلب من رجال البعثة أن يواصلوا مسيرتهم إلى منغوليا وقد رفض أسكلين بشدة ، ولكن حب الاستطلاع دفعه إلى السير إلى منغوليا بمساعدة بعض البيزنطيين والأتراك من الرهبان ، تم ترجمة الرسالة من اللاتينية إلى الفارسية ثم إلى اللغة المغولية ، وقد أرسل بياجو أصل

الرســالة ومعــه الترجمــة المغوليــة إلــى عاصــمة المغــول قراقــورم *Karakourm* حيث أعدت رسـالة مغولية رداً علـى رسـالة البابا ، وقد تضمنت الرسالة رداً عنيفاً يقضى بإخضاع البابا وشعبه للمغول ، وبهذه الرسالة الحزينة عاد أسكلين ورفاقه إلى البابا فى صيف عام ١٢٤٨ م وعاد مع البعثة أيضاً مبعوثان مغوليان هما أيبك *Aybeg* وسرجيس أو سركيس *Srargis* ، لعل الأول مسلم تركى والثانى مسيحى وكان قدومها يعنى أول اتصال سلمى بين المغول وبين حكام أوروبا . (١٤)

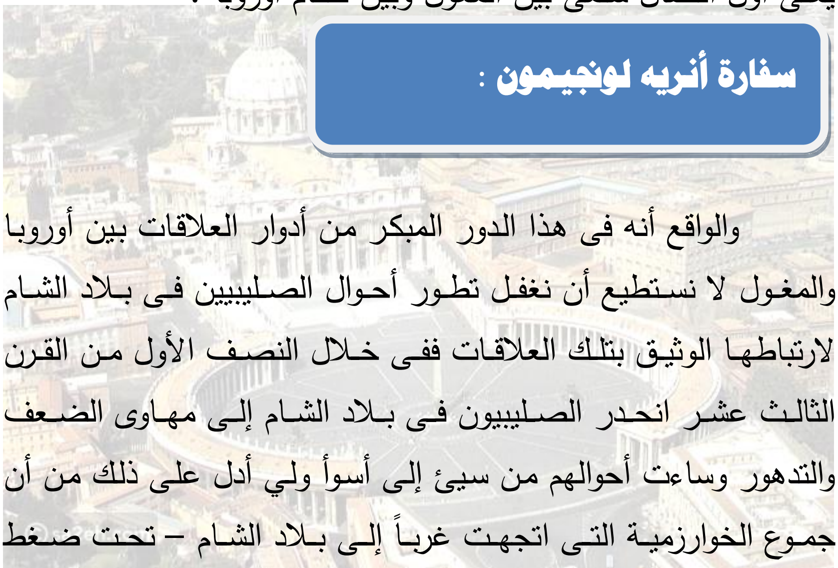

سفارة أنريه لونجيمون :

والواقع أنه فى هذا الدور المبكر من أدوار العلاقات بين أوروبا والمغـول لا نسـتطيع أن نغفل تطـور أحـوال الصـليبيين فـى بـلاد الشـام لارتباطـها الوثيـق بتلك العلاقات ففـى خـلال النصـف الأول من القـرن الثالـث عشـر انحـدر الصـليبيون فـى بـلاد الشـام إلـى مهـاوى الضـعف والتدهور وساءت أحوالهم من سيئ إلى أسوأ ولي أدل على ذلك من أن جموع الخوارزمية التى اتجهت غرباً إلـى بـلاد الشـام – تحت ضـغط المغول – اقتحمت بيت المقدس فـى ١١ يوليو ١٢٤٤ واستولت عليها فى سهولة وبذلك فقد الصليبيون تلك المدينة نهائياً ، وفى أكتوبر من نفـس العـام أنـزل الأيوبيـون – بمسـاعدة الخوارزميـة – هزيمـة سـاحقة وشـاملة بالصـليبيين عند غـزة وبعـد ذلـك أخـذ المسلمون فـى توجيـه الضربات الشديدة إلى باقى ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام .

ولاشك أن الكوارث التى توالت على الصليبيين فى الشام حملتهم على إيفاد الرسل إلى الغرب الأوروبى فى طلب النجدة والنهوض بعمل إيجابى ليساعد الصليبيين فى الشام على البقاء ولم يسع البابا أونسنت الرابع فى المجمع الكنسى الذى عقد برئاسته فى مدينة ليون بفرنسا سنة ١٢٤٥ إلا الدعوة لحملة صليبية ضد المسلمين ووعد من يحمل الصليب بالغفران التام عن خطاياه وذنوبه فضلاً عن المزايا الأخرى التى اعتاد البابوات منحها فى مثل هذه الظروف ، وكان لويس التاسع ملك فرنسا – وهو الرجل الذى عرف بورعه وتدينه – قد أصيب بمرض عضال فى أواخر سنة ١٢٤٤ فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية إذا شفى ، ولما تم شفاؤه وجد فى دعوة البابا فرصة طيبة للوفاء بنذره .

وعلى أية حال حمل لويس التاسع الصليب وأبحر من ميناء أيجمورت *Aigues Mortes* فى ٢٨ أغسطس سنة ١٢٤٨ إلى جزيرة قبرص وأرسى فى مينائها الجنوبى ليماسول فى ١٧ سبتمبر ، وفى أثناء انشغاله بإعداد الترتيبات النهائية لحملته على دمياط المعروفة بالحملة السابعة وصل إلى نيقوسيا فى ديسمبر مبعوثان نسطوريان من الموصل وهما مرقص وداود ومعهما رسالة من قبل القائد المغولى الجيغدارى نائب الخان الأعظم كيوك بآسيا الصغرى والكرج والموصل للملك لويس التاسع بعد أو وصلت أخبار مشروعه الصليبى إلى المغول . وفى هذه الرسالة التى تعتبر وثيقة بالغة الأهمية وصفت المسيحية أحسن وصف وأكدت ميل المغول الوثنيين إلى مبادئها وأنهم على استعداد للتعاون مع ملك فرنسا لتحرير كل المسيحيين من العبودية كما أشارت إلى أن كيوك لا يفرق فى المعاملة بين اللاتينى والإغريقى والأرمنى والنسطورى أو

اليعقوبى ، فالجميع لديه سواء ، فى الوقت الذى بات من المرجح أن يعتنق كيوك وكثيراً من أمرائه الديانة المسيحية ، والحق أن الغرض الأساسى من تلك السفارة هو عقد تحالف عسكرى مشترك بين الصليبيين والمغول ضد الأيوبيين فى الشام من ناحية والخلافة العباسية من ناحية أخرى ، إذ كان المغول وقتذاك يفكرون فى اجتياح العراق وبغداد وهو الأمر الذى قام به هولاكو بعد سنوات قليلة سنة ١٢٥٨ ، فأرادوا أن يحولوا دون مساعدة يقدمها الأيوبيون فى مصر والشام للخلافة العباسية عن طريق محالفة الصليبيين . ومما يؤكد ذلك ما جاء فى الرسالة المغولية ، فقد تضمنت استعداد الجيغداى لمعاونة الملك لويس فى غزو الأرض المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين . [١٥]

امتلئ الملك لويس غبطة بهذا الاتصال الذى لم يكن يتوقعه فعامل السفيرين معاملة طيبة تظهر بوضوح فى حضورهما القداس معه وبادر بإرسال سفارة مؤلفة من ثلاثة رهبان من الرهبان الدوميكان وهم أنديرية لونجيمو *Andrew of Lonumeau* وأخوه وليم ويوحنا الكاركسونى ، وقد عهد لاندريه برئاسة تلك السفارة نظراً لمعرفته باللغة العربية وخبرته السابقة ببلاد آسيا والمغول ، وسافرت هذه السفارة من نيقوسيا فى قبرص فى ٢٧ يناير ١٢٤٩ ومعها كنيسة متنقلة قرمزين اللون قماشها مطرز بآيات من الإنجيل ومخلفات دينية مسيحية وبعض الهدايا والتحف بغرض اجتذاب المغول للمسيحية ، ومما يذكر أن المندوب البابوى الذى رافق لويس التاسع فى حملته الصليبية إلى قبرص بعث برسالة مع السفارة إلى الخان الأعظم أعرب فيها عن فرحة الكنيسة الكاثوليكية بالأخبار المتضمنة قرب اعتناقه المسيحية وسوف تقبله

الكنيسة بين رعاياها المحبوبين وأسدى إليه النصح أن يكون صلباً فى العقيدة المسيحية الصحيحة ، وأن يدرك أن الكنيسة الكاثوليكية هى أم الكنائس ، وياتى على رأسها الباب ممثل الله فى الأرض ، الذى ينبغى على كل المسيحيين أن يدينوا له بالطاعة . وكان أن وصلت السفارة بطريق البحر إلى أنطاكية ومنها سلكت طريقها البرى إلى معسكر القائد الجيغدارى بالموصل ، ثم رحلت من الموصل فى حراسة جماعة من الجند المغول إلى منغوليا فى جوف آسيا ، واخيراً وصلت إلى مدينة قراقروم مقر الخان الأعظم .

وهنا يروى جوانفيل أن السفارة قدمت هداياها الثمينة إلى خان المغول الأعظم ونصبت الكنيسة القرمزية للصغيرة فى حضرته وأن كثيراً من الملوك والأمراء الذين لام يدينوا له بالطاعة بعد قد جاءو وخاطبهم بقوله : " أيها السادة لقد بعث ملك فرنسا إلينا ملتمساً عطفنا للدخول فى طاعتنا وهاكم الجزية التى أنفذها إلينا فانظروها ، فإذا لم تستسلموا لنا فإننا مرسلون فى طلبه للقضاء عليكم ، وعندئذ أعلن أكثر الحاضرين استسلامهم للملك التتارى خوفاً من الملك الفرنسى " ، ولاشك أن هذه الرواية بعيدة عن الصحة إذا المعروف أن السفارة عرفت غداة وصولها إلى قراقورم أن الخان المغولى الأعظم كيوكقد مات فى أوائل أبريل سنة ١٢٤٨ وأن أرملته أوغول قايميش تولت الوصاية على العرش ، حتى ينتهى القوريلتاى من انتخاب الخان الأعظم الجديد . والمعروف أيضاً أن الوصية استقبلت سفارة لونجيمو استقبالاً طيباً وتسلمت الهدايا التى أحضرتها كأنها جزية من الملك لويس التاسع بصفته تابعاً للخان الأعظم ولم تستطع هى بطبيعة مركزها المؤقت أن تخرج فى حديثها عن نطاق

المجاملة مع الوعد بعرض مشروع الحلف المغولى الصليبى على صاحب العرش الجديد ، وعلى أية حال بينما كان الملك لويس مقيماً فى مدينة قيسارية بعد انتهاء حملته الصليبية على دمياط بالفشل الذريع وصلت سفارة لونجيمو عن طريق حلب فى سنة ١٢٥١ بعد أن استغرقت فى رحلتها أكثر من سنتين دون أن تحقق شيئاً ملموساً سواء من ناحية تحويل المغول الوثنيين إلى المسيحية الكاثوليكية أو التعاون مع فرنسا فى مشاريعها الصليبية ، ورضى لويس التاسع بهذه النتيجة السلبية المحيرة ، وربما اقنع نفسه أن وصية مؤقتة على العرش المغولى لم يكن بوسعها القيام بشئ ولذا لم يقطع الأمل فى مفاوضات مغولية مستقبلة لعلها تكون أحسن نتيجة وأقل استعلاء من ناحية المغول .

ومهما يكن من أمر فقد أعطانا جوانفيل صورة مفيدة عن عادات وتقاليد المغول وأسلوب حياتهم تمثل تلك التى أعطاها بلانو كاربينى ، من ذلك أن المغول لا يأكلون الخبز بل يعيشون على اللحم واللبن وأحسن ما يشتهون لحوم الخيل التى ينقعونها فى ماء مملح ثم يجففونها فيمكنهم قطعها كما لو كانت خبزاً أسود ، كما أن أفضل مشروب لديهم وأقواه لين إناث الخيل بعد يعطروه بالأعشاب ، ويذكر جوانفيل أيضاً أن المغول يأكلون جميعه أنواع الحيوانات التى تنفق بالمعسكر ، أما النساء اللاتى عندهن أطفال فيشرفن على حفظ هذه اللحوم والعناية بها ، كما يقمن أيضاً بإعداد طعام المحاربين ، وهم يضعون اللحم النيئ بين سروجهم وطيات ملابسهم ، حتى إذا خرج كل ما به من دم أكلوه نيئاً ، أما ملا يستطيعون أكله بين حين وحين ، فيضعونه فى حقيبة من

الجلد ، فإذا جاءوا فتحوا هذه الحقيبة وأكلوا أولاً أقدم ما بها من قطع اللحم . (١٦)

سفارة وليم روبروك ”

لقد خاب أمل الملك الفرنسى فى السفارة التى أرسلها للمغول ، ويلاحظ أن الملك لويس كان يعانى أيضاً من المرض ومن الآثار النفسية التى حلت به بعد أسرة فى دمياط ، يضاف إلى ذلك الأمل المفقود فى الوضع السياسى الذى يحيط به ، ورغم كل هذه الظروف وما يحيط به فإن لويس التاسع كان لديه الأمل أن يتحالف مع القوات المغولية ضد المسلمين ، ثم ماتت الوصية أوغول ، وقد خلق موتها ملامح جديدة للموقف ، وقد عبر المؤرخ جوانفيل عن ذلك بأنه لم يعد هناك ما يبشر بخير وأن الملك لويس ندم على قيامه بإرسال سفارة للمغول .

وعلى أية حال ورغم فشل هذه السفارة فإن الملك لويس أرسل بعد عامين سفارة تولى أمرها راهبان أحدهما فرمشيسكانى هو وليم أف روبروك *William of Robruck* وآخر دومنيكانى هو بارثليميو أف كريمونا *Bartholomew of Cremona* فى محاولة من جانب الملك لكى يدفع المغول لمساعدة المسيحية فى بلاد الشاتم ، وقد اتجهت السفارة إلى سارتاق بن باطو المغولى الذى شاع أنه اعتنق المسيحية ، ولكن سارتاق هذا لم يكن سوى أمير مغولى صغير ليس له من القوة ما يجعله يتولى هذا الأمر الخطير وهو التحالف مع الملك لويس .

والمهم هنا أن روبروك اعتقد فى هذه الشائعة التى تفيد أن سارتاق ابن باطو قد اعتنق الديانة المسيحية وبذلك استبشر روبروك خيراً لأن تحول بعض المغول إلى الديانة كان أمراً ممكن الحدوث ، وليس لدينا من أدلة أن روبروك قد تصور إنجاز عمل يؤدى إلى التحالف بين المغول والصليبيين ولقد ذكر : " لم يكن لدى ما أقوله ولكن كلماتى كانت تتعلق بالسيد المسيح ، وقد أعلن ذلك روبروك فى بلاط مونكو ، وقد حمل روبروك خطابا مونكو على كره منه وكان فى هذا الخطاب ما يطلب فيه المغول خضوع لويس لهم .

لقد بدا من المؤكد أنه فى منتصف العام ١٢٥٠ أن الاتصال بين الغرب والمغول كان متواصلاً وإننا نعلم أن بلدوين أف هانيولت *Baldwin of Hainaut* وهو أحد الفرسان الذين كانوا فى خدمة الإمبراطور بلدوين الثانى فى القسطنطينية ، كان قد سبق روبروك إلى قراقورم ، وللأسف فإننا لا نعلم شيئاً عما تم فى رحلته ، لقد كان بلدوين قد تزوج من أميرة نفجاقية *Kuman Princess* وعن طريق هذا كان له دوراً مميزاً مع القادة الغربيين ومع الإمبراطورية المغولية ، ولقد قام الفارس بلدوين بدور واضح لدعم النفوذ الفرنسى ، ويتضح ذلك عندما سأل أحد أفراد حاشية سارتاق المبعوث روبروك عن أكبر السادة فى أوروبا فأجاب إنه الإمبراطور فردريك الثانى ، وأن سارتاق قد قام من جانبه بتويخ روبروك ، وطلب رأى بلدوين اذلى أجاب بأن هذا الشرف لا يناله إلا الملك لوي التاسع .

ومما يستحق الذكر أن كلا من بيان دال كاربابن وروبروك يعرفان لدينا بأنهما أولاً من وصلا إلى منغوليا وأنهما استخدما الطريق

الشمالى عبر بلاد القفجاق ، ولقد لعب حاكم القفجاق دوراً كبيراً كوسيط بين المغول والصليبيين والهنغاريين ، ولكن هذه الوساطة تستحق كثيراً من الدراسة المتأنية حتى تتضح جوانبها ، لقد عاش القفجاق فى أراضى تابعة للمغول ، أو تحت سيطرة الهنغاريين ، وكان لبعض منهم اتصالات مع الصليبيين فى حوض البحر المتوسط ، وقبل عام ١٢٥٤ م كان ملك هنغاريا بيلا الرابع *Bela-IV* قد زوج ابنه من أميرة قفجاقية وبعد سنوات قليلة فإن بركة خان *Berka Khan* حاكم القبيلة الذهبية قد عرض عليه التحلف ضد الغرب الأوروبى ولكن بيلا الرابع رفض هذا العرض وأعلن أن عقاب المغول سوف يحل بالنهغاريين . [١٧]

هوامش الفصل الخامس

(١) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، جـ ٢ ، ص ٤٦٥
فؤاد عبد المعطى الصياد ، (القاهرة : ١٩٧٥)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٦١٨ – ٦٢١ . محمود سعيد عمران : المغول وأوروبا ، (الإسكندرية: ١٩٩٦) جيبسون (إدوارد) : اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ترجمة :

(٣) ديورانت : قصة الحضارة ، جـ ٤ ، مجـ ٤ ، ترجمة : محمد بدران ، ص ١٥٣

(٤) محمود محمد الحويرى : العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول (١٢٢٢ – ١٢٥٥ م) ، ص ٣٠ – ٣٢ .

ول . ديوراتنت : قصة الحضارة ، مجـ٤ ، جـ٤ ، ص ١١٩

هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ، ص

(٥) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٣٢ –

سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ١، ص ٦٠٥ – ٦٠٦ . رنسيمان (ستيفن) : الحروب الصليبية ، ترجمة : د. السعيد الباز العرينى ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ .

(6) Buss: Art. Cumans, in Lexicon universal Encyclop Eadia, Vol. 5, P. 386

Art Cumans, in the Bew Ency Britt, Vol. 3, P. 289.

بارنولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١١٤ – ١١٥

محمد عبد الشافى المغربى : مملكة الخرز اليهودية وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية : ٢٠٠٢) ص ١٣١

(٧) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ٣٤ – ٣٧ .

بارتولد : المرجع السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ . السيد الباز العرينى : المغول ، (بيروت:١٩٨١) ، ص ١٨٢ .

(٨) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ٣٨ – ٤١ .

ديورانت : المرجع السابق ، مجـ ٤ ، ٢جـ ٤ ، ص ١٦٥ .

براون : تاريخ الأدب الإيرانى من الفردوسى إلى السعدى ، ترجمة : د. إبراهيم الشواربى ، (القاهرة : ١٩٥٤) ، ص ٥٦٣ .

(٩) السيد الباز العرينى : المغول ، ص ١٨٣ – ١٨٥ .

(١٠) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(١١) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ( ) ، ص ٨٣ – ٨٤ .

(١٢) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ٤٧ – ٥٠ .

هارولد لامب : جنكيز خان وجحافل المغول ، ص ١٣١ .

السيد الباز العرينى : المغول ، ص ١٨٥ .

(١٣) محمود الحويرى ، المرجع السابق ، ص ٥١ – ٥٤ .

السيد الباز العرينى : المغول ، ص ١٨٨ – ١٩٠ .

رنسيمان (ستيفن) : جـ ٣ ، ص ٤٣٥ – ٤٤٦ .

فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا ، ص ١٨٦ .

(١٤) محمود سعيد عمران : المغول وأوروبا ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩

رنسيمان (ستيفن) : جـ ٣ ، ص ٤٤٥ – ٤٤٧ .

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، (الإسكندرية ، ص ١٧١) ، ص ٢٦٠ – ٢٦٣ .

السيد الباز العرينى : المغول ، ص ١٩٠ – ١٩١ .

(١٥) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ٥٨ – ٦٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ( ) ، جـ ٢ ، ص ٩٩٥ – ١٠٠٥ . جوزيف نسيم يوسف : المرجع

السابق ، ص ٤٧ – ٤٩ . رنسيمان (ستيفن) : جـ ٣ ، ص ٤٤٧ .

(١٦) محمود الحويرى : المرجع السابق ، ٦٠ – ٦٣ .

رنسيمان (ستيفن) : جـ ٤ ، ص ٤٤٨ . محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ – ٢١٠ . محمد مصطفى زيادة : : المرجع السابق ، ص ٩٧ – ٢٥٦ .

جوانفيل : مذكرات جوانفيل – القديس – لويس – حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة : وتعليق : د. حسن حبشى ، (القاهرة : ١٩٨٦) ، ص ٢١٧ – ٢٢١ . محمود سعدي عمران : المغول وأوروبا ، ص ٢١٠ – ٢١٥

تدريبات على الفصل السا

اكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن:

١- علاقة المغول بروسيا

٢- غزو المغول للمجر

الفصل السادس
حرب المائة عام

أهداف الفصل السادس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على :

١- أحداث الصراع الإنجليزي الفرنسي

٢- مراحل حرب المائة عام(أسبابها – أحداثها – نتائجها)

ظل العداء يسود العلاقات بين إنجلتترا وفرنسا على جانبى بحر المانش منذ الفتح النورمانى لإنجلترا سنة ١٠٦٦ وذلك أن ملوك إنجلترا النورمان احتفظوا بأملاكهم الواسعة فى غرب فرنسا فى الوقت الذى عز عليهم – فى وضعهم الجديد – أن يستمروا فى حكم هذه الممتلكات باعتبارهم أتباعاً أو أفصالاً لملك فرنسا ، أما ملوك فرنسا فقد وجدوا فى تلك الممتلكات الإنجليزية على حدود أراضيهم الغربية خطراً عظيماً هدد وحدة بلادهم وكيانها وحال دون وصول الدولة الفرنسية إلى حدودها الطبيعية ، وهى المحيط الأطلسى غرباً وجبال البرانس جنوباً ونهر الراين وجبال الألب شرقاً .

وهكذا لم يهدأ ملوك فرنسا وظلوا يعملون على طرد ملوك إنجلترا من ممتلكاتهم فى صلب القارة فى حين تمسك الأخيرون بهذه الممتلكات وناضلوا فى سبيل الاحتفاظ بها مما جعل الحرب بين الطرفين لا تكاد تهدأ إلا لتشتعل نارها من جديد وذلك حتى منتصف القرن الخامس عشر ، فحرب المائة عام إذاً – وهو الاسم الذى يطلق على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين إنجلترا وفرنسا (١٣٣٧ – ١٤٥٣) – ليست فصلاً جديداً أو حدثاً مفاجئاً فى تاريخ العلاقات بين البلدين فى العصور الوسطى لأنها ليست فى حقيقة أمرها إلا حلقة من سلسلة النزاع الذى بدأ منذ أن امتلك أمراء نورمنديا إنجلترا وبعبارة أخرى منذ أن أصبحت ممتلكات ملوك إنجلترا النورمان موزعة على جانبى المانش .

وإذا كان المؤرخون قد اصطلحوا على إطلاق اسم حرب المائة عام على هذا الفصل الأخير من فصول النزاع بين إنجلترا وفرنسا فى

العصور الوسطى فإن لنا على هذه الحرب عدة ملاحظات ، أولها : أنه إذا كان السبب الرئيسى لحرب المائة عام هو النزاع حول ممتلكات إنجلترا فى القارة فقد وجدت أسباب أخرى أدت إلى إثارة العداء بين إنجلترا وفرنسا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى أهمها التنافس الاقتصادى بين الدولتين ، زيادة على تعارض مصالحهما السياسية فى القارة ، وثانيها : أن هذه الحرب كانت ذات طابع ثابت لم يتغير من أولها لآخرها من ناحية أهدافها والأساليب التى استخدمت فيها ، وثالثها : أن تلك الحرب لم تستمر مائة عام تماماً لأن هذه التسمية لا تعدو أن تكون تقريبية تنطوى على كثير من التجاوز وعدم الدقة ، وأخيراً يلاحظ أن حرب المائة عام لم تتخذ شكل قتال دائم مستمر بين الفريقين المتحاربين وإنما اتخذت شكل مصادمات متباعدة زمنياً تخللتها الهدنة والصلح أكثر من مرة .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسموا حرب المائة عام إلى ثلاث مراحل ، وذلك لتسهيل دراستها وتمييزها ، المرحلة الأولى : تمتد بين سنتى ١٣٣٧ ، ١٣٨٠ وأهم حوادثها انتصار الإنجليز عند كريس *Crecy* واستيلاؤهم على كاليه ثم انتصارهم عند بواتيه وما كان من ثورة باريس ومعاهدة بريتانى ، أما المرحلة الثانية : فتمتد من سنة ١٣٨٠ حتى سنة ١٤١٥ وتمتاز بمسحة عامة من الهدوء والسلام ، وأخيراً تأتى المرحلة الثالثة بين سنتى ١٤١٥ ، ١٤٥٣ وفيها تجددت الحرب على يد هنرى الخامس ملك إنجلترا وحليفه دوق برجنديا فانتصر الإنجليز عند أجينكورت (أزينكورت) وغزوا شمال فرنسا ، ثم عادت برجنديا إلى

محالفة فرنسا حتى انتهى الأمر بطرد الإنجليز نهائية من صلب القارة . (١)

ولا يصح أن يتبادر إلى الذهن أن هذا الصراع استمر عاماً بعد آخر إذ ما تحدث معركة حتى تتلوها هدنة ، وكان ذلك هو الطالب العام للصراع الإنجليزى الفرنسى طوال ذلك القرن حيث لم يتمكن أحد الطرفين من إلحاق هزيمة ساحقة بالطرف الآخر ، كما أن الحرب ظلت سجالاً بين الطرفين .

والواقع أن ذلك الصراع دار بين أسرة واحدة كانت تحكم إنجلترا وفرنسا ، هذه الأسرة ربطتها منذ منتصف القرن الثانى عشر أواصر المصاهرة وصلة الرحم ، واستمر هذا الرباط يتجدد حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلاد ، ولا ريب أن هذه الصلات العائلية عملات على تخفيف حدة التوتر إلى حد كبير ، وساهمت فى تقريب وجهات النظر وعملت على نجاح الجهود الدبلوماسية التى بذلتها البابوية طوال فترة ذلك الصراع حتى أن البابابوية اقترحت أن تتم مصاهرة بين فيليب الرابع وإدوارد الأول ترتب عليها زواج الثانى من شقيقة الأول ، وزواج إدوارد الثانى من ابنة فيليب الرابع ، بل أن إدوارد الأول كانت شقيقته والده فيليب الثالث ، وينتهى القرن الرابع عشر الميلاد بزواج ريتشارد الثانى من ابنة شارل السادس ملك فرنسا .

وعلى أية حال كان الصراع فى جوهره اقتصادياً سياسياً ولذلك كانت المصالح الاقتصادية تعلو على كل صلات القربى والنسب ما لم

يكن هناك ما يدعو إلى عقد هدنة بغية التقاط الأنفاس لمعاودة الصراع من جديد .

على أن هذا الصراع لم يشمل الجانب العسكرى فحسب وإنما تعداه إلى حشد وتجنيد الحلفاء والتآمر وتأليب الجيران ولذلك دخلت أطراف أخرى الصراع بإغرائها بالمال تارة ، ولاتفاق ذلك مع مصالحها الذاتية تارة أخرى . (٢)

تبدو حرب المائة عام للعقل الإنجليزى فى العصر الحاضر سلسلة من الحماقات الفاجعة ، على عكس ما بدت فى عيون أجدادهم ، وهم الذين شهدوا عصر الملك إدوارد الثالث وهنرى الخامس ، واعتقدوا أنه ليس من الغرابة فى شئ أن يطلب ملك من ملوك إنجلترا عرش فرنسا لنفسه ، أو أن يعمل على إخضاع البلاد الفرنسية لسيادته ، ولم يغضب أولئك الأجداد لإثارة تلك الحرب ، ولم يطلبوا – حين تبددت الآمال فى الانتصار – أن يستبد الملك بحكومته حكومة مسالمة ينتهى على يدها القتال ، بل غضبوا على الوزراء الذين حامت حولهم مسئولية الخيبة فى الحرب أو الإمعان فى ابتزاز الأموال ، وكان غضبهم واضحاً فى الثورتين الشعبيتين سنة ١٣٨١ م وسنة ١٤٥٠ م ، وفى أثناء تلك الحرب اجتمع البرلمان الإنجليزى فى مواعيده المقررة ، لن الملك لا يستطيع بغير البرلمان أن يحصل على الضرائب التى تتغذى من حصيلتها جيوش المملكة ، غير أن البرلمان لم يرفض الموافقة على تلك الضرائب ولم ينهض ناقد ليقول إن إنجلترا تهمل ما تحت يدها من المصالح فى الغال واسكتلندا وأيرلندا من أجل ضآلة عقيمة فى فرنسا كل ذلك لأن الحرب ضد الفرنسيين أضحت أساساً من الأسس القومية فى

إنجلترا ، وغدت فى عقول الإنجليز كأنها من المقدور المكتوب على الجبين برغم ما تخلل أدوارها من ضرائب مالية مضنية ، وربما كان بعض السر فيما لقيت هذه الحرب من هوى فى النفوس أن الإنجليز – وهم البادئون بالعدوان – ظلوا يخربون فى أرض أجنبية ، فبينما تحملت فرنسا كل رزايا الغزو ومصائبه تمتعت إنجلترا بجمع ما يجلب السلب والنهب من بلد غنى خصيب لا يفصله عن السواحل الإنجليزية سوى بحر المانش ثم إن الإنجليز تعرضوا عن عبء الضرائب التى أثقلت كواهلهم لا بنشوة الانتصار فى حرب خارجية فحسب بل بتغلغل الاعتقاد فى نفوسهم بأن الحرب تفيد التجارة ، إذ مكنت لإنجلترا بيع أصواف أغنامهم بأسواق بروج وجنت ببلجيكا الحالية ، وسهلت عليها شراء الأنبذة التى تريدها من بوردو مع إيجاد أسواق بالقارة الأوروبية لقصديرها وحديدها وجلودها ، غير أن فرنسا التى لزمها الخذلان فى تلك الحرب بدت ا،ائل القرن الرابع عشر الميلادى أمة ينبئ كل شئ فيها عن مستقبل باهر عظيم فأرضها خصبة وزراعاتها متنوعة وأهلها من الفلاحين وأبنا المدن مدبرون فى معايشهم مجدون فى أعمالهم ، وباستثناء جمهورية البندقية لم يوجد بأوروبا فى العصور الوسطى بلد عرف أهله فنون الحياة المتمدينة أحسن معرفة ، وسار على هدى تلك المعرفة أعدل سير مثل فرنسا والفرنسيين الذين أضحوا ولا ريب أرق حاشية من الإنجليز ، وأرحب صدراً من الألمان وأكثر قبولاً للمؤتمرات الخارجية من الأسبان ، وأقل ميلاً إلى النزاع الداخلى والعنف من الإيطاليين ، ولمدة قرنين من الزمن – وهما الثانى عشر والثالث عشر الميلاد – لم تنبت أرض أوروبية نماذج للفكر الأوروبى مثل الأرض

الفرنسية التى أنبتت أبيلارد ، والقديس برنارد ، والحروب الصليبية ، والفروسية ، والفلسفة المدرسية على أن فرنسا تدين بكثير من هذه العظمة إلى حسن الحظ والتوفيق إذ جعلتها أسرتها الملكية – أسرة كابيه – بنجوة من شرور الثورات والمنازعات حول التاج لثلاثة قرون حسوماً متتابعة بفضل ما أنجبت لوراثة العرش من ذكور متعاقبة ، ثم إن فرنسا أمدت إنجلترا وصقلية بأسرات ملكية ، كما أمدت المجر ونابلى بعدهما بملوك من أمراء أسرة آنجو ، وبلغ من إعجاب ملك بوهيما بكل ما هو فرنسى مبلغ الاعتقاد بأنه ليس فى الدنيا مدينة تحكى باريس فى جمالها ، بل غدت البابوية فرنسية منذ استقر كرسيها فى أفينيون – وهى التى لا يفصلها عن أرض فرنسا سوى مجرى نهر الرون ، وأضحى البابا فرنسياً تحوطه هيئة من الكرادلة معظمها من الفرنسيين . (٣)

غير أن تلك العظمة شابتها ثلاث عيوب هامة :

أولها : أن الاستقرار الذى تمتعت به فرنسا على عهد أسرة كابيه لم يكتب له الدوام .

ثانياً : هو أن نبلاء فرنسا أمسوا بعد انتهاء الحروب الصليبية يعيشون فى عافية إقطاعية ، فطلع عليهم القرن الرابع عشر الميلادى دون أن يتعلموا شيئاً أو ينسوا شيئاً .

ثالثاً : فساد النظام المالى فى فرنسا . (٤)

أما العيب الثالث فكان عيباً عضالاً ظل مستعصى العلاج خلال القرون حتى شفته انفجارات الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر الميلاد ، ذلك أن الفرنسيين – على نباهتهم المعروفة – لم يقبلوا يوماً

من الأيام أن تفرض عليهم حكوماتهم ضريبة طيبة ، أو أن يؤدوا لحكومتهم ضريبة رديئة وبقى النظام المالى الفرنسى فاسداً كل الفساد طوال العصور الوسطى إذ جمعت الضرائب بطرق التضمين فابتز الضمان من دافعيها أموالاً أكثر مما حملوا هم إلى خزائن الدولة وناءت كواهل الفقراء بضريبة الملح المعروفة باسم الجابيل *Gabeele* ، وضاق التجار بمختلف المكوس على المبيعات وألوان العبث بأسعار النقود ، وزاد فى ضيق الفرنسيين ما فرضه الملك شارل الخامس وخلفاؤه من ضرائب جمركية محلية ، ثم إن شارل أحيا النظام البغيض الذى ابتكره فيليب الجميل لبيع الوظائف فاشتعل بذلك داء الإعفاءات المالية ، ولم يلبث خبث الإعفاءات والمحسوبيات أن سرى فى النظام المالى الفرنسى كله سريان العفن فى جسم الإنسان ، ومن أوضح الأدلة على ما أمست المالية الفرنسية فيه من الضعف أن الحكومة الفرنسية لم تجد وسيلة لأداء الفدية الكبيرة التى طلبتها إنجلترا مقابل إطلاق سراح ملك فرنسا من أرسه فى موقعة بواتييه سوى الرضا بزواج أميرة فرنسية من غنى وضيع حديث النعمة هو جالياتزوفسكنتى الإيطالى دوق ميلان .

أما الحرب بين فرنسا وإنجلترا فم تنشب نتيجة اصطدام بين البحارة الفرنسيين والإنجليز فى ميناء من موانى بحر المانش أو بسبب إغارة على أطراف أقطانيا أو مساعدة فرنسا بجنودها علناً (١٣٣٦م) لحزب دافيد بروس وقضية الاستقلال الأسكتلندى ، أو إغارة الجنود الفرنسيين الملحقين بالجيوش الأسكتلندية على أطراف إنجلترا الشمالية ، وإنما نشبت هذه الحرب نتيجة حادث وقع فى بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسى تبعية إقطاعية ، ففى ١٣٣٦ م ألقى الكونت لويس

صاحب الفلاندرز القبض على جميع الإنجليز المقيمين ببلاده أو العابرين عليها فى أعمال التجارة وزج بهم فى السجون بناء على تعليمات صدرت إليه من باريس ، وردت إنجلترا على ذلك الاعتداء الشنيع رداً كفيلاً بهدم صناعة فلاندرز الزاهرة رأساً على عقب ، إذ منعت تصدير الأصواف الإنجليزية إلى بلاد فلاندرز كما منعت الأسواق الإنجليزية من استيراد الأقمشة الفلمنكية ، وفى غضون هذا الموقف الحرج استطاع تاجر فلمنكى حازم بصير – وهو يعقوب فان ارتفلد صاحب التجارة الواسعة فى المنسوجات بمدينة جنت – أن يرسم خيوط السياسة فى غرب أوروبا لعدة أجيال ذلك أنه فضل رخاء اقتصادياً فى ظل تحالف حر – مع إدوارد الثالث ملك إنجلترا – على خراب اقتصادى فى ظل تبعية إقطاعية لفيليب ملك فرنسا ، وما زال يعقوب فان ارتفلد يعمل حتى طرد الكونت لويس والسيادة الفرنسية عن الفلاندرز ، وأقنع الملك إدوارد الثالث بوجود المطالبة بالتاج الفرنسى بعد أن عقد معه معاهدة لعودة تصدير الأصواف الإنجليزية إلى جنت تهدئة لخواطر الفلمنكيين عامة ، وبذا نشبت حرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترا .

وكان أول الوقائع الكبيرة فى تلك الحرب وقعة بحرية سنة ١٣٤٠ م عند ساويز شرقى أوستند الحالية ، حيث انتصر الإنجليز انتصاراً جعلهم وتجارتهم سادة بحر المانش مدى ثلاثين عاماً غير أن إنجلترا لم تحاول أن تستغل ذلك النصر لبضع سنين لأنها لم تجد ما يدعو إلى غزو فرنسا بعد زوال الخطر الذى يهدد التجارة الإنجليزية مع الفلاندرز ، وبعد أن أمست فرنسا نفسها عاجزة – ولو إلى حين – عن غزو إنجلترا ، على أن ما بين فرنسا وإنجلترا من ضغن لم يقتصر على

مشكلة الفلاندرز وتجارة الأصواف بل تعداه إلى مشاكل كثيرة فى جهات مختلفة ، فلم تلبث جذوة العداء التى انطفأت فى مياه ساويز أن اشتعلتن فى جهة أخرى وهى دوقية برتانى ، ذلك أن التنافس على الدوقية أدى إلى اصطدام إنجلترا وفرنسا من جديد بسبب تأييد كل منهما لأحد المتنافسين ، إذ وقف فيليب السادس ملك فرنسا إلى جانب شارل بلوا *Charles-Blois* ، ووقف إدوارد الثالث ملك إنجلترا إلى جانب حنا منتفرت وهو زعيم القسم الذى تسوده اللغة الكلتية والسكان الكلتيين من الدوقية أى القسم الكاره للنفوذ الفرنسى وعدوانه الجائر .

وهكذا وضحت ميادين الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ، ففى بلاد الفلاندرز وبريتانى ، وفى أقطانيا واسكتلندا كذلك وقفت جيوش الدولتين وجهاً لوجه وإذ بدتن حركات الجيوش الإنجليزية من نورمانديا وبريتانى وأقطانيا كأنها تجمعية غرضا وسط فرنسا ، فى غير خطة مرسومة أو اهتمام سابق بالتفاصيل شأنها فى ذلك شأن الخطط الحربية فى العصور الوسطى فإن هذه الحركات كشفت عن توفيقات حربية جعلت سنة ١٣٤٦ م عام العجائب *Annus Mirabilis* فى تاريخ إنجلترا حتى نهب الإنجليز بواتييه ، وكسبوا معركة كريسى وحاصروا كاليه وسحقوا الأسكتلنديين عند نفلز كروس فى يوركشير الحالية ، وممع هذا لم تجن إنجلترا من هذه التوفيقات اتلحربية المتراصة فائدة ذات قيمة كبيرة ، ما عدا كالية التى أضحت مدينة إنجليزية من ذ١٣٤٧ م ، وظلت كذلك حتى عهد الملكة مارى التيودرية فى القرن السادس عشر الميلادى حين استردها الفرنسيون نهائية من إنجلترا . [٥]

غير أن السنة التى شهدت سقوط كاليه فى يد الإنجليز شهدت كذلك حلول كارثة أوروبية عامة حصدت من الناس أكثر مما أفنته مائة سنة من الحروب فى العصور الوسطى .

وقد شـهد هـذا العـام امتـداد " الوبـاء الأسـود " مـن أحـد مواقـع بالشرق الأقصى عبر طريق التجارة الدولية فى تلك العصور إلى أوروبا ففتك بعشرات الآلاف من الخلق ، وقد قاست منـه فرنسا الأمرين حيث حصد بزهرة شبابها الأقوياء ومزارعها حتى ضحت الحقول خالية من الأيدى العاملة اللازمة للحرث وجمع المحاصيل ورعى الماشية ، كما ترتب عليه نتائج اجتماعية وأخلاقية خطيرة ، وبانقشاع هذه الكارثة سنة ١٣٥٠ عاد الناس إلى حياتهم العادية ، ولكن بعد أن أوجدت سلسلة من التغييرات والانقلابات فى المجتمع الأوروبى عامة والفرنسى بصفة خاصة ، ذلك أن هذا الطاعون ترتب عليه قلة الأيدى العاملة فى المزرعة ومطالبة الفلاحين بأجور أحسن وأكثر إغراء من الخدمة فى الأرض ، فسنت فرنسا قوانين حرمت على الفلاحين وسائر العمال أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم قبل الطاعون ، كما قلت خدمة الفلاحة فى أرض النبلاء الفرنسيين ووضحت فائدة استخدام الفلاحين من مختلف الجهات على قاعدة الأجور النقدية ، وهكذا أخذت العوامل الاقتصادية الجديدة تقوض شيئاً فشيئاً من دعائم النظم الإقطاعية التى كانت فى طريقها إلى الزوال ، وهكذا أيضاً أخذ الفلاح القن يتحلل تدريجياً هنا برابطة بالأرض ومن قيوده ، وغدا حراً نوعاً فى تقدير خدماته بأجر نقدى . (٦)

ومما شـهد المعاصـرون أن ذلـك الطـاعون عكـف علـى اغتيـال والأقويـاء دون غيـرهم مـن النـاس ، وأنـه أشـفق بضـحاياه فأخـذهم أخـذاً سريعاً بعض الأحيان ولكنه كثيراً ما أردى فريسته فى جحيم من الأوجاع بضع ساعات فحسب ، وغى أفنيون – حيث عصف الطاعون بالسكان سبعة أشهر متوالية – حاول بعض أرباب الطب محاولة جريئة فريدة – فـى ذلـك العصـر – لتشـخيص أسباب الطـاعون فنبشـت قبـور وأخرجت للفحص بأمر البابا ، لكن فى غير جدوى ، وظل الطـاعون يزحف زحفه الـذريع المريـع وبيده منجل الفنـاء ليحصد مـا شـاء من حـارات العصـور الوسطى وقذرها ، ومن ظهور السفن التى حملتها الأمواج على غير هـدى بعـد اشـتعال الوجـع بـين بحارتهـا ، ومـن جوانـب الحقـول التـى أضحت خالية من الأيدى العاملة اللازمة للحرث وجمع المحاصيل ورعى الماشية .

ومـن أسـوأ النتـائج الاجتماعيـة التـى نجمـت عـن هـذه الكارثـة البشرية الطامة قيام كثير من المدن الأوروبية بسلسة من الفظائع ضد سـكانها مـن اليهـود إذا أحـرق الـدهماء فـى كـاينز وغيرهـا مـن المـدن الألمانيـة المئات والألـوف من اليهود اعتقاداً منهم بأن الطـاعون مكيدة خبيثة من الجنس السامى للقضاء على المسيحية الكاثوليكية وترتب على هذه الوحشية الأوروبية الغربية أمر على جانب من الأهمية فى التاريخ الأوروبى ، إذا وجد اليهود الذين اضطهدتهم مدن الراين من مملكة بولندا ملجأ وقـت ذاك ، كمـا وجـدوا منهـا فـى أحـوال سـابقة ، وانتهـز ملكهـا كـازيمير (١٣٣٣ – ١٣٧٠ م) الفرصـة ليجـد الحمايـة التـى منحهـا لطائفة اليهود سلف لـه سنة ١٢٦٠ م ، وإلـى هذه السياسة – حيث لم

يكن أحد من اليهود فى غرب أوروبا بنجوة من غضب الدهماء الكاثوليكيين – يعزى وجود الأعداء الكبيرة من اليهود فى بولندا الحالية .

ولكارثة الطاعون نتائج أخرى أقل بشاعة من حوادث إحراق اليهود ، ففى فلورنسا – نقلاً عن الوصف المعروف الذى كتبه بوكاشيو فى الطاعون بتلك المدينة – أسلم البعض أنفسهم لأنواع الملذات واستولى على البعض طوف دينى ، أولئك هم السياطيون *Flagellant* الذين ساروا جماعات فى طرقات المدينة يضربون أنفسهم بسياط من حديد تكفيراً عن ذنوب المذنبين من الناس ، على حين اتخذ فريق لأم يكونوا من هؤلاء ولا هؤلاء حياة اللصوصية وقطع الطريق سبيلاً للعيش غير أن نتائج الطاعون لم تقتصر على هذه الظواهر العبارة التى انتهت بانتهاء أسبابها المثيرة ، بل تعدتها إلى نتائج ثابتة معروفة ، حتى إذا انقشع الوباء سنة ١٣٥٠ م إلى غير رجعة ما عدا فينات قصيرة على مقياس أصغر ، وعاد الناس إلى الحياة العادية ، بدا المجتمع الأوروبى فى حال غير حاله السابقة . (٧)

© sa2eh.com

ومع هذا فلم تستقر الأحوال طويلاً إذا سرعان متا عادت الحرب بين إنجلترا وفرنسا فى صورة وحشية على حساب الفلاحين الفرنسيين التى استمرت عشر سنوات (١٣٢٥٠ – ١٣٦٠) أصبحت فيها البلاد الفرنسية خراباً ، كما أبيدت المحاصيل والماشية وأحرقت البلاد والقرى وفى هذه الحرب قضى الإنجليز على مجد فرنسا الحربى ، واستطاعت جيوشهم أن تتقدم نحو أسوار ريزوباريس ، وأن تعمل السيف والنار فى أقاليم فرنسا الوسطى الشهيرة بمزارعها وبساتينها وأحراشها ، وبذلك

أصبحت الملكية الفرنسية فى أشد حالات الحرج والبؤس بعد أن تم تخريب أغنى منابع الإيراد فيها ، وبعد أن أصبح ملكها حنا الكريم أسيراً فى إنجلترا ، كما فرض الإنجليز على الشعب الفرنسى جزية باهظة فطلاق سراح مليكهم ، ولعل من آثار هذه الحروب قيام الفلاحين الفرنسيين الذين قاسوا الويلات من جرائها بثورة عارمة فى وجه النبلاء الذين أضاعوا فرنسا للانوميز ، ولو أن النبلاء تمكنوا من إخمادها فى سرعة وسهولة ، وإن كان قد ترتب على ذلك قيام هوة سحيقة بين الفئتين

وكان عزاء فرنسا بعد ما نالها من الأذى والخراب على أيدى الإنجليز خلال تلك الحروب المريرة هو نجاة باريس وبقاؤها فى أيدى الفرنسيين واستمر الحال هكذا إلى أن عقدت معاهدة كاليبه بين البلدين سنة ١٣٦٠ والتى بمقتضاها استعادت فرنسا نورمانديا ، بينما بقيت إنجلترا فى أكويتانيا وكاليه وبوردو وهى مقاطعات فرنسية . (٨)

وكان من حسن حظ فرنسا أن ولى عرشها وقتئذ ملك عرف كيف يركز الوسائل التى تكفل له الفوز على الإنجليز هو شارل الخامس (١٣٦٤ – ١٣٨٠) الذى أجلى إنجلترا عن جميع ممتلكاتها فى فرنسا فيما عدا بوردو وكاليبه وبايون ، وبوفاة شارل فى سنة ١٣٨٠ أضحت فرنسا خالية من الاحتلال الأجنبى .

ولكن كيان الأمة الفرنسية سرعان ما تعرض للخطر مرة أخرى بعد وفاة هذا الملك الحكيم ، فذهبت جميع المكاسب التى أحرزها الفرنسيون أواخر حكمه أدراج الرياح ، وكان هذا نتيجة وصاية طويلة على ملك قاصر هو شارل السادس ، ثم حكم هذا الملك المجنون نفسه

الذى لم يعد صالحاً للحكم بعد انتهاء الوصاية عليه ، ثم قيام تنافس شديد بين أبناء البيت المالك والتابعين لهم من النبلاء ، مثلما حدث بين لويس دوق أزرليانز أصغر أخوة الملك وبين ابن عمه حنا المقدام دوق برجنديا (١٤٠٤ – ١٤١٩) إلى أن انتهى التناحر بينهما باغتيال لويس بإيعاز من حنا وانقسام فرنسا إلى قسمين متطاحنين ، فهانت الحكومة وشئون الحكم فى فرنسا إلى درجة أن باريس شهدت من مظاهر العنف والشدة خلال تلك السنوات ما لم تشهده مدينة أخرى فى فرنسا ، فى الوقت الذى كان يجب أن تبدو فيه موطناً للأمن والنظام والاستقرار باعتبارها العاصمة .

هكذا بدت الأمة الفرنسية على نفسها منقسمة أسوأ الانقسام فى الوقت الذى تجدد فيه أطماع الإنجليز فيها ، فقد أكد هنرى الخامس (١٤١٣ – ١٤٢٢) ملك إنجلترا أحقيته فى عرش فرنسا استناداً إلى حق جده إدوارد الثالث ، فعبر إلى فرنسا وانتصر على الفرنسيين عند اجتكورت سنة ١٤١٥ ، وتم له بعد ذلك فتح نورمانديا ، وساعده على ذلك استمرار التناحر بين الأحزاب المتصارعة فى فرنسا نفسها ، وتتطور الأمور لصالح الإنجليز حتى أصبح لهنرى الخامس حق الوصاية والوراثة فى عرش فرنسا بتأييد البرجنديين ، ولكن هنرى الخامس ملك إنجلترا وصاحب مشروع توحيد إنجلترا وفرنسا فى تاج مشترك وافته منيته ، وخلفه ابن عمره تسعة أِهر ، وبذلك خلا الجو للفرنسيين لتحقيق أمانيهم فى الاستقلال مرة أخى . (٩)

وقد شاءت الظروف أن يموت شارل السادس ملك فرنسا هو الآخر سنة ١٤٢٢ ، وعندئذ اختار أهل أورليان ولى العهد شارل السابع

ملكاً فى حين اختار الإنجليز هنرى السادس الصغير ملكاً على فرنسا ، وقد بدا شارل السابع ضعيفاً عاجزاً أمام الإنجليز الذين عاودوا هجماتهم وجددوا انتصاراتهم فى فرنسا ، حتى أخذوا يحاصرون أورليان سنة ١٤٢٨ ليشقوا طريقهم نحو ما تبقى خارج أيديهم من أقاليم فرنسا الشمالية ، وفى ذلك الوقت الذى بدأ اليأس يدب فى قلب شارل السابع حتى نصحه بعض رجال بلاطه بالفرار إلى أسبانيا أو اسكتلندا ، إذا بالقدر يسوق إلى الملك – بل فرنسا – فتاة ريفية فى السابعة عشر من عمرها لتقوم بدور البطولة فى ذلك الفصل من فصول حرب المائة عام ، وتخلد اسمها ناصعاً على صفحات التاريخ الفرنسى .

أما هذه الفتاة فهى جان دارك *Jeanne d'Arc* التى يقال أنها أخت تسمع هاتفاً يناديها بإنقاذ مليكها وبلادها ، مما دفعها إلى الذهاب إلى شينون *Chinon* حيث بلاط الملك ، وقد استطاعت جان دارك أن تقنع شارل السابع بتزويدها برداء حربى وبعض الجنود لإنقاذ أورليان ، وكان أن انضم بعض المغامرين إلى جان دارك وهى فى طريقها إلى أورليان حتى دخلت المدينة سالمة عن طريق النهر ومعها بعض الإمدادات والمؤن ولم يلبث ظهور جان دارك أن ألهب حماسة المدافعين عن المدينة فقويت هممهم حتى خلصوا أورليان من هجمات الإنجليز واضطر الأخيرون إلى الانسحاب ، ولم تزل جان دارك تستحث شالرل السابع حتى حضر بنفسه إلى ريمس حيث توج ملكاً سنة ١٤٢٩ فى كتدرائيتها الكبرى ، فى حين وقفت جاد دارك خلفه تبكى من شدة الفرحة ، على أن الحظ أخذ يفارق جان دارك بعد ذلك ، فرغبت فى العودة إلى قريتها لترعى أغنامها ، ولكنها وقعت فى أسر البرجنديين فى

مايو سنة ١٤٣٠ ، وبعد ستة أشهر باعها دوق برجنديا مقابل عشرة آلاف فرنك ذهبى إلى الإنجليز الذين اتهموها بالهرطقة والشعوذة وأعدموها حرقاً فى ١٠ مايو سنة ١٤٣١ وسط ميدان السوق فى مدينة روان ، ولم يكن ذلك إلا سنة ١٤٥٥ عندما سمحت البابوية بإعادة النظر فى قضيتها ، فثبتت براءتها مما نسب إليها ، ثم أعلن البابا بيوس العاشر سنة ١٩٠٩ ثم البابا بندكت الخامس عشر سنة ١٩١٩ تطويبها وتجميدها فى السماء لتصبح فى عداد الشهداء . (١٠)

لقد خلق استشهاد جان دارك بين الفرنسيين روحاً من الوحدة لم تعرفها فرنسا من قبل إذ فقدت إنجلترا جميع المزايا التى اعتمدت عليها فى أوائل مراحل الحرب فى الأراضى الفرنسية ، كما سوى البرجنديون مشاكلهم القديمة مع فرنسا سنة ١٤٣٥ ورجعت باريس إلى أهلها سنة ١٤٣٦ واستطاع شارل السابع أن يبنى لفرنسا حكومة رشيدة قوية بفضل فطنته والكفايات المخلصة التى التفت حوله .

وفى سنة ١٤٣٩ أصدر شارل السابع قانون الجيش الذى اصبح لفرنسا بمقتضاه جيشاً نظامياً يقوده ضباط معينون من قبل الملك لا فرسان من الإقطاعيين كما كان الحال من قبل ، هذا فى الوقت الذى عمد فيه إلى النيل من النبلاء الإقطاعيين فحرم عليهم فرض ضرائب فى اقطاعهم أو تكوين الجيوش دون موافقة ملكية أو إثارة الحروب الإقطاعية الخاصة التى عانت منها فرنسا الكثير .

وإزاء هذه الإصلاحات اللازمة لسلامة الأمة الفرنسية كان من الطبيعة أن يثور كبار النبلاء فى فرنسا سنة ١٤٤٠ ، تلك الثورة التى

عرفت فى التاريخ باسم ثورة البراجيرى ، إلا أن هذه الثورة لم تلبث أن أخمدت بفضل الجيش الملكى الفرنسى الذى تحدى التقاليد الإقطاعية القديمة بوحداته من الفرسان والمشاة والمدفعية التى أنشأها شارل السابع والتى دك بها معاقل الإقطاع ، وقد أثبت هذا الملك فى آخر معركة من معاركه ضد الإقطاع أن عهد القنية والإقطاع قد زال إلى غير عودة وأن عصر القومية والبارود والمدفعية قد حل ، فأخذت المدن الإقطاعية – التى كانت لا تزال فى قبضة الإنجليز مثل روان وبايون وبوردو – تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام القوى النظامية التى أنجبتها فرنسا ، ولم يبق لإنجلترا من جمع ممتلكاتها سوى كاليه وذلك بعد عقد الصلح بين الإنجليز والفرنسيين سنة ١٤٥٣ .

هذا ما أنتجته حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا فقد جلبت على فرنسا الكثير من الخير والشر معاً ، الشر فى تعطيل عجلة التقدم الحضارى ، والخير فى أن الفرنسيين أخذوا يهجون منهجهم فى الحياة فى وقت كان فيه العصر الإقطاعى قد بلغ مرحلة اللادول ، وظهرت تباشير عهد جديد قوامه التصادم والصراع بين الدولة ، هذا فضلاً عما خلفته وراءها من نتائج ذات آثار بعيدة المدى فى الحياة الإنسانية من حيث تحطيم التقاليد والعادات القديمة المتأصلة فى النفوس من جراء الحروب والضغط المالى الناشئ عنها ، ومن حيث قلب أوضاع التوزيع الاقتصادى بين مختلف الطبقات ، فبدأت جديدة تظهر فى مجتمع كان بناؤه الطبقى أخذاً فى السقوط ، ولم يعد باستطاعة الأرستقراطية الحربية القديمة أن تغفل الطبقات الدنيا ومطامحها التى أخذت تعمل منذئذ فى تشكيل المجتمع تشكيلاً جديداً مغايراً عما كان مألوفاً من قبل . (١١)

هذا ما كان من أمر حرب المائة سنة ومراحلها ، وبعض ظواهرها ، وثمة ظاهرة من بعض ظواهر هذه الحرب الطويلة ، أن روح المباراة الفردية بقيت بين المتحاربين برغم الفظائع الوحشية التى ملأت ميادين القتال ، ذلك أن الحرب فى العصور الوسطى – وإن ظلت من الناحية العملية مجال النضال والنيران والأسلاب والأنهاب – ظلت فى نظر المجتمع ملهاة الملوك ومجمع الأبطال وسبيل الله فى امتحان الممر ، فنازل إدوارد الثالث فيليب الرابع ، ونازل هنرى الخامس لويس ولى العهد لتسوية ما بين إنجلترا وفرنسا من حرب عامة فى مبارزة فردية كان أعظم أهمية للزمالة الحربية الأنجلو – فرنسية من فضائل الرحمة أو النظام ، لأن هذه الفضائل من القيمة الثانوية فى الحروب على أية حال ، ومن الأمثلة على ذلك أن الأمير الأسود الذى لم يتردد فى قتل أهالى لموج ذبحاً – دون اعتبار الجنس أو السن – ليلة معركة بواتييه ، قام على خدمة الطعام لأسيره حنا الكريم ملك فرنسا واحتفى به أكبر الحفاوة .

والواقع أن الزمالة الرفيعة بين نبلاء تشابهت ألسنتهم ملاهيهم فضلاً عن شعائرهم الدينية وقوانينهم السلوكية فى المجتمع خفف من حدة الحرب بين الإنجليز والفرنسيين فى ساحات القتال باستثناء معارك البحار التى لم تعرف أمواجها شيئاً من لزوميات الفروسية فى العصور الوسطى ، أو غيرها من العصور . ومن أمثلة الدالة على روح تلك العصور كذلك أن أرمل إيرل آيمر بمبروك – وهى فرنسة الأصل – أسست فى السنة التالية لمقتل زوجها بمعركة كريسى كلية فى جامعة كمبردج ، يكون للطلبة الفرنسيين فيها الأفضلية فى الدراسة والسكنى ،

ولا تزال هذه الكلية تحمل اسم بمبروك حتى العصر الحاضر ، ومن الأمثلة كذلك أن شارل السادس ملاك فرنسا أمر بالصلاة على روح إدوارد الثالث ملك إنجلترا بكنيسة سانت شابيل غداة وصول الخبر إلى باريس بوفاته تخليداً لذكرى بطل عظيم كان فى حياته ألد أعدائه وأشدهم خطراً على مملكته .

غير أنه نتج عن حرب المائة عام أم وقفت عملية التبادل الحضارى التى ساعدت على تكوين إنجلترا منذ الفتح النورمانى ، كما ساعدت على تنظيم الإدارة الفرنسية عن طريق الإمبراطورية الأنجوية وجلبت على كل من إنجلترا وفرنسا كثيراً من الخير والشر والقابلية فى الناحيتين .

ففى إنجلترا أخذت اللغة القومية تحل محل اللغة الفرنسية فى المؤلفات الأدبية والمحاكم والبرلمان والكنيسة وفى مراسلات الملوك ومكاتبات الطبقة المثقفة وانتهت كذلك آثار الكتاب الإنجليز فى الآداب النورمانية الفرنسية التى كانت ركة بين فرنسا وإنجلترا ، وأخذ كل من الكتاب الفرنسيين والإنجليز ينهج منهجه الخاص ، فلم يلتزم الإنجليز رنين النماذج الفرنسية وجرسها اللفظى فحسب ، كما كانت عادتهم منذ الفتح النوزرمانى ، بل أخذوا يستمعون بفضل تشوسر – ولأول مرة – إلى صليل دانتى والآداب الإيطالية . (١٢)

لقد خرجت كل من إنجلترا وفرنسا من غمار حرب المائة عام مستقلة ولها هويتها الوطنية الذاتية وواعية بهذه الهوية ، وكان هذا اتجاهاً سار تاريخهما نحوه فترة طويلة : كما أن العلامات الدالة على ما

سيكون كانت واضحة قبل زمن طويل من حربهما الكبرى ، فى التطورات التى جرت بهما أيام فيليب الرابع فى فرنسا وهنرى الأول فى إنجلترا فى القرن الثالث عشر ، ومنذ ذلك الحين أدت الضغوط التى خلقتها الحرب إلى تقوية الشعور بالتضامن الداخلى بين سكانهما على نحو هائل ، كما أنها عودت حكامها على التفكير فى السياسة فى ضوء الظروف المناسبة لهذا الوضع بحيث جعلوا الأولوية الأولى لمتطلبات الرخاء الدنيوى لرعاياهم وهو ما كانت سلطتهم تعتمد عليه ، وتمثلت النتيجة فى اختفاء الاعتبارات الدولية تماماً من أساليب الحكم بفرنسا وإنجلترا وهى اعتبارات كان لها تأثيرها الواضح منذ أيام لويس التاسع ملك فرنسا وهنرى الثالث ملك إنجلترا ، وتم توجيه السياسة الملكية لكى تلعب دوراً جديداً فى أوروبا مختلفة . وكما سنرى فى الفصل التالى فقد أدت تداعيات الحرب بين فرنسا وإنجلترا حقاً إلى تغيير أوروبا فى نهايتها (١٣) .

هوامش الفصل السادس

(١)سعيد عبد الفتح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، (القاهرة : ١٩٩٧) ، جـ ١ ، ٤٩١ – ٤٩٢ .

(٢)محمد فتحى الشاعر : أضواء جديدة على الصراع الإنجليزى الفرنسى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، (القاهرة: ١٩٨٩) ، ص ٤ – ٥

(٣)فشر (هـ. أ. ل) : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، جـ٢ ، ص ٣١٠ – ٣١٢ .

(٤)جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٥)فشر (هت. أ. ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٤ – ٣١٦ . سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٩٣ – ٤٩٥ . محمد فتحى الشاعر : المرجع السابق ، ص ٦٠ – ٦٢ .

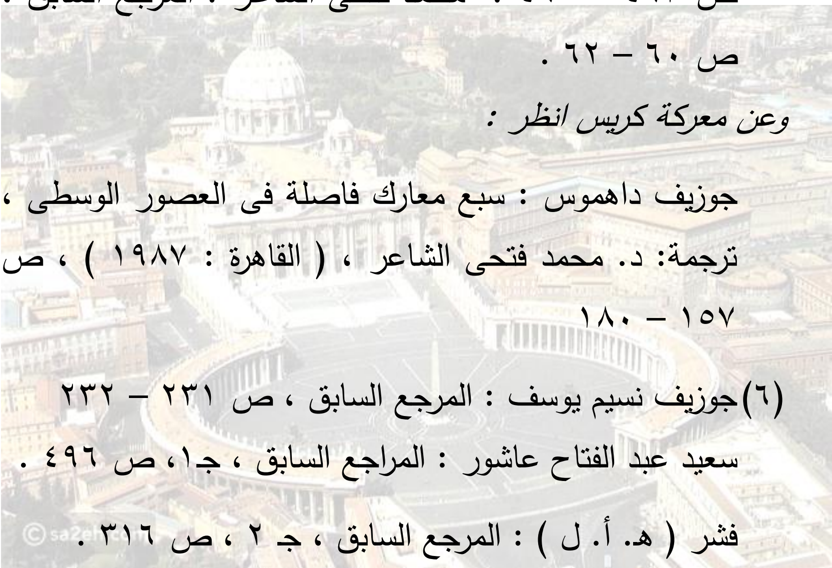

وعن معركة كريس انظر :

جوزيف داهموس : سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى ، ترجمة: د. محمد فتحى الشاعر ، (القاهرة : ١٩٨٧) ، ص ١٥٧ – ١٨٠

(٦)جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٣١ – ٢٣٢

سعيد عبد الفتاح عاشور : المراجع السابق ، جـ١، ص ٤٩٦ .

فشر (هـ. أ. ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٦ .

موريس كين : حضارة أوروبا العصور الوسطى ، ٢٢٦–٢٢٨ .

(٧)فشر (هـ. أ. ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

موريس كين : المرجع السابق ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٨)جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٢٣٢

فشر (هـ. أ. ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٠ – ٣٢٢ . محمد فتحى الشاعر : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٩)جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، ص ٢٣٢ – ٢٣٤ .
سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص٤٩٦ – ٥٠٢ . فشر (هـ. أ. ل) : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ – ٣٢٤ . محمد فتحى الشاعر : المرجع السابق ،

(١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠٣ – ٥٠٤

(١١) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ٢٣٤ – ٢٣٥ .

(١٢) فشر : المرجع السابق ، جـ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٦ .

(١٣) موريس كين : المرجع السابق ، جـ ، ص ٢٣٨

تدريبات على الفصل السادس

س: اكتب مقالًا تاريخياً عن أحداث الصراع الإنجليزي الفرنسي خلال حرب المائة عام.

الفصل السابع

البابوية بين القوى المختلفة فى إيطاليا والإمبراطورية الرومانية المقدسة

أهداف الفصل السادس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على :

٣- قيام مملكة النورمان في إيطاليا ودور أسرة الهوتفيل

٤- البابوية

٥- حركة الإصلاح الكولوني .

إيطاليا والبابوية فى القرن الحادى عشر

صارت إيطاليا فى نهاية القرن العاشر الميلادى مقسمة إلى عدد من الوحدات تتجاذب السيطرة فيها عدة قوى : فالبيزنطيين امتلكوا أبوليا وكالبريا فى الجنوب ، بعد أن نجحوا فى طرد المسلمين من تلك الجهات وأحرزوا نصراً بحرياً عليهم مكنهم من استرداد معاقلهم فى الجنوب الشرقى من إيطاليا (٨٨٤ – ٨٨٧ م) ، هذا وإن ظل المسلمون فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة ، فضلاً عن صقلية وإلى جانب البيزنطيين والمسلمين وجد عدد من الدوقيات اللومباردية فى بنفنتو وسالرنو وكابوا فى الجنوب ، أما شمال إيطاليا ووسطها فقد أقام فيها اللومبارديون عدة إمارات . [٢]

وأخيراً البابوية التى أخذت تعمل من جانبها على أن يكون لها نفوذ سياسى فوق نفوذها الدينى ، وإذا أضفنا إلى تلك القوة الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى شرع أباطرتها يتدخلون فى شئون إيطاليا لأدركنا مدى الفوضى التى صارت إليها إيطاليا فى تلك الفترة .

النورمان فى جنوب إيطاليا :

بعد أن تم للنورمان [٣] الاستقرار فى غرب أوروبا ، اثبتوا أنهم ليسوا عناصر مدمرة مخربة على نحو ما توهم المعاصرون ، بل سرعان ما اعتنقوا المسيحية واتخذوا الفرنسية لغة لهم ، ولو أنهم حفظوا لغتهم

الأصلية وعاداتهم وتقاليدهم لتضاءل أثرهم العام فى بناء المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، لكن الذى حدث أنهم حملوا معهم طابع الحضارة اللاتينية فى كل مكان انتقلوا إليه ، وهنا نلاحظ أن النورمان لم يغيروا شئ مما بأنفسهم من الولوع بالحرب والقتال ، ولم يفقدوا ميلهم إلى المغامرة وحب التنقل والترحال ، وكثيراً ما قاموا بأسفار عديدة بعيدة المدى ، صحبتها روح المغامرة ومن تلك الأسفار زيارة الأماكن المقدسة بالشام .

وقد حدث حوالى سنة ١٠١٩ أن جماعة من الحجاج النورمان بلغ عددهم أربعين حاجاً مروا بجانب إيطاليا – قرب مونت جارجانو ***Mont-Gargano*** على الشاطئ الشرقى – أثناء عودتهم من الأراضى المقدسة وانتهزوا فرصة وجود النزاع بين القوى فى الجنوب فالتحقوا بجيوش المتشاحنين كمرتزقة ، والواقع أنه كان فى الجنوب الإيطالى مجالاً متسعاً لنشاط القادرين على الخدمة كمرتزقة فى صفوف المحاربين من ألئك الشباب المتبرمين بالحياة الرتيبة أو الراغبين فى التنقل والترحال فى سبيل رغد العيش وذيوع الصيت ، وبالفعل سرعان مات اكتسب النورمان شهرة كبيرة فى إيطاليا كجند محاربين شجعان .

© sa2eh.com

وعندما عاد هؤلاء الحجاج إلى نورمانديا انتشرت أخبارهم بين ذويهم انتشاراً سريعاً ، ومن المؤكد أنهم رسموا صورة واضحة عن حالة التفكك والفوضى التى اكتنفت الجنوب الإيطالى الأمر الذى أغرى الكثير من الفرسان النورمان الطموحين على الهجرة من نورمانديا إلى جنوب إيطاليا للعمل كجند مأجورين ودلوا دلالة قاطعة على كفاءتهم الحربية ، ويقال أن دوق نابولى منح سنة ١٠٣٠م جماعة المرتزقة فى جيشه من

النورمان مدينة آفرسا ***Aversa*** مكافأة لهم على خدماتهم ، وتعتبر آفرسا أول مركز دائم لهم فى إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت صار جنوب إيطاليا مركزاً لتجمع العديد من النورمان المغامرين الذين أتوا من أجل تحقيق مصالح مادية مادية وسياسية ، واشتهر من زعماء النورمان فى تلك الفترة ثلاثة أخوة يلقبون بلقب هوتفيل ***Hauteville*** هم وليم وهمفرى ودروجو ، استطاعوا جميعهم إحراز شهرة هائلة فى القتال ، وكان أن قدم من نورمانديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة هو روبرت جويسكارد الذى لم يلبث أن صار زعيماً للنورمان فى إيطاليا سنة ١٠٥٧ م ، وإذا كان أحد المؤرخين قد وصف روبرت جويسكرد بأنه " كان على جانب من أصالة الرأى والحلية ، والذكاء والموهبة ، والكرم والجرأة ، إلا أنه كسياسى ماهر وقاد شجاع ، لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول إلى هدفه " . (٤)

والجدير بالذكر أن النورمان فى جنوب إيطاليا لم يقفوا من القوى المتنافسة موقف المتفرجين ، إذا أنهم اشتركوا فى الأحداث الجارية من زاويتهم الخاصة ، وبمعنى آخر أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ، فتارة يحاربون فى صف اللومبارديين ، وتارة فى صف البيزنطيين ، واضعين نصب أعينهم توسيع رقعة أراضيهم على حساب اللومبارديين والبيزنطيين والبابوية جميعاً ، ويبدو أن البابا أراد وضع حد لتحركات النورمان فسار سنة ١٠٥٣م على راس جيش لمحاربتهم ولكن النورمان أنزلوا الهزيمة بذلك الجيش فى موقعة كيفيتاتى ***Civitate*** ، ووقع البابا أسيراً فى أيديهم ، بيد أنهم عاملوه معاملة طيبة الأمر الذى جعل البابوية تدرك ما سوف تفيد من تحالف مع النورمان ، وفى ذلك الوقت بالذات كانت البابوية فى

© sa2eh.com

حاجة إلى حليف قوى بإمكانه تخليص إيطاليا من البيزنطيين ، فضلاً عن مساندة البابا فى تحقيق استقلاله والتخلص من خطر الإمبراطورية الرومانية المقدسة لذلك كله عقد البابا نقولا الثانى (١٠٥٨ – ١٠٦١م) .معاهدة مع النورمان ، تم بمقتضاها الاعتراف بحكم روبرت جويسكارد فى أبوليا بجنوب إيطاليا مقابل اعترافه بالتبعية للبابا .

ولاشك أن استيلاء النورمان على دوقية أبوليا ، كان الخطوة الأولى لاستيلائهم على جنوب إيطاليا ونشأ عن ذلك فصل شمال إيطاليا عن جنوبها مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ إيطاليا ، ولم تلبث البابوية أن استبد بها القلق عندما وجدت النورمان قد ابتلعوا جميع الجزء الجنوبى من إيطاليا سواء الممتلكات البيزنطية أو إمارة بنفنتو التابعة للبابوية وإزاء ذلك الوضع حاولت البابوية وقف التوسع النورمانى غير أن محاولاتها باءت بالفشل .

وأخيراً توفى روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ م بعد أن طرد البيزنطيين نهائياً من جنوب إيطاليا وثبت أقدام النورمان ، وبوفاة روبرت جويسكارد بدأت فترة من النزاع الداخلى بين النورمان أنفسهم استمرت نصف قرن حتى استطاع روجر الثانى اتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠ م ، ومن ثم قامت مملكة الصقليين التى سميت بذلك الاسم بعد أن وحد روجر الثانى ممتلكات النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية ، وفى تلك المملكة شهدت أوروبا مملكة كانت حكومتها أحسن الحكومات الأوروبية وأعظمها حضارة وتنظيماً فى العصور الوسطى . (٥)

البابوية والكنيسة الغربية :

سبق أن رأينا كيف فرض الإمبراطور شارلمان سيطرته على الكنيسة داخل الإمبراطورية بوصفه حامى البابوية ورأس الدولة والكنيسة جميعاً ، وتوطدت علاقة البابوية بحليفها شارلمان ، وبلغت ذروتها فى تتويجه إمبراطوراً ، غير أن ضعف الإمبراطورية الكارولنجية وانحلالها فى منتصف القرن التاسع حرم البابوية من حليفها وتركها وسط مظاهر الفوضى والاضطراب التى ألمت بها ، مما أدى بها إلى التدهور والفساد ، وظلت البابوية خلال القرن العاشر والسنوات الأولى للقرن الحادى عشر عاجزة عن الوقوف على قدم المساواة مع الأباطرة بسبب ما انغمست فيه من فساد وعيوب ، فالبابوية فى تلك الفترة شغلتهم ممتلكاتهم فى الدنيا ، ونزلت بهم إلى مستوى لا يعدو المستوى الذى كان عليه النبلاء فى المدن ، ولم يعد للبابوات سلطان على كنائس بلدان غرب أوروبا إذا أن الأساقفة كان لهم فى البابوات أسوة سيئة ، فسرعان ما أصبحوا من رجال الإقطاع التابعين للملك أو كبار الدوقات ، بل أن وظائفهم صارت إقطاعية بالإضافة إلى انصرافهم نحو جمع الثروة .

والواقع أن الكنيسة لم تنسى حقوقها فى السمو على السلطة الزمنية وكل ما هناك أنها ظلت تخفى رغبتها فى التخلص من تلك السلطة طالما كانت فى قبضة شارلمان القوى ، على أنها بعد وفاة شارلمان تنفست الصعداء وأخذت تعمل على إبراز سموها ، وهو المبدأ

الذى ظلت تجاهد من أجله منذ عهد جريجورى الأول (٥٩٠ – ٦٠٤م) وهنا نلاحظ أنه كان من الصعب – خلال القرن التاسع – فصل الكنيسة عن الدولة فى ظل النظم الإقطاعية ، فأخذت البابوية تبحث عن طريقة تجعلها تفرض سيادتها على الملوك وبقية رجال الكنيسة ، فلم تجد أمامها إلا تزييف الوثائق وتزويرها كى تحقق ما تصبوا إليه ، فادعت أن ثمة وثيقتان ، الأول : تسمى " هبة قنسطنطين " ***Donation of Constantine*** وهى عبارة عن مرسوم قيل أن الإمبراطور قنسطنطين العظيم أصدره عندما غادر روما إلى عاصمته الجديدة ، تنازل بمقتضاها عن روما للبابوات ، بل عن كل أراضى الإمبراطورية الغربية ، ويبدو أن هذه الوثيقة زورت فى القرن الثامن عندما اعترف بيبين القصير سنة ٧٥٥م بشرعية البابوية للممتلكات الإمبراطورية فى إيطاليا فأرادت البابوية أن تؤكد هبة بيبين بأن حق البابوية فى مباشرة السيادة والسلطة الزمنية قديم يرجع إلى أيام قنسطنطين العظيم ، أما الوثيقة الثانية : فظهرت حوالى (٨٥٠– ٨٥م) واسمها " الأحكام البابوية المزورة " ***Falsw Deretals*** وهى تنسب إلى شخص غامض اسمه ايسيدور وهدفها الأول إضعاف نفوذ رؤساء الأساقفة وفى نفس الوقت إعلاء شأن البابوية ، وهكذا أخذت تلك المبادئ تسود الكنيسة فى القرن التاسع الميلادى ، وأخذت البابوية – مستندة إلى أحكام مزورة – فى التدخل فى شئون مختلف الكنائس بالغرب الأوروبى ، على أنه يمكن القول أن البابوات فيما بين سنة ٨٦٧م – وفاة البابا نيقولا الأول – وسنة ٩٦٢م – تتويج أتو الأول إمبراطوراً – لم يكون سوى مجرد أمراء إيطاليين ، وبمعنى آخر لم يكونوا

سوى ظلال باهتة لا تستطيع الوقوف على قدم المساواة من الأباطرة بسبب ما ترد فيه من مباذل ومساوئ ، ثم أن القوانين الكنسية صارت مهملة ولا يراعيها أحد ، وهى القوانين التى تنص على اختيار الأساقفة من بين رجال الدين المشهود لهم بالورع والتقوى ، فغدت المناصب تباع وتشترى من أمراء الإقطاع الأمر الذى أدى على وصول بعض ضعفاء النفوس إلى أرفع المناصب الكنسية .

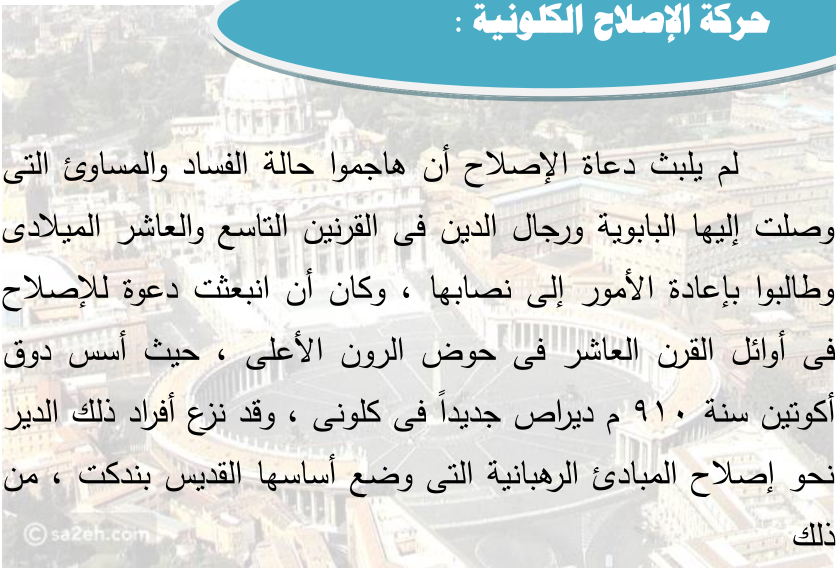

حركة الإصلاح الكلونية :

لم يلبث دعاة الإصلاح أن هاجموا حالة الفساد والمساوئ التى وصلت إليها البابوية ورجال الدين فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى وطالبوا بإعادة الأمور إلى نصابها ، وكان أن انبعثت دعوة للإصلاح فى أوائل القرن العاشر فى حوض الرون الأعلى ، حيث أسس دوق أكوتين سنة ٩١٠ م ديراص جديداً فى كلونى ، وقد نزع أفراد ذلك الدير نحو إصلاح المبادئ الرهبانية التى وضع أساسها القديس بندكت ، من ذلك أن دير كلونى لم يقبل إرضاء من أمير إقطاعى مقابل ارتباطات إقطاعية معه ، وإنما تلقى المنح والهبات – من أراضى وغيرها – حرة غير مشروطة .

وإذا كان الدير البندكتى رفع من شأن العمل ، الأمر الذى تطلب من الديريين البندكتيين القيام بقسط وافر من العمل فى حقول الأراضى التابعة للدير ، إلا أن الدير الكلونى لم يحرص على التمسك بذلك المبدأ

ذك أن الأراضى التى كانت منح للأديرة عليها أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها ولسد فراغ الدريين الكلونيين فإنهم اتجهوا نحو مضاعفة الساعات المخصصة للعبادة والتأمل .

وفى نفس الوقت رأى زعماء حركة الإصلاح الكلونية إصلاح الكنيسة لن يتحقق إلا بانفصال السلطة الدينية عن السلطة الزمنية بمعنى أن يكون النظام الديرى تابعاً للبابوية تبعية مباشرة دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين حق الإشراف على الأديرة الكلونية ، وهكذا صارت الأديرة الكلونية لا تخضع إلا لمقدم الدير الرئيسى فى كلونى الذى له حق التفتيش عليها من حين لآخر ولا يخضع ذلك المقدم إلا لسلطة البابا وحده ، وبعد أن كانت حركة الإصلاح الكلونية تستهدف فى أول أمرها إصلاح الحركة الديرية ، غذ بها فى القرن الحادى عشر تمد حركتها الإصلاحية لتصبح منهجاً للإصلاح الكنسى العام فى جميع أنحاء الغرب الأوروبى ، وكانت الكنيسة وقتئذ تعانى ثلاثة أمراض خطيرة ، هى السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى .

والمقصود بالسيمونية شراء الوظائف الدينية وبيعها ، وهو الأمر الذى أضعف الكثير من رجال الدين وأفقدهم أهميتهم وأحقيتهم فى هداية الناس ، ويرجع السبب فى انتشار السيمونية وذيوعا إلى ما تمتعت بها الأديرة والأسقفيات ن ثروات طائلة ، دفع الكثير من الطامعين إلى شراء المناصب الدينية بالمال من الحكام العلمانيين أو رؤساء الأسقفيات .

أما عن زواج رجال الدين أن الأساقفة ظلوا عزاباً فى حين تزوج القساوسة وصغار رجال الدين ، وقد حرصت الكنيسة على ضرورة إلزام

رجال الكنيسة بحياة العزوبية أسوة برهبان الأديرة لما فيه من تطهير للنفس ، والمعروف أن الاتجاه السائد منذ القرن العاشر كان يميل إلى توريث الوظائف الإقطاعية مما أدى بدوره إلى اتجاه رجال الدين المتزوجين إلى توريث أبنائهم وظائفهم الدينية .

أما التقليد العلمانى فالمقصود به هو أن يقوم الحكام العلمانيون – من أباطرة وملوك وأمراء – بتقليد رجال الدين مناصبهم الدينية ، ذلك أن رجال الدين لم يقتصروا على واجبهم الدينى وإنما صاروا يملكون الإقطاعات الواسعة التى جعلتهم لا يقلون شأن عن أصحاب الإقطاعات من الأمراء والسادة الإقطاعيين ، ولهذا صارت للأسقف صفتان ، إحداهما دينية باعتباره ممثلاً للكنيسة التى يرأسها البابا ، والأخرى دنيوية باعتباره صاحب إقطاع ، ويجب عليه الخضوع للتقاليد الإقطاعية التى تنص على أن الأرض ملك الإمبراطور وهو الذى يمنحها لأفصاله ، ولذا انصرف الأساقفة عن خدمة واجبهم الدينى وصاروا خاضعين للسلطة الزمنية ومن أجل صالحهم الخاص .

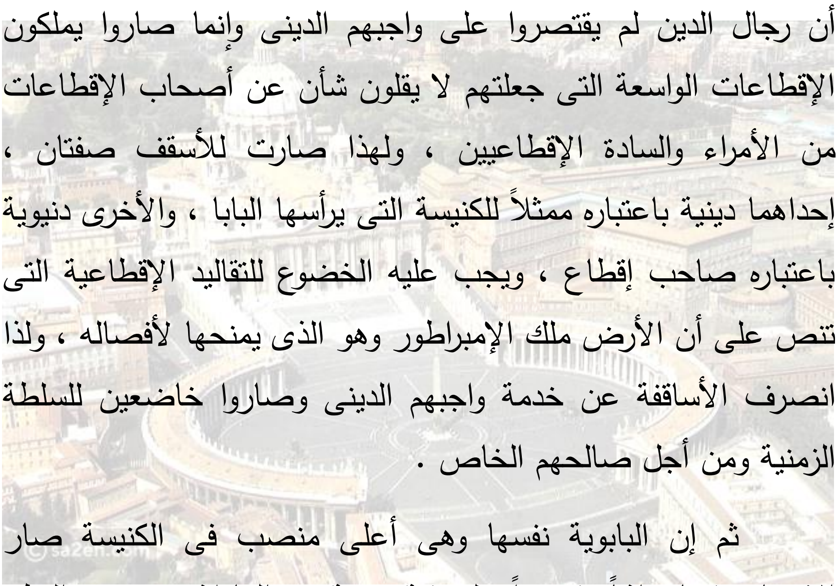

ثم إن البابوية نفسها وهى أعلى منصب فى الكنيسة صار الانتخاب فيها وراثياً مقصوراً على فئة معينة من العائلات بصرف النظر عن لياقة البابا لمهام منصبه الدينى ، ومما يدل على ذلك أنه عقب وفاة البابا يوحنا سنة ١٠٣٣م حل محله على الكرسى البابوى أحد أقربائه وهو بندكت التاسع الذى بلغ إذ ذاك الثانية عشر من عمره ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تعداه إلى تدخل الأباطرة والأمراء فى اختيار البابا نفسه ، ففى كثير من الأحيان اختاروا بابوات من غير رجال الدين ، ما دام ذلك يتفق وأغراضهم على أن ذلك لم يكن قاعدة تصلح لتطبيقها

على جميع الأباطرة ، إذا وجد منهم من بلغ مبلغاً رفيعاً فى التقى والورع – مثل هنرى الثالث (١٠٣٩ – ١٠٥٦ م) – كان عليهم صون البابوية من ضغط نبلاء روما الصاخبين ، أو عزل أحد البابوات ممن وصلوا إلى الكرسى البابوى عن غير جدارة ، وعلى أية حال فقد دعا البابا نيقولا الثانى إلى عقد مجمع دينى فى روما سنة ١٠٥٩م لتنظيم اختيار منصب البابا وإنقاذ البابوية من الهوة التى غرقت فيها ، وقرر المجتمعون فى هذا المجمع ضرورة اختيار البابا من رجال الإكليروس فى روما نفسها ، إلا فى حالة عدم توافر الشروط المطلوبة للمنصب البابوى فى أحدهم ، فضلاً على أن يتم اختيار البابا بطرق الانتخاب عن طريق هيئة دينية تضم الصفوة الصالحة من رجال الدين .

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥ م) :

بدأت البابوية صفحة جديدة فى تاريخها منذ عهد البابا ليو التاسع (١٠٤٨ – ١٠٥٤م) الذى لم ينظر إلى البابوية كما نظر إليها أسلافه ، بل رأى فيها مؤسسة عالمية ذات سلطان مطلق وسمو غير محدود واستقلال تام ، ومنذ ذلك الوقت بدأت البابوية تخطو خطوات واسعة نحو استقلالها عن السلطة الزمنية .

على أن سمو البابية وعلو شأنها بلغا الذروة على يد هلد براند الذى نودى به بالإجماع لتولى منصب البابوية سنة ١٠٣٧م تحت اسم جرويجورى السابع ، وهلد براند من مواليد توسكانيا إحدى المقاطعات الإيطالية الوسطى ، ومن ثم التحق بدير القديسة ماريا الواقع على ا؛د تلال روما ، وفى هذا الدير تلقى هلد براند مبادئ الإصلاح الكنسى ، ثم التحق بخدمة البابوات وتدرج فى الوظائف حتى تقلد منصب سكرتير

البابا ليو التاسع صاحب مبدأ السمو البابوى وتمتع جريجورى السابع بصفات أهلته للدور العظيم الذى قام به من أجل النهوض بالبابوية ، إذ اشتهر بسعة الحيلة والذكاء وقوة العزيمة والشجاعة والصرامة التى جعلته لم يتزحزح عن رايه قيد أنملة ، ولم يلبث أن نادى البابا جرويجورى " بأن العالم بأسره دولة مسيحية واحدة يسيطر عليها بابا له العصمة ، وله القدرة ، لا يحده قانون ، ولا يزعه وازع ، وهو الذى يخلع المسيئين من الملوك ، ويثل عروشهم ويقطعهم من رحمة الكنيسة ويحل رعيتهم من طاعتهم " ، أما عن زواج رجال الدين فقد دعا جريجورى السابع إلى عدم التعاون مع أى قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بتعاليم البابوية كما منع القساوسة المتزوجين من الوعظ فى الكنائس وحرم على الناس الاستماع إليهم ، ولم تقف آراء جريجورى السابع عند ذلك الحد ، إذا أعلن استعداده للعمل فى كل ما من شأنه أن يحقق استقلال البابوية وأصر على أن تكون الكنيسة مستقلة بشئونها تمام الاستقلال ، وحول مسألة التقليد العلمانى تتضح لنا نظرية جريجورى السابع عن سيادة البابوية على غيرها من القوى ، ومن بينها الإمبراطورية نفسها ، وحينما عبر عن ذلك بقوله : " البابا علم مفرد فى الدنيا ، لا يدانيه أحد ، ومن حق البابا أن يخلع الأباطرة إذا شاء لأن الملكية من صنع البشر ، وأما الكنيسة فمن صنع الله ، فالبابا فوق الأباطرة " وقد أيد رأيه قائلاً : " لما كانت الروح أسمى من الجسم ، والشمس ألمع من القمر ، فالسلطة الدينية قياساً على ذلك أعلى من السلطة الزمنية " .

وأخيراً أعلن جريجورى السابع فى مجمع دينى عقده بروما سنة ١٠٧٥م رأيه القاطع بشأن التقليد العلمانى أنه ليس من حق الحاكم

العلمانى كائناً من كان أن يقلد أحداً من رجال الكنيسة مهما كانت وظيفته الدينية ، وأن الإقدام على ذلك هدم للقانون الإلهى ومن ثم فإنه يحرم من الكنيسة فوراً .

ومن الواضح أن إنكار البابا جريجورى السابع التقليد العلمانى علناً فيه تحد صارخ لجميع الحكام العلمانيين مما أنذر بصدام عنيف معهم ذلك النزاع الذى شغل أوروبا طوال القرنين التاليين ومن المؤكد أن جريجورى السابع لم يخط تلك الخطوة إلا بعد أن اطمأن إلى طريقه تمام الاطمئنان إذ وقف إلى جانبه رجال الأديرة الكلونية التى ساندته فى تنفيذ سياسته البابوية .[٧]

النضال بين البابوية والإمبراطورية[٨] :

شاء الظروف عندما توفى هنرى الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ م أن خلفه فى المنصب الإمبراطورى ابنه هنرى الرابع الذى كان طفلاً قاصراً لم يبلغ السادسة من عمره ، فلبث تحت الوصاية حتى سنة ١٠٦٥م ، وهى السنة التى تسلم فيها مقاليد الحكم ، ولاشك أن سنوات الوصاية أعطت لحركة الإصلاح الكلونية الفرصة لتلعب دورها فى إصلاح الكنيسة الغربية من ناحية ، وازدياد نفوذ البابوية من ناحية أخرى ، هذا فى القوت الذى لم تستقر فيه الأوضاع فى ألمانيا وخاصة فى سكسونيا .

وقد بدأت أحداث الصراع بين هنرى الرابع والبابوية عندما أصدر البابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٥م قراره ضد التقليد العلمانى ، الأمر الذى أزعج هنرى وبقية ملوك الغرب الأوروبى جميعاً بوجه عام

وأثار مخاوفهم ، والواقع أن النزاع بين البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة مر بعدة أوار . (٩)

الدور الأول :

لم يعبأ هنرى الرابع بقرار البابا جريجورى السابع حول مشكلة التقليد العلمانى لأن حرمان الإمبراطور من التقليد العلمانى معناه تحول ثروات وأراضى الإمبراطورية إلى البابوية ، وظل يقوم بأشغال بعض الأسقفيات الشاغرة بالمناصب باعتبار أنه وحده صاحب الحق ، ولم يقبل البابا ما قام به الإمبراطور ، إذ تمسك من جانبه بنصيب السمو البابوى ، وبحكم أنه خليفة المسيح فى الأرض ورأى فى انتصاره على الإمبراطور أمر يعيد إلى البابوية هيبتها وكرامتها .

وعند ذلك أرسل البابا إلى الإمبراطور رسالة شديدة اللهجة ينذره فيها بالويل وعظائم الأمور إن لم يخضع لرأى البابوية ويرجع عن تقليده لرجال الدين ، فثارت ثائرة هنرى الرابع ، ودعا إلى عقد مجمع دينى فى وورمز سنة ١٠٧٦م ، قرر فيه بطلان انتخاب جريجورى السابع وعزله من منصبه ، ولكن البابوية أسرعت بدورها إلى عقد مجمع قررت فيه إصدار قرار الحرمان ضد هنرى ونادت بعزله من منصبه ، ودعت جميع رعاياه إلى التحلل من إيمان الولاء والتبعية الذى بذلوه له .

والواقع أن كفتى البابوية والإمبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقاً عندما بدأ النزاع بين الطرفين ، لأن البابا كان فى استطاعته الاعتماد على شعور المعاصرين ، فضلاً عن الأسانيد المستمدة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو البابوية ، فى حين أن الإمبراطور

لم يكن له سوى سندين أولهما القانون الرومانى الذى يمجد الإمبراطورية وسلطتها ، وهو مستمد من أصول وثنية من السهل على البابوية الطعن فيها ، والآخر الجيش الإمبراطورى الذى ثبت عجزه فى كثير من الأحيان .

وعلى أية حال بعد أن قام البابا بإصدار قراره بعزل الإمبراطور وقطعه من رحمة الكنيسة اتبع خطواته بعقد تحالف مع جاره روبرت جويسكارد النورماندى حاكم جنوب إيطاليا ومع روجر صاحب صقلية ، هذا فى الوقت الذى وضعت فيه ماتيلدا جيوش إمارتها فى توسكانيا تحت تصرف البابوية ، أما فى ألمانيا فسرعان ما استغل السكسون فرصة صدور قرارات البابا وقاموا بثورة ضده ، استطاعت طرد الحاميات الملكية من أراضيهم على حين عمد رجال الإقطاع إلى توسيع سلطاتهم على حساب الإمبراطور ، ثم عقد الأمراء الإقطاعيون والأساقفة مجمعاً فى مدينة تريبو ***Tribur*** على نهر الراين فى أكتوبر سنة ١٠٧٦م ، قرروا فيه الخروج عن طاعة الإمبراطور ونادوا بأنه إذا لم يغفر البابا ويعفو عنه فإنه سوف يفقد عرشه إلى الأبد .

وتلفت هنرى حوله فلم يجد له نصيراً ، وألقى نفسه وحيداً وسط محيط من الأعداء ، فأعمل فكره وبعد تفكير طويل ضرب بكبريائه عرض الحائط وخرج سراً هو وزوجته ومعه ابنه وعبر جبال الألب والشتاء على أشده وتوجه إلى مقر البابا الذى احتمى فى قلعة كانوسا التابعة لحليفته ماتيلدا فى توسكانيا ، وهناك وقف الإمبراطور على باب القلعة ثلاثة ايام وهو فى لباس التائبين المصنوع من الصوف حافى القدمين حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه ، ودخل

الإمبراطور والدموع تتساقط من عينيه حيث أعلن الندم ، وطلب من البابا الغفران ، فغفر له البابا بعد شروط قاسية هى التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون قيد ، وعندئذ حصل هنرى الرابع على بغيته ، ولكن بعد أن دفع الثمن غالياً على حساب هيبة الإمبراطورية التى أحست بالإذلال والمهانة .

دلت حادثة كانوسا على أنها لم تكن مكسباً للبابوية على الرغم من خروج البابوية مرفوعة الرأس بتحقيقها نظرة السمو البابوى وذلك أن مسلك جريجورى أثار شعور الكثير من المسيحيين وعابوا عليه شدته وقسوته ، أما بالنسبة لهنرى الرابع ، فإن خضوعه للبابوية لم يؤد إلى استرضاء خصومه من ألمراء فى ألمانيا ، فضلاً عن حلفائه من اللومبارديين فى شمال إيطاليا ، وانتهى الأمر بأن قرر الأمراء الألمان عزل هنرى الرابع واختيار رودلف سوابيا ملكاً بدله ، مما أدى إلى قيام حروب أهلية استمرت قرابة ثلاثة سنوات وفتحت باب النزاع من جديد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع .

أعلن البابا رأيه فى أنه يؤيد رودلف فعقد مجمعاً دينياً سنة ١٠٨٠م أعاد فيع توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وعزله ، ولكن هنرى لم يستسلم هذه المرة وأظهر إصراراً وحمساً بالغين ، لذلك رد على البابا بأن عقد مجمعاً قرر فيه عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة وانتخاب جيوبرت – الذى اتخذ اسم كليمنت الثانى – رئيس أساقفة رافنا ، ليخلفه على الكرسى البابوى ، وهكذا وجد على مسرح الأحداث اثنان من البابوات يتنازعان الكرسى البابوى واثنان من الملوك

يتنازعان عرش الإمبراطورية واختار الحظ أن يقف فى صف هنرى الرابع عندما قتل رودلف (أكتوبر سنة ١٠٨٠م) فى المعركة التى دارت بين الطرفين ، وبذلك تخلص هنرى من منافس خطير ولم يبق أمامه سوى جريجورى السابع فشرع فى عبور جبال الألب إلى إيطاليا على رأس قواته ، وفرض عليه الحصار قرابة ثلاث سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٤م) فى روما ، من قلعته الحصينة أرسل جريجورى يستحث حلفائه من النورمان فى جنوب إيطاليا للإسراع إلى نجدته ، وكان أن تقدم روبرت جويسكارد نحو روما ، لا حرصاً على مساعدة البابا ولكن خوفاً من ازدياد نفوذ هنرى الرابع ، ولم يكن الأخير فى وضع يساعده على محاربة النورمان فآثر الانسحاب إلى ألمانيا فى حين توفى خصمه جريجورى السابع فى مايو ١٠٨٥ م .

على ان وفاة جريجورى السابع لم تضع حداً لمشكلة التقليد العلمانى ، إذا تمسك خلفاؤه من البابوات بحقوقهم فى التقليد العلمانى ، هذا فى الوقت الذى تيقنوا فيه أن هنرى الخامس (١١٠٥ - ١١٢٥م) [١٠] ، لم يقل عن أبيه تمسكاً بحقوقه فى التقليد العلمانى ، أنه أخذ - بمجرد اعتلائه العرش - يملأ الأسقفيات الشاغرة فى الإمبراطورية حسب رغبته دون الرجوع إلى البابوية .

غير أن دائرة النزاع بين البابوية والإمبراطورية حول مشكلة التقليد العلمانى بدأت تضيق عندما تم انتخاب كالكستس الثانى (١١١٩ - ١١٢٤م) لكرسى البابوية ، إذا كان البابا الجديد رجلاً سياسياً قديراً لبقا ومعتدلاً صمم على إنهاء النزاع مع الإمبراطورية فأرسل مبعوثين إلى هنرى الخامس للتفاوض معه موضحاً له أن هدف البابوية ليس إضعاف

الإمبراطورية أو التقليل من شأنها وغنما العمل على تقويتها ، وصادفت آراء كالكستس الثانى هوى فى نفس هنرى الخامس الذى آثر الوصول إلى حل سلمى ، وانتهت المفاوضات بعقد اتفاقية وورمز الشهيرة بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى سنة ١١٢٢م ، ونصت الاتفاقية على أن يتخلى الإمبراطور عن الجانب الدينى عند تقليد الأساقفة حيث تتولى ذلك البابوية ، وفى مقابل ذلك لا تتدخل البابوية بدورها فى أمر منح الأساقفة إقطاعيات من قبل الإمبراطور ، ومن ثم جرى العرف على أن البابا هو الذى ينصب الأساقفة ، وبعد الانتهاء من الاحتفال الدينى الخاص بذلك يستطيع الإمبراطور أن يكلفه أو يزوده بأى حقوق إقطاعية ، ونصت اتفاقية وورمز أيضاً على أن يكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب طبقاً للتقاليد الكنسية ، وفى ألمانيا يسمح للإمبراطور أو مندوبين عنه ، بحضور عملية الانتخاب دون الالتجاء إلى السليمونية أو العنف أو التأثير على سير الانتخابات . والواقع أن اتفاقية وورمز سنة ١١٢م وضعت حداً لمسألة التقليد العلمانى عندما تنازلت الإمبراطورية عن حقها الذى مارسته طويلاً فى اختيار الأساقفة تركته للبابوية ، على حين وافقت البابوية على أن يستعين الأباطرة برجال الدين فى إدارة ممتلكاتها ، ويمكن القول أن الاتفاقية اتسمت بروح الاعتدال والرغبة فى التفاهم بين الفريقين ولم يستأثر فريق دون آخر بتقليد رجال الدين وبقى الأمر مناصفة .

الدور الثانى :

إذا كانت اتفاقية وورمز قد وضعت حداً لمشكلة التقليد العلمانى إلا أنها لم تضع حداً للنزاع الحقيقى بين السلطتين الدينية والدنيوية ، إذا

ثبت أن تلك الاتفاقية لم تنص صراحة لمن تكون له السيادة العليا البابوية أم الإمبراطورية ، ومن هنا كان لابد من اصطدام القوتين مرة أخرى ، لأن مشكلة التقليد العلمانى لم تكن فى حقيقة أمرها إلا مظهراً للتنافس بين البابوية والإمبراطورية على سيادة العالم المسيحى ، على أية حال فقد ساعدت الظروف فى شطرى الإمبراطورية فى كل من ألمانيا وإيطاليا على استمرار هدوء الأحوال التى سادت عقب اتفاقية وورمز ، أما البابا كالكستس الثانى والإمبراطور هنرى الخامس ، فلم يقدر لهما الحياة طويلاً بعد توقيع الاتفاقية إذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الآخر فى مايو ١١٢٥م .

انتهزت البابوية فرصة ضعف الإمبراطورية وسوء الأحوال بها على عهد كونراد الثالث (١١٣٨ – ١١٥٢م) ، لاسيما بعد ضياع هيبته فى إيطاليا ، فعقد البابا أنوسنت الثانى مجمعاً دينياً سنة ١١٣٩م أعلن فيه عدم ارتباطه باتفاقية ووزمز وأن له السيادة العليا على جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها ورغم هذا كله فقد أبى كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة مع البابوية مفضلاً العمل على حل مشاكله فى ألمانيا وتوطيد نفوذه بها .

وعندما توفى كونراد الثالث سنة ١١٥٢م خلفه ابن أخيه فريدريك بربروسا (١١٥٢ – ١١٩٠م) [١١] ، الذى اتصف بالشجاعة والولع بالمغامرة والفصاحة والكبرياء ، والإيمان العميق بعظمة الإمبراطورية وسموها المطلق ، وقد أخذ فردريك يعمل على تدعيم الإمبراطورية واسترداد مكانتها القديمة ، وقد رأى أنه لا يمكن إعادة الهيبة

للإمبراطورية إلا بالربط بين جرأى الإمبراطورية فى إيطاليا وألمانا ، ويبدو أن الموقف فى إيطاليا كان خطيراً إذ ذاك ، فالبابوية أرهقها الصراع ضد النورمتان فى الجنوب ، فى حين استطاعت المدن اللومباردية فى شمال إيطاليا أن تتحرر من نفوذ الأمراء الإقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة ومن ثم أسرع فردريك بالتوجه إلى إيطاليا سنة ١١٥٤م ، وهناك استطاع أن يخضع المدن اللومباردية ويعيدها إلى سيادته ، وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الأحوال القائمة فى إيطاليا قد اضطرت البابا والإمبراطور إلى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة التى هددت نفوذهما من القومونات الإيطالية من جهة وخطر النورمان فى الجنوب من جهة أخرى فإن هذا الاتفاق لم يكن معناه التنازل عن المشاكل الكبرى بين الطرفين .

وشاءت الظروف أن اختار البابا الكاردينال رولاند رسولاً إلى الإمبراطور فردريك بربروسا إلى ألمانيا ليعرب عن استياء البابا إزاء بعض التصرفات الضارة من الإمبراطور ، وعندما دخل الكاردينال على الإمبراطور سنة ١١٥٧م حياه قائلاً : " إن البابا يحييك كوالد ، والكرادلة يحيونك كأخوة " ، فدهش الإمبراطور من هذه التحية التى جعلته فى وضع مساوٍ للكرادلة ليس هذا فقد بل جاء فى رسالة البابا عبارة مؤداها أن التاج الإمبراطور ***Beneficum*** من البابا ، وهذا اللفظ اللاتينى يحتمل معنيين ، إذ يمكن تفسيره على أنه يعنى " جميلاً أو معروفاً ***Benefit*** " كما يمكن تفسيره بمعنى " إقطاع ***Benefice*** " واختار الإمبراطور أن يفسر اللفظ بمعناه الأخير ، أى أن البابا يعتبر التاج الإمبراطورى منحة إقطعها للإمبراطور ، ومن أجل هذا ثار فردريك

لكرامته ، لاسيما عندما أكد الكاردينال تفسير اللفظ بمعنى " إقطاع " ويبدو أن البابا أدرك خطأه فاضطر إلى التصريح فى أوائل العام التالى (١١٥٨م) بأنه قصد اللفظ بمعناه العام – أى معروف – ولم يقصد معناه الإقطاعى الخاص ، وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع مع الإمبراطور .

غير أن الاحتفاظ بالنفوذ الإمبراطورى فى شمال إيطاليا كان صعباً ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المدن اللومباردية بشمال إيطاليا دخلت فى حلف مع البابوية خشية ضياع استقلالها ، وهنا واجه فردريك الأمور بشدة فشرع فى محاصرة المدن الثائرة ، حتى أجبرها على الاستسلام سنة ١١٦٢م وعندئذ دمرها وأعاد نفوذه إليها .

على أن أهم ما يعنينا من الأحداث فى إيطاليا وقتئذ أن المدن اللومباردية كونت فيما بينها حلفاً عرف باسم " الحلف اللومباردى " سنة ١١٦٨م الذى استع حتى شمل جميع مدن سهول إيطاليا الشمالية ، ولم يلبث الحلف اللومباردى أن اكتسب قوة جديدة عندما باركه البابا وأيده مما أدى إلى أن صارت إيطاليا من الناحية العلية خارج نفوذ الإمبراطور ، ولم يكن فردريك بالذى يرضى بهذا الوضع ، وهو الإمبراطور المتمسك بعظمة الإمبراطورية وسموها ، ومن ثم قام بحملته الخامسة على إيطاليا سنة ١١٧٤م ، وهاجم المدن اللومباردية وحينئذ دارت رحى معركة شديدة بين الطرفين عند لينانو ***Legnano*** إلى الشمال الغربى من ميلان انتهت بهزيمة الإمبراطور وفراره .

وأمام هزيمة ليnano القاسية سئم فردريك بربرسا النضال فى الوقت الذى هدده فيه بعض أعوانه بالخروج عليه ، ولذلك عقد النية على مفاوضة البابا والوصل إلى تسوية معه ، ولم يكن البابا اسكندر الثالث أقل رغبة فى عقد الصلح ، ومن ثم استمرت المفاوضات بين الجانبين انتهت بمقابلة بين فردريك بربروسا واسكندر الثالث فى يوليو سنة ١١٧٧م ، وفى هذه المقابلة كرر فردريك ما سبق أن قام به الإمبراطور هنرى الرابع فى قلعة كانوسا ، إذ ركع أمام البابا طالباً منه العفو والمغفرة ، وبعد أن تم الصلح تعهد فردريك برد جميع الأراضى المغتصبة من البابوية ، كما تعهد كل من الطرفين بمساعدة الآخر ضد أى خطر يهدده .

وقد أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين البابوية والإمبراطورية على أن يتفرغ فردريك لشئونه فى ألمانيا بعد أن شغلته أحداث إيطاليا عنها وتبع ذلك أن تفكك الحلف اللومباردى بعد أن زال الخطر الإمبراطورى وصادف أن توفى البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨١م الأمر الذى جعله يترك فراغاً كبيراً فى روما لأن أحداً من البابوات الخمسة الذين خلفوه فى منصب البابوية بين سنتى ١١٨١ ، ١١٩٨م لم يبق فى منصبه مدة طويلة تسمح له بالقيام بعمل جدير بالأهمية .

ثم أن الأحداث فى بلاد الشام ساعد على انتهاء ذلك الدور من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية ففى الوقت الذى وصلت فيه الأخبار من الشرق تحمل أنباء سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٨٧م وما حل بصليبى الشام من دمار وخراب لم يكن أمام البابوية إزاء ذلك الموقف العصيب إلا أن تعيد السلام إلى أوروبا

والعمل على توجيه الجيوش إلى الشرق الأدنى بغية استعادة بيت المقدس من أيدى المسلمين فاسترضت البابوية فردريك لما عرف عنه من شهرة وشجاعة ودعته إلى الاشتراك فى حملة صليبية ، ولم يلبث فردريك بربروسا أن غادر ألمانيا سنة ١١٨٩م على رأس الشطر الألمانى من الحملة الصليبية الثالث غير أن الأقدار شاءت أن يلقى هذا الإمبراطور مصرعه غرقاً فى أحد أنهار آسيا الصغر سنة ١١٩٠م قبل أن يصل إلى الأراضى المقدسة . (١٢)

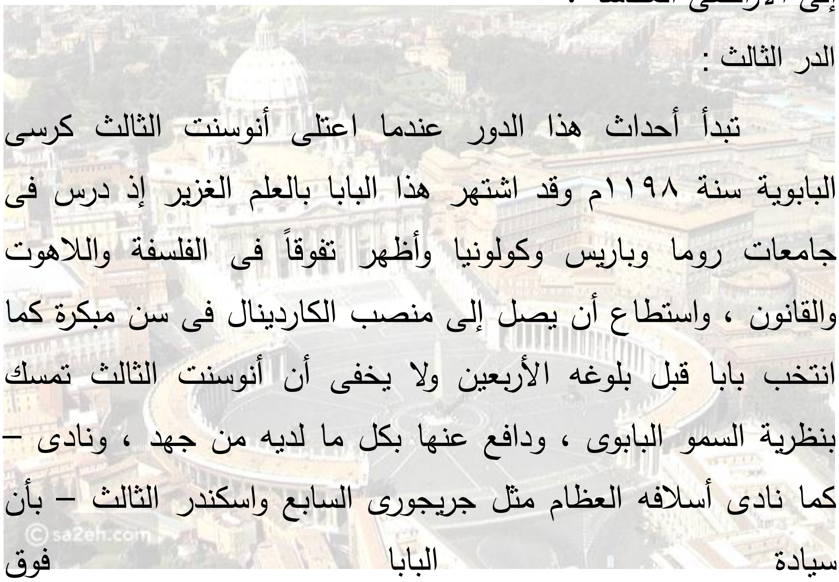

الدر الثالث :

تبدأ أحداث هذا الدور عندما اعتلى أنوسنت الثالث كرسى البابوية سنة ١١٩٨م وقد اشتهر هذا البابا بالعلم الغزير إذ درس فى جامعات روما وباريس وكولونيا وأظهر تفوقاً فى الفلسفة واللاهوت والقانون ، واستطاع أن يصل إلى منصب الكاردينال فى سن مبكرة كما انتخب بابا قبل بلوغه الأربعين ولا يخفى أن أنوسنت الثالث تمسك بنظرية السمو البابوى ، ودافع عنها بكل ما لديه من جهد ، ونادى – كما نادى أسلافه العظام مثل جريجورى السابع واسكندر الثالث – بأن سيادة البابا فوق كل سيادة بما فى ذلك الإمبراطور نفسه ، وأوضح أنوسنت الثالث نظريته عن السمو قائلاً : " إن الله خلق الشمس والقمر ليستضئ النهار بالأول والليل بالثانى ، وأن الله خلق فى سماء الكنيسة قوتين أولهما البابوية لتشرف على أرواح الناس وثانيهما الملكية لتحكم الأجساد ، ولكن سلطان الأولى أسمى بكثير من سلطان الثانية ، فمثلما يستمد

القمر ضوءه من الشمس كذلك تستمد الإمبراطورية ضوءها من البابوية " .

وربما كان من العوامل التى ساعدت على ظهور البابا أنوسنت الثالث عدم وجود شخصية قوية على رأس الإمبراطورية فضلاً عن النزاع الشديد الذى نشب فى ألمانيا حول تاج الإمبراطورية وكان أن تغلب أوتو الرابع سنة ١٢٠٧م على منافسيه بعد حرب أهلية دامت عشر سنوات ، ثم توجه بعد ذلك سنة ١٢٠٩م إلى إيطاليا ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك ألمانيا وهناك انتهز أوتو الرابع فرصة مقابلته للبابا فأقسم له على احترام حقوق الكنيسة كما أقسم على أن يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين وأن يساند البابا ضد خصومه ، وفى مقابل ذلك كافأه البابا بتتويجه إمبراطوراً .

ولكن سرعان ما غير الإمبراطور موقفه بعد تتويجه فانقلب على البابا بعد أن أفزعته سياسته وأطماعه فى إيطاليا وبادر إلى تجهيز جيش زحف به على إيطاليا ، ولم يسع البابا إزاء ذلك سوى إصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور والسماح لرعاياه بالخروج على طاعته والمناداة بفردريك الثانى إمبراطوراً ، ولم يلبث أن غادر فردريك الثانى صقلية قاصداً روما حيث أعلن ولاءه للبابوية ثم توجه إلى ألمانيا وجرى تتويجه ملكاً على ألمانيا سنة ١٢١٢م ولم يقف أوتو الرابع مكتوف اليدين بل استنجد بخاله حنا ملك إنجلترا مما جعل فردريك الثانى يؤلف حلفاً مع فيليب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية ، ومن الواضح أن التحالف الذى كونه فردريك كان أقوى من التحالف الذى كونه أوتو الرابع وظهر واضحاً عندما دارت الحرب بين الفريقين فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤م

، انتهت بانتصار فردريك وفرار أوتو بعد أن سبقه أنصاره إلى ذلك ، وبذلكأصبح فردريك الثانى الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حكم ألمانيا والصقليتين .

والواقع أن فردريك الثانى يعتبر من أبرز شخصيات العصور الوسطى التى تبهر العقول والأبصار بعظمتها ذلك أنه ولد من أب ألمانى وأم نصف إيطالية ، وتلقى تعليمه فى صقلية حتى أنه أجاد الكتابة والتحدث بست لغات من بينها العربية ، ونظم الشعر ، ونشأ محباً للفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب ، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والفنون ، وإلى جانب ذلك كان سياسياً ماهراً ومحارباً شجاعاً حتى أطلق عليه المعاصرون " أعجوبة الدنيا " .

وكان فردريك الثانى قد وعد البابا أونسنت الثالث سنة ١٢١٥م بالقيام بحملة صليبية فى الشرق ولكنه عاد فأخذ فى المماطلة ، مما يعطى انطباعاً بعدم جديته فى القيام بمشروعه الصليبى ، هذا فى الوقت الذى كانت البابوية ترغب فى إرسال حملة حنا برين على مصر (١٢١٩ – ١٢٢١م) ، وتطور الموقف بين البابوية والإمبراطورية عندما اعتلى جريجورى التاسع كرسى البابوية (١٢٢٧ – ١٢٤١م) فرفض الأعذار التى انتحلها فردريك ، واصدر قرار الحرمان ضده ، ومن الواضح أن توقيع قرار الحرمان على الإمبراطور لم يكن سببه مماطلة الأخير فى القيام بمشروعه الصليبى بقدر ما كان تخوف البابوية من سياسة فردريك فى إيطاليا من جهة وتجاه البابوية من ناحية أخرى ، وعلى أية حال فإن الموقف القائم بين الفريقين سرعان ما فتح باب النزاع من جديد بين البابوية والإمبراطورية .

ويبدو أن فردريك الثانى رأى أن من صالحه القيام بمشروعه الصليبى فى الشرق حتى يبدو فى صورة المدافع عن المسيحية فى نظر معاصريه ، فوصل إلى عكا سنة ١٢٢٨م على رأس حملة صغيرة ويفهم من حجم تلك الحملة أنه لم يخرج إلى الشرق بقصد الحرب وإنما بهدف إحراز نصر بطريق المفاوضات .

وبالفعل عقد فردريك الثانى من السلطان الكامل بن العادل الأيوبى معاهدة سنة ١٢٢٩م تبيح بمقتضاها للحجاج المسيحيين زيارة الأماكن المقدسة مدة عشر سنوات ، وقد تم ذلك دون أن ينفق مالاً أو يهدر دماً مما يدل على مهارته السياسية ، وكان أن دخل فردريك الثانى كنيسة القيام فى بيت المقدس حيث أعلن بطلان قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده ، وتوج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة .

ولم تطل إقامة فردريك فى الأرض المقدسة إذ لم يلبث أن عاد بسرعة إلى إيطاليا ليجد أن البابا استغل فرصة غيابه فى الأراضى المقدسة وقامت قواته بالإغارة على أملاكه فى جنوب إيطاليا ، بل بلغ الأمر أن أذاع خبر وفاته الإمبراطور فى الشرق بهدف الاستيلاء على أملاكه من ناحية وإضعاف مركزه فى إيطاليا وألمانيا من ناحية أخرى ، وفى تلك أثناء شعرت المدن اللومباردية بالقلق بسبب ازدياد نفوذ الإمبراطور فى إيطاليا الأمر الذى دعاها إلى تجديد الحلف فيما بينها سنة ١٢٣٢م لمواجهة ذلك النفوذ الذى رأت فيه عدواً لحريتها ، غير أن الإمبراطور استطاع إنزال الهزيمة بقوزات الحلف اللومباردى عند كورتنوفا ***Cortebuova*** قرب ميلان سنة ١٢٣٨م ، ويبدو أن تلك الهزيمة أثارت استياء البابا خاصة عندما أخذ فردريك يحرض أهالى

روما ضده ، وبلغ الاستياء بالبابا حداً بعيداً جعله يصدر قرار الحرمان – للمرة الثانية – ضد الإمبراطور وتحريض رعاياه ضده ، ول يكتف البابا بذلك بل بذل جهوده فى إثارة المتاعب ضد الإمبراطور فى ألمانيا ، ولكن جهوده بائت بالفشل مما مكن الإمبراطور من مواصلة حروبه فى إيطاليا ضد البابا ومهاجمة الأراضى الموالية له ، وأخيراً لم يجد البابا وسيلة لإحراج فردريك الثانى سوى عقد مجمع دينى فى روما سنة ١٢٤١م أنزل فيه اللعنة على الإمبراطور .

ولم يلبث البابا جريجورى التاسع أن أدركته الوفاة فى أغسطس سنة ١٢٤١م ، وجاء من بعده البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣–١٢٥٤م) الذى لم يكن أقل حماسة وتمسكاً بنظرية السمو البابوى عن سلفه ، وخلال نزاعه مع الإمبراطور لجأ إلى عقد مجمع دينى فى ليون سنة ١٢٤٥م ، قرر فيه عزل فردريك من منصبه الإمبراطورى وسوف يقوم باختيار من يحل محله فى هذا المنصب ، وأخذ البابا يعرض التاج الإمبراطورى على بعض ملوك وأمراء أوروبا وتنظيم عناصر المقاومة ضد الإمبراطور فى ألمانيا نفسها ، وفى تلك المرحلة وصل النزاع بين البابوية والإمبراطورية ذروتها ، فبذل البابا أقصى ما لديه من جهد للحيلولة ون قيام وحدة إمبراطورية تجمع بين ألمانيا وإيطاليا ، وقد تحقق ما كان يصبو إليه البابا إذ سرعان ما ثارت المدن اللومباردية فى وجه الإمبراطور ، كما ثار ضده كذلبك أمراء أبوليا فى جنوب إيطاليا ، بينما كان الإمبراطور فردريك فى طريقه من جنوب إيطاليا إلى شمالها داهمته الوفاة فجأة فى ديسمبر سنة ١٢٥٠م ، وبوفاته انتهت الصفى العالمية

للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لأنه فى الواقع كان آخر العظماء الذين تمسكوا بسمو الإمبراطورية وعظمتها .

ومن الواضح أن حوادث النزاع بين البابوية والإمبراطورية جعلت الأباطرة يولون عنايتهم بإيطاليا على حساب ألمانيا ، ولاشك أن البابوية فى هذا الدور من أدوار النزاع بينها وبين الإمبراطورية حققت انتصارها على الأخيرة بعد أن صار من الواضح عجز الأباطرة عن إدخال البابوات تحت سيطرتهم . (١٣)

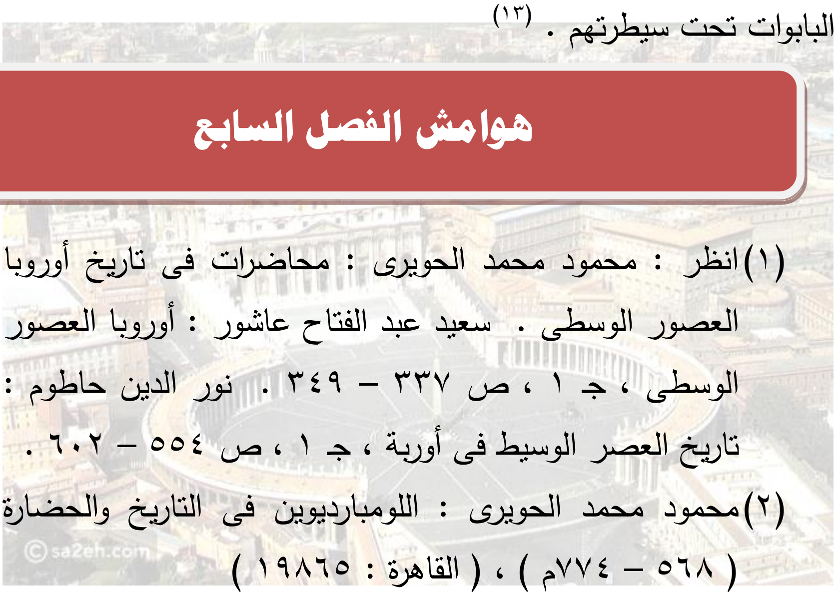

هوامش الفصل السابع

(١) انظر : محمود محمد الحويرى : محاضرات فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى . سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ – ٣٤٩ . نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربة ، جـ ١ ، ص ٥٥٤ – ٦٠٢ .

(٢) محمود محمد الحويرى : اللومبارديين فى التاريخ والحضارة (٥٦٨ – ٧٧٤م) ، (القاهرة : ١٩٨٦٥)

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٨ محمد عبد الشافى المغربى : آسيا الصغرى فى العصور الوسطى، (الإسكندرية : ٢٠٠٢) .

(٤) عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى ، (دمشق : ١٩٨٠) ، ص ٥١ – ٧٠ .

(٥)لمزيد من التفاصيل ، انظر : عادل زيتون : المرجع السابق .

(٦)عن حركة الإصلاح الكلونية ، انظر :

نورمان كطانتور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٧ – ٣٧٧

(٧)عن البابا جريجوى السابع ، انظر :

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص

(٨)عن الإمبراطورية والبابوية ، انظر :

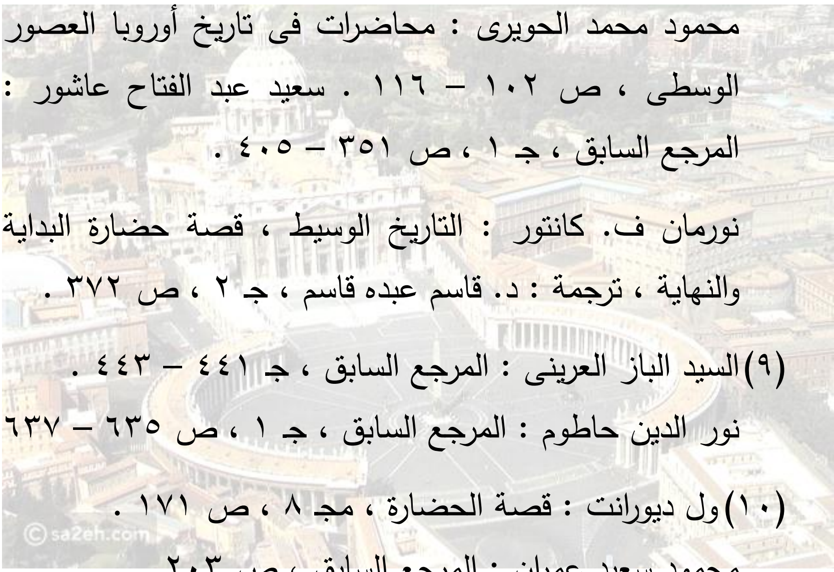

محمود محمد الحويرى : محاضرات فى تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٠٢ – ١١٦ . سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٥١ – ٤٠٥ .

نورمان ف. كانتور : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة البداية والنهاية ، ترجمة : د. قاسم عبده قاسم ، جـ ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٩)السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، جـ ٤٤١ – ٤٤٣ .

نور الدين حاطوم : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦٣٥ – ٦٣٧

(١٠)ول ديورانت : قصة الحضارة ، مجـ ٨ ، ص ١٧١ .

محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٠٣

(١١)ول ديورانت : المرجع السابق ، مجـ ٨ ، ص ١٧٢ – ١٧٣

معظم مراجع الحروب الصليبية خاصة الحملة الصليبية الثالثة .

(١٢)محمد عبد الشافى المغربى : آسيا الصغرى فى العصور الوسطى ، ص

(١٣) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٦٨ – ٣٧٢ . محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ – ٢١١ . ول ديورانت : المرجع السابق ، مج ٨ ، ص ٢٧٧ – ٢٩٠ .

تدريبات على الفصل السادس

السؤال الأول: **ظلل في شيت الإجابة** *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل** *False* ● **إذا كانت خاطئة**

١-منح دوق نابولى سنة ١٠٣٠م النورمان مدينة آفرسا ***Aversa*** بوصفها أول مقر لهم في إيطاليا

٢-أصبح روبرت جويسكارد زعيمًا للنورمان في إيطاليا عام ١٠٥٧م

السؤال الثاني: **تخير الإجابة الصحيحة من بين الأقواس ثم قم بتظليلها ● في شيت الإجابة**

١-كان الجنوب الإيطالي في نهاية القرن العاشر تحت سيطرة

(البيزنطيون– المسلمون– اللمبارديون– كل ما سبق)

السؤال الثالث: أكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن

١– حركة الإصلاح الكولوني.